



مجلة فصلية انشئت سنة ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م - الجزء الثالث - المجلد الواحد والخمسون

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م



مجلة المجمع العلمي



الفهـرس

الموضوع | الصفحة

دور المعرفة في التنمية الاقتصادية

أ. د. داخل حسن جريو
نائب رئيس المجمع العلمي

الملخص

تعاني البلاد العربية تخلفاً اقتصادياً برغم ما تملكه من ثروات طبيعية هائلة ، إذ تشير الدراسات إلى أن مجمل الناتج الاقتصادي العربي في نهاية القرن العشرين قد بلغ ما مقداره ٦٠٤ مليار دولار أمريكي ، وهو اكثر بقليل من ناتج دولة أوربية واحدة مثل أسبانيا ٥٥٩ مليار دولار ، ولا يصل الى دولة أوربية أخرى مثل ايطاليا ١٠٧٤ مليار دولار . وتشير بيانات البنك الدولي لعام ١٩٩٨ الى ان الناتج القومي للفرد في قوة العمل يقل في مجمل البلدان العربية عن نصف مستواه في كوريا الجنوبية على سبيل المثال ، ويشير تقرير التنمية البشرية في العام ١٩٩٨ / ١٩٩٩ الى ان معدل نمو الإنتاجية في عدد من دول العالم فاق في الصين ١٥% وفي كوريا ٨% وفي الهند ٦% في حين لا يتجاوز نسبة ٢. ٣% في تونس وموريتانيا والمغرب ١. ٢% في الأردن والجزائر واقل من ١% في الإمارات العربية والسعودية ، وتعد مصر وعمان افضل البلدان العربية في هذا المجال اذ تصل النسبة نسبتها الى ٣. ٤% .

أما نسبة الفقر فأنها بلغت في مصر في منتصف التسعينيات من القرن المنصرم قرابة ٤٠% وفي اليمن ٣٠% وفي الأردن ٢١% وفي

السودان ٨٥% وذلك طبقاً لبيانات برنامج الأمم المتحدة الإنمائي لعام ١٩٩٧ .

من ذلك يتضح جلياً ان البلاد العربية تعاني الفقر وضعف النمو الاقتصادي وانخفاض الإنتاجيةِ التي تعد جميعها تحديات جسيمة تواجهها . اذ يشهد العالم حالياً تحولاً متسارعاً نحو اقتصاد المعرفة ، اذ باتت المجتمعات المعاصرة تعتمد اكثر فاكثر على تداول المعلومات باستخدام شبكات المعلومات والسيطرة على صناعة المعلومات والاتصالات ، ولان اقتصاد المعرفة لا يتطلب استثمارات مالية ضخمة او مصادر طاقة باهظة او مواد أولية غير متوافرة لذا يعد الدخول في اقتصاد المعرفة امراً ممكناً ويسيراً لتحقيق التنمية الاقتصادية المنشودة لبلادنا .

تسلط هذه الدراسة الضوء على دور المعرفة في التنمية الاقتصادية بجوانبها المختلفة .

المقـــدمــــة

أدت تطورات المعلوماتية الى أحداث تغيرات جوهرية في البنية الاقتصادية والاجتماعية في الكثير من دول العالم ولاسيما الدول الأكثر تقدماً في المجالات الصناعية . وقد نجم عن هذا التطور ظهور نمـوذج اقتصادي جديد يعرف باقتصاد المعرفة اذ تؤدي المعرفة دوراً اساســياً في النشاط الاقتصادي لا يقل في أهميته عن دور راس المال نفســـه . وعلى الصعيد الاجتماعي برزت أنماط اجتماعية جديدة تختلف تمامـــاً عن تلك الأنماط التي شهدتها المجتمعات الصناعية في الحقب الســـابقة تعرف هذه المجتمعات الجديدة بمجتمعات المعرفة . تعتمد الشركات في اقتصاد المعرفة على حيازة المعرفة وحسن التصرف فيها فـــي زيـــادة الإنتاج والإنتاجية وتحسين جودة هذه المنتجات ، وكذلك تحسين فـرص المنافسة لتسويق المنتجات في الأسواق المحلية والعالمية بالاستفادة مـن تقانات المعلومات والاتصالات المختلفة . لقد أدى اقتصاد المعرفة الـى خلق فرص عمل جديدة وبات يسهم إسهاماً فاعلاً في التنمية الاقتصادية للبلدان الصناعية ويحقق نمواً مطرداً يفوق في معدلاتـــه مـــا تحققـه القطاعات الأخرى . يستند اقتصاد المعرفة بصورة أساسية الى تقانـــات المعلومات والاتصالات التي تشهد تقدماً مذهلاً . ولان تقانة المعلومـات والصناعات المنبثقة عنها لا تتطلب استثمارات مالية ضخمة ، كما انـها لا تتطلب مواد أولية او مصادر طاقة ، وانما كل ما تتطلبه عقول نـيرة مدربة ومؤهلة تأهيلاً جيداً في علوم وتقانات المعلومات والاتصــالات . لذا يعد دخول بلادنا فـــي اقتصـــاد المعرفـــة والتجـــارة الإلكترونيـــة والصناعات البرمجية امراً يسيراً ينبغي مباشرتها فوراً ، اذ ان اقطـــاراً

صغيرة كثيرة حققت نتائج باهرة في هذا المجال أبرزها سنغافورة والأرجنتين وايرلندا والسويد والدانمارك وفنلندة . وتشير الوقائع الى ان سوق الصناعات البرمجية عربياً وعالمياً تمثل سوقاً صاعدة آخذة بالتوسع والازدياد وهو أمر يؤمن مردودات مالية ممتازة ويوفر فرص عمل جيدة . ويرى بعض الخبراء ان تأثير هذه التقانات الجديدة في النمو الاقتصادي قد يصل الى اكثر من ٥٠% مقابل ١٠ ــ ١٥% من استثمار راس المال . يحذر أحد التقارير الصادرة عن منظمة الأمم المتحدة للتنمية ان المكاسب المتحققة في زيادة الإنتاج الناجمة عن استخدام التقانات الجديدة قد تسهم بتعميق الفروقات في النمو الاقتصادي بين الدول الصناعية والدول التي تفتقر الى الخبرات والمصادر والبنى التحتية اللازمة للاستثمار في مجتمع المعلومات . كما تحذر منظمة اليونسكو من انقسام العالم الحاد بين عالم الشمال حيث أقلية من السكان وعالم الجنوب حيث يتركز معظم سكان العالم . وقد نجم عن هذا الوضع ازدياد اعتماد دول الجنوب اكثر فاكثر على دول الشمال في انسيابية المعلومات . لقد بلغ تأثير هذه التقانات الحديثة الحد الذي بات فيه العالم يقسم طبقاً لمدى امتلاكها وتطورها في مجال تقانات المعلومات والاتصالات ، بخلاف ما كان عليه الحال حتى وقت قريب اذ كان العالم يقسم طبقاً لامتلاك الثروة بين دول فقيرة ودول غنية ، في حين تقسم الدول الآن تقسيماً رقمياً باستخدام مصطلح الفجوة الرقمية digital divide مؤشراً لمدى تقدم الدول المختلفة . لقد أدت الشراكة بين الجامعات والمؤسسات الصناعية الى نقل الاختراعات والاكتشافات الجديدة من المختبرات الى المصانع . ولعل ابرز هذه الإنجازات ما تم تحقيقه في مجالات تقانات المعلومات والاتصالات والإلكترونيات

والتقانة الإحيائية والهندسة الوراثية وتقانات المواد الجديدة ومصادر الطاقة الجديدة والمتجددة . تشير بعض " الدراسات الى انه توجد حالياً ٢٠٠ جامعة أمريكية مهتمة بنقل التكنولوجيا وخلقها ، وهذا يمثل ثمانية أضعاف عددها عام ١٩٨٠ . ويبلغ عدد براءات الاختراع التي تمنح سنوياً للجامعات الأمريكية اكثر من ١٠٠٠ براءة اختراع ، ويبلغ المردود المالي الناجم عن استثمار هذه البراءات اكثر من ٢١ مليار دولار أمريكي وتوفير اكثر من ١٨٠ ألف فرصة عمل سنوياً . ونظراً لأهمية المعرفة في الاقتصاد العالمي ، ولان بلادنا تقف اليوم على أعتاب مرحلة جديدة يتوقع ان تشهد فيها تغييرات جوهرية وشاملة في بنيتها الاقتصادية والاجتماعية ، لذا يصبح الولوج في اقتصاد المعرفة مسالة في غاية الأهمية لتحقيق التنمية المنشودة لبلادنا المزدهرة باذن الله .

مجتمع المعرفة

أصبحت المعرفة في الوقت الحاضر أحد أهم عناصر الإنتاج في الاقتصاد المعاصر . عليه يصبح توليد المعرفة واستخدامها امراً ضرورياً للتنمية . ويقصد بالمعرفة هنا المعرفة العلمية والتقنية او ما يطلق عليه باللغة الأجنبية Know – how اذ ان الدول متباينة في امتلاكها لهذه المعرفة فالدول الصناعية لديها مخزون معرفي هائل جداً ، في حين لا تمتلك معظم الدول النامية الا قدراً متواضعاً من هذه المعرفة ، لذا نجم عن هذا التباين ما يعرف بفجوة المعرفة Knowledge gap أي الفروقات بين الدول بامتلاكها المعلومات والمعارف العلمية والتقنية ، ومن ثم الفروقات في القدرات على توظيف

هذه المعارف لتحقيق التنمية في البلدان المختلفة في شتى مجالات الحياة . أصبحت المعلومات والمعرفة احد اهم مصادر القوة في عصرنا الحاضر ، وتفوق في أهميتها مصادر الثروة الطبيعية وراس المال وقوة العمل ، او في احسن الأحوال . فانها لا تقل عنها أهمية بتحقيق التنمية والتطور لاي بلد من البلدان وهو امر يتطلب بذل جهود حثيثة بكل الوسائل الممكنة لامتلاك المعرفة وبناء مجتمع المعلومات والمعرفة لتحقيق التقدم والازدهار لبلادنا . يمكن اكتساب المعرفة بالتعليم والتدريب وتراكم الخبرة والتعلم في اثناء العمل . هناك انواع كثيرة من المعرفة منها :

ـ معرفة الحقائق : Know how وقد أصبحت هذه المعرفة ذات أهمية قليلة في الوقت الحاضر .

ـ معرفة المبادئ التي تتحكم بالظواهر الطبيعية والاجتماعية Know why.

ـ معرفة المهارة Know what.

ـ معرفة من يعرف وماذا يعرف Know who : ان معرفة الأشخاص الذين يملكون المعرفة تعد اكثر أهمية احياناً في الإبداع من معرفة الحقائق .

ـ معرفة مكان المعرفة Know where .

يقصد بمجتمع المعرفة على وجه التحديد انه ذلك المجتمع الذي يقوم اساساً على نشر المعرفة وانتاجها وتوظيفها بكفاية في جميع مجالات النشاط المجتمعي : الاقتصاد والمجتمع المدني والسياسة والحياة الخاصة ، وصولاً لترقية الحالة الإنسانية باطراد ، أي إقامة التنمية الإنسانية اذ تلعب المعرفة دوراً حاسماً ، ويزداد عدد العاملين في

منظومة المعرفة ، ونصيبهم من قوة العمل ، وترتفع نسبة وقت العمل المخصص للنشاطات المعتمدة على كثافة المعرفة . وتعد المعرفة عنصراً جوهرياً من عناصر الإنتاج ومحدداً اساسياً للإنتاجية ، بمعنى انه ثمة تضافر قوي بين اكتساب المعرفة والقدرة الإنتاجية في المجتمع ويزداد هذا التضافر قوة في النشاطات الإنتاجية العالية القيمة المضافة التي تقوم بدرجة متزايدة ، على كثافة المعرفة والتقادم المتسارع للمعارف والقدرات . هذه النشاطات هي معقل القدرة التنافسية على الصعيد العالمي خاصة في المستقبل ، وهي من ثمة أحد المداخل للتنمية في البلدان العربية (١) .

يلعب التعليم عامة والتعليم العالي خاصة والبحث العلمي وتقانات المعلومات والاتصالات دوراً مهماً في تنمية مجتمعات المعرفة لذا أولتها الدول المختلفة اهتماماً بالغاً من خلال الاستثمارات المالية الكبيرة في هذه القطاعات والتثبت من مردوداتها الاقتصادية المؤثرة في تنمية مجتمعاتها وتحقيق فرص افضل في المنافسة مع الدول الأخرى في جميع المجالات . وتعد فجوة المعرفة أحد أهم معالم تقدم المجتمعات ورقيها وتطورها في عصرنا الحاضر وهو امر يتطلب بذل جهود حثيثة لإغلاقها ، او في الأقل عدم السماح باتساعها الى حدود يصعب معها إغلاقها في المراحل اللاحقة . يشير السيد جيمس ويلفنسون رئيس البنك الدولي في أحد تعليقاته الى ان أحد أسباب فقر الناس هو عدم قدرتهم على منافسة الآخرين لافتقارهم الى المعرفة . وتشير الوقائع الى اتساع فجوة المعرفة بين الدول الصناعية والدول النامية اكثر فاكثر في وقتنا الحاضر وذلك بسبب ازدياد القيود التي تفرضها الدول الصناعية على انتقال المعلومات والمعرفة الى الدول النامية بدعاوى حماية الملكية

الفكرية التي ازدادت حدتها في السنوات الأخـــيرة بدعـــاوى محاربـــة الإرهاب وحجبها عن فئات بعينها لحرمانها من الإفادة منها في رقـــي شعوبها وتقدمها في الوقت الذي يشهد فيه العالم تدفقاً معرفياً هائلاً فـــي شتى العلوم المعارف ، وان وسائل نشر هذه المعلومات الممثلة بشبكات المعلومات وأقراص الحواسيب ووسائل الاتصالات المختلفة أصبحـــت متاحة لجميع الدول . لقد أصبحت المعرفة العلمية والتقنية في الكثير من الأحيان سلعة تجارية لا يمكن الحصول عليها الا بعد دفع ثمنـــها الـــى مالكيها الذين يحرصون اشد الحرص على احتكارها وعـــدم بيعـــها الا على وفق شروطهم الخاصة ، وهو امر يتطلب تضافر جهود علمائنـــا ومبدعينا لتنمية المعرفة العلمية والتقنية وتبـــادل الخـــبرات لتوظيفـــها لأغراض رقي مجتمعنا الناهض وتقدمه . وفي جميع الاحوال لا بد من الاعتماد على قدراتنا الذاتية في المقام الاول بعـــد الاعتمـــاد علـــى الله الواحد الاحد . ولتحقيق هذا الغرض لا بد من إعادة نظر شاملة وجـــادة في مؤسساتنا التعليمية لتكون بحق مصدر إثـــراء للمعرفـــة العلميـــة والتقنية التي يمكن توظيفها في مجالات الإنتاج الصناعية والزراعيـــة والاقتصادية ، والعمل الدؤوب على تراكم هذه المعارف لبناء الخـــبرات الوطنية المتقدمة اذ لم تعد هناك قيمة تذكر لعلوم او معارف لا ترتبـــط بصورة او بأخرى بحاجات مجتمعاتها . وتعد الحاضنات التقنية احد اهم وسائل ربط المعرفة العلمية بجوانبها التطبيقية ، وتعد المجمعات العلمية أحد اهم البيئات التي تنمو وتزدهر فيها المعرفة العلمية ، وتتوافر لديـــها فرص تحويلها الى منتجات صناعية وسلع تجارية وهو أمـــر يتطلـــب ايلاءها اهتماماً خاصاً والتفكير الجاد والعمل على اســـتحداثها بأســـرع وقت ممكن .

تمتاز مجتمعات المعرفة بأنها مجتمعات رقمية digital societies أي انها مجتمعات تعتمد على تقانات المعلومات والاتصالات في مناحي حياتها المختلفة الى الحد الذي بات مواطنوها يعرفون بالمواطنين الرقميين digital citizen كما تعرف هذه المجتمعات احياناً بالمجتمعات المرتبطة connected societies ويقصد بذلك المجتمعات المرتبطة جيداً بشبكة الإنترنت والقادرة على توظيفها لأغراض التنمية الشاملة ، اذ يلاحظ ان هناك تبايناً واضحاً في قدرات الدول فيما يتعلق بامتلاك تقانات المعلومات وفي القدرة على توظيفها لغايات ومقاصد علمية وثقافية واجتماعية واقتصادية وغيرها من جهة ، كما يلاحظ ان هناك تبايناً واضحاً في قدرات الأفراد والجماعات داخل البلد الواحد نفسه من جهة أخرى ، فعلى مستوى الدول يلاحظ ان الدول الصناعية في أوربا واليابان وأمريكا الشمالية وبعض أقطار جنوبي شرقي آسيا أوفر حظاً بامتلاك تقانات المعلومات واكثر قدرة على توظيفها لأغراضها المختلفة ، في حين لا تمتلك الدول النامية الا النزر اليسير من هذه التقانات التي تنعكس سلباً على قدراتها بالإفادة منها بصورة فاعلة ومؤثرة لمصلحة أغراضها المختلفة ، اما على صعيد الدول بصورة منفردة فانه يلاحظ ان الفئات العمرية دون سن الأربعين سنة في جميع دول العالم هي الأكثر تعاملاً مع تقانات المعلومات المختلفة ، وان الرجال اكثر استخداماً لها من النساء ، وان سكان المدن اكثر استخداماً لها من الفقراء في كل زمان ومكان .

ومن هنا فقد برز مصطلح الأمية الحاسوبية الذي يقصد به عدم قدرة الأفراد على التعامل مع الحواسيب بأي شكل من الأشكال ، والذي تطور في السنوات الأخيرة الى مصطلح الفجوة الرقمية

digital divide ليشير الى مدى التباين في القدرة على التعامل مع الحواسيب وتقانات المعلومات وشبكاتها المحلية والدولية والإفادة منها في مختلف شؤون الحياة بين الدول المختلفة من جهة وفئات المجتمع الواحد في البلد الواحد من جهة أخرى وجعلها معلماً على مدى الرقي والتقدم ، وكالعادة تسعى الدول الصناعية لاسيما الدول الكبرى منها الى احتكار هذه التقانات ومنع انتشارها الى الدول الأخرى الا بالقدر الذي يخدم مصالحها الاقتصادية الضيقة بحيث تكون الدول الصناعية مالكة لهذه التقانات وتكون الدول الأخرى مستهلكة لها لا غير .

يشير احد تقارير التنمية البشرية لهيئة الأمم المتحدة UNDP الى ان مجموع عدد مستخدمي شبكة الإنترنت قد بلغ عام ٢٠٠٢ في أرجاء العالم المختلفة ما مجموعه ٢, ٥٤٤ مليون شخص بعد ان كان عددهم ١٥٠ مليون شخص عام ١٩٩٩ أي بزيادة مقدارها ٣٩٤ مليون شخص خلال ثلاث سنوات فقط ، ويتوقع ان يصل عدد المستخدمين الى قرابة مليار شخص بحلول عام ٢٠٠٥ ، يتوزع هؤلاء المستخدمون عالمياً بنسبة ٣, ٣٣% في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا ونسبة ٥, ٣١% في أوربا ٩, ٢٨% في شرق آسيا والمحيط الهادي ٧, ٤% في أمريكا اللاتينية و ٩, ٠% في الشرق الأوسط و ٨, ٠% في أفريقيا . وتبلغ نسبة المستخدمين قياساً الى مجموع السكان في المناطق المختلفة ٦, ٥٦% من مجموع سكان الولايات المتحدة الأمريكية وكندا و ٦, ٢٣% في الدول الأوربية ٢, ٤% في دول شرق آسيا والمحيط الهادي و ٧, ٤% في دول أمريكا اللاتينية و ٤, ٢% في دول الشرق الأوسط و ٥, ٠% في الدول الأفريقية ، وتجدر الإشارة الى ان المعدل العام في العالم يبلغ ٥, ٨% ، وقد حذر الأمين العام للأمم المتحدة

كوفي عنان في تشرين الأول ١٩٩٩ في أثناء انعقاد مؤتمر الاتصالات في جنيف بسويسرا من خطر حرمان الدول الفقيرة من الإفادة من الثورة المعلوماتية اذ لا يصح ان بلداً اوربياً صغيراً مثل السويد يفوق عدد مستخدمي الإنترنت فيه عددهم في عموم قارة أفريقيا ، وان ثلثي مستخدمي الإنترنت في العالم هم في خمسة أقطار فقط هي الولايات المتحدة الأمريكية واليابان وبريطانيا وألمانيا وكندا وان ما موجود من مواقع الإنترنت في مدينة نيويورك مثلاً هو اكثر مما موجود في قارة أفريقيا جميعها ، كما تتباين الدول الأوربية نفسها ، ففي السويد والدنمارك وفلندة يملك ثلثا السكان وسائل اتصال بالإنترنت مقابل عشر السكان في دول حوض البحر الأبيض المتوسط .

وعلى صعيد اللغات المستخدمة في شبكة الإنترنت تقع اللغة الإنكليزية في المقدمة بنسبة ٤٠% ، تليها اللغة الصينية بنسبة ٨ , ٩% واللغة اليابانية بنسبة ٢ , ٧% في حين يبلغ عدد مواقع الإنترنت باللغة الإنكليزية ما نسبته ٨٠% من مجموع المواقع في العالم .

يشير أحد تقارير الاسكوا الى ان معدل الاستخدام العالمي لشبكة الإنترنت يفوق معدل الاستخدام العربي ٢٤ مرة وان استخدام الدول النامية يفوقه ٥ , ٢ مرة وان معدل استخدام الدول الصناعية يفوقه ٨٠ مرة . اما معدل انتشار الحواسيب الشخصية في الوطن العربي فانه يقل عن المعدل العالمي سبع مرات وعن المعدل في الدول الصناعية ١٤ مرة ، في حين تمتلك الولايات المتحدة الأمريكية اكثر من نصف الحواسيب الموجودة حالياً في العالم في الوقت الذي لا يزيد فيه عدد سكانها على ٥% من مجموع سكان العالم . ويشير تقرير التنمية البشرية العربي لعام ٢٠٠٣ الى ان عدد مستخدمي الإنترنت في الدول

العربية وصل في العام ٢٠٠١ الى ٢,٤ مليـــون شـــخص يشـــكلون ٦,١% من سكان الوطن العربي ، مقارنة بأقل من ١% فـــي العـــام ٢٠٠٠ . ويرجع انخفاض عدد مستخدمي الإنترنت في البلاد العربيـــة لعدة أسباب ، أهمها ضعف مستوى المعرفة بالحواسيب والإنـــترنت ، وارتفاع الخطوط المستخدمة ورسوم الاشتراك ، ولا شك ان هناك تبايناً في عدد الحواسيب وعدد مستخدمي شبكة الإنترنت على صعيد الأقطار العربية نفسها ، اذ تقع مصر وتونس ولبنان والإمارات العربية المتحـدة في مقدمة الأقطار العربية ، وفي مجال الاتصالات فان الحال لا يختلف كثيراً اذ لا يزيد عدد الخطوط الهاتفية في أفريقيا علـــى هـــاتفين لكـــل ١٠٠٠ نسمة مقابل ٢٨٠ هاتف في الولايات المتحدة الأمريكية و ٣١٤ هاتف في الدول الأوربية ، ناهيك بالنقص الشديد في الملاكات العلميـــة في مجالات تقانات المعلومات والاتصالات الذي تعانيه معظم الأقطـــار النامية وافتقار الكثير منها الى الخبرات الضرورية لإرساء أسس البنـــى التحتية لهذا القطاع الحيوي المهم جداً ، إضافـــة الـــى قلـــة الأجـــهزة المتوافرة لديها وتواضع مواصفاتها وبطء سرعتها وضعف كفايتها قياساً لما هو موجود في الدول الصناعية ، وجميع هذه الأمور تؤثر سلباً فـــي مجالات التعاون الإقليمي والدولي . وتبذل مصر حالياً جـــهوداً حثيثـــة للنهوض بقطاع الاتصالات والمعلومات ، ففي المؤتمـــــر والمعـــرض الدولي للاتصالات أفريقيا تليكوم ٢٠٠٤ ، المنعقد في القاهرة في مطلع شهر أيار ٢٠٠٤ الذي نظمه الاتحاد الدولي للاتصالات تحت عنـــوان " الأولوية لأفريقيا " حيث شارك فيه ٤٠ من وزراء الاتصالات العرب والأفارقة و ٣٠ شخصية بارزة في مجال الاتصـــالات و ٢٠٠ شـــركة صناعية متخصصة وبرعاية رئيس جمهورية مصر العربيـــة ، اشـــار

وزير الاتصالات المصري الى ارتفاع عدد الهواتف الثابتة في مصر من ٤,٩ مليون هاتف عام ١٩٩٩ الى ٩,٢ مليون هاتف في الوقت الحاضر ، وازدادت خطوط الإنترنت من ٣٠٠ الف خط الى ٣,٢ مليون خط حالياً ، واشار الى ان اكثر قطاع يجذب الاستثمارات حالياً هو قطاع الاتصالات مشيراً الى ان الاستثمارات بلغت ٤٥٠ مليون دولار في مجال المعلومات و ١,١ مليار دولار في مجال الهاتف المحمول خلال أربع سنوات ، وبلغت استثمارات الشركة المصرية للاتصالات ٢,١ مليار دولار . وباشرت مصر مشروعها الجديد للإنترنت الفائق السرعة كمرحلة ثانية من الإنترنت المجانية ، وهي خدمة جديدة متميزة لنقل الصوت والصورة والبيانات على شبكة الإنترنت بسرعة وكفاءة عالية تبلغ عشرة أضعاف سرعة الإنترنت الاعتيادية ، وتتيح الخدمة في جميع المحافظات المصرية . وفي العراق فان قطاع المعلومات والاتصالات ما زال ضعيفاً جداً مقارنة بالدول العربية الأخرى ، اذ يقدر عدد الحواسيب الشخصية حالياً ٢٠٠ ألف حاسوب أي حاسوب واحد لكل ١٣٠ شخصاً ، اما عدد مستخدمي الإنترنت فانه لا يتجاوز ٤٥٠٠٠ شخصاً ، ويبلغ عدد الخطوط الهاتفية الثابتة ٧٠٠ ألف خط ، وعدد المشتركين في الهاتف المحمول في بداية عام ٢٠٠٣ قرابة ٢٢ ألف هاتف (٢) .

اقتصاد المعرفة

أصبحت المعرفة في الدول الصناعية اكثر أهمية من مصادر الثروة في التنمية الاقتصادية لدرجة أصبحت فيها المعرفة العامل الأساسي الذي بات يحدد درجة مستوى معيشتها وتقدمها اكثر مما تحدده عوامل التنمية الأخرى كراس المال والمواد الطبيعية ومصادر الطاقة والأيدي العاملة . يشير تقرير التنمية البشرية لهيئة الأمم المتحدة الصادر عام ١٩٩٩ الى ان الاقتصاديات المتقدمة تقنياً هي في الحقيقة الاقتصاديات المستندة الى المعرفة ، اعتمدت التنمية الاقتصادية التقليدية طوال السنين السابقة عل عنصرين أساسيين هما : راس المال والأيدي العاملة واعتبرت المعرفة والمهارة والتعليم جميعها عوامل مساعدة في التنمية . وضع عالم الاقتصاد الأمريكي Paul Romer من جامعة Stanford وآخرين في الأعوام ١٩٨٦ ــ ١٩٩٠ نظرية جديدة في التنمية الاقتصادية (٣) مفادها ان المعرفة قد أصبحت العامل الثالث في التنمية في الدول الاقتصادية المتقدمة ، تمتاز هذه النظرية بعدة مزايا هي :

١. تعد المعرفة وحدة راس المال الأساسية وبتراكم المعرفة يتحقق النمو الاقتصادي .
٢. تساعد التقانة على نمو عائدات الاستثمار .
٣. يساعد الاستثمار المعرفي على تطوير التقانة والعكس بالعكس .
٤. تساعد قوانين الحماية الفكرية تحفيز الشركات على الاستثمار في البحث والتطوير .

٥. تساعد التقانات الجديدة على المزيد من الإبداعات والاختراعات التي تسهم بالمزيد من التقدم الصناعي .

ومن هنا برز مصطلح اقتصاد المعرفة Knowledge Economy يقصد باقتصاد المعرفة : الاقتصاد الذي يلعب فيه توليد المعرفة وتوظيف هذه المعرفة الدور الأساسي في خلق الثروة خلافاً لما كان عليه الحال في الحقب السابقة اذ لعبت الآلات والمعدات والأيدي العاملة الدور الأساسي في خلق الثروة . لذا تعتبر المعرفة وحدة راس المال الأساسية في اقتصاد المعرفة ، ويعتمد النمو الاقتصادي على تراكم المعرفة . هناك أسباب كثيرة لتأثير المعرفة في الاقتصاد ، أبرزها الآتي :

١. أدى تطور تقانات المعلومات والاتصالات الى نقل سريع ورخيص للمعلومات وتداول المعرفة في أرجاء العالم المختلفة .
٢. أدى التنافس الدولي الى تخفيض الكلفة .
٣. أدى التطور العلمي والتقني الى زيادة النمو المعرفي .
٤. ساعدت التقانات الرقمية على تخفيض كلف معالجة المعلومات وخزنها واستحصالها بسرعة عالية .
٥. أدت زيادة مدخولات الأفراد وتغيير أذواقهم الى زيادة الطلب على منتجات اقتصاد المعرفة .

وتطلق على اقتصاد المعرفة تسميات أخرى مثل اقتصاد المعلومات **Information Economy** او الاقتصاد الرقمي **Digital Economy** او اقتصاد الإنترنت **Internet Economy** او الاقتصاد الشبكي **Network Economy** .

يقصد باقتصاد الإنترنت النشاط الاقتصادي الذي يستند الى شبكة الإنترنت ويشمل ذلك الشركات التي تعود عائداتها كلياً او جزئياً من أنشطتها على الشبكة او ان منتجاتها او خدماتها متعلقة بالشبكة .

يصنف اقتصاد الإنترنت على الوجه الآتي :

ـ بنية الإنترنت التحتية .

ـ بنية تطبيقات الإنترنت التحتية .

ـ وسائط الإنترنت .

ـ تجارة الإنترنت .

لقد ساعدت شبكة الإنترنت الشركات على تحسين سبل التعاون مع الزبائن وتحسين الخدمات وزيادة كفاية تسويق منتجاتها وتوزيعها في جميع أرجاء العالم بيسر وسهولة . كما ساعدت شبكات المعلومات الداخلية المعروفة بالإنترانيت على تبادل المعلومات بين أقسام الشركة المختلفة من جهة . كما انها أتاحت للزبائن فرصاً افضل لمقارنة منتجات الشركات المختلفة والمفاضلة فيما بينها وحتى طلب منتجات حسب مواصفاتهم الخاصة . بينت دراسة لمركز بحوث التجارة الإلكترونية التابع لجامعة تكساس الأمريكية عام ٢٠٠١ ان عائدات الشركات الأمريكية المرتبطة بالإنترنت قد شهدت نمواً مقداره ٨ , ٥٨% بين الربع الأول من عام ١٩٩٩ والربع الثاني من عام ٢٠٠٠ . وتمثل عائدات الإنترنت ١/٥ إجمالي العائدات الاقتصادية ، وتشهد نمواً سريعاً بمعدل ثلاثة أضعاف . وفي مجال توفير فرص العمل فان قطاع اقتصاد الإنترنت شهد نمواً بلغ مقداره ٦ ,٢٢% بين الربع الثاني من عام ١٩٩٩ والربع الثاني من عام ٢٠٠٠ . بلغ عدد العاملين في هذا القطاع ٠٨٨, ٣ مليون عامل في منتصف عام

٢٠٠٠ بضمنهم ٦٠٠,٠٠٠ عامل استخدم أول مرة في منتصـــف عام ٢٠٠٠ . ويشهد هذا القطاع نمواً بمعدل أربعة أضعاف أمثاله فـــي القطاعات الأخرى بشأن فرص العمل . لقد شهد قطاع الإنترنت نمـــواً هائلاً من الصفر الى ٨٠٠ مليار دولار خلال خمس سنوات .

تتصدر الولايات المتحدة العالم في مجال تقانـــات المعلومـــات والاتصالات اذ تبلغ استثماراتها في هذا المجـــال ٤٠% مـــن إجمـــال الاستثمارات العالمية ، وتزداد قدرة الولايـــات المتحـــدة فـــي مجـــال الحواسيب بمعدل ٣٥% سنوياً وان ٩٠% من مواقع الإنترنت تقع فـــي الولايات المتحدة يرتبط ٢٠ مليون منزل هناك بشبكة الإنترنت ويرتبـــط قرابة ٣٠ مليون شخص بالشبكة من خلال المدارس والجامعات ومواقع العمل الأخرى أي ما مجموعه ٥٠ مليون شخص . ويســـتخدم ١٠% منهم شبكة الإنترنت بانتظام لأغراض التسوق والخدمات الأخرى .

وفي أوربا قامت دول الاتحاد الأوربي بجهود مهمـــة لتطويـــر اقتصاد المعرفة اذ أصبحت صناعة المعلوماتية تمثل ٦% من الدخـــل القومي وهي تشهد نمواً مطرداً اكثر من اية صناعة أخـــرى ، وأزداد عدد المنازل المرتبطة بالإنترنت في العام المـــاضي مـــن ١٨% الـــى ٣٠% . وفي مجال استخدام الحاسوب بلغـــت نسـبة العمـــال الذيـــن يستخدمون الحاسوب ٤٥% وعدد الموظفين ٥ , ٧٣% وتميزت هـــذه الدول بمنظومة تعليم جيدة وبمنظومة تقويم مهارة تقانـــة المعلومـــات والاتصالات تعرف باسم إجازة قيـــادة الحاســـوب الأوربيـــة ECDL وتميزت بعض الدول الأوربية في مجال الهواتف اللاسلكية والبطاقـــات الذكية والتلفاز التفاعلي ، واصبح مركز البحوث الذي أنشـــأته شـــركة Nokia الفلندية في جامعة Tamper أحـــد ابـــرز مراكـــز بحـــوث

الاتصالات المتقدمة في العالم . وساهمت تقانة المعلومات والاتصالات في زيادة فرص العمل في دول الاتحاد الأوربي بنسبة ١٠% وما زالت هناك فرص عمل شاغرة يتوقع ان يبلغ عددها ٧ , ١ مليون فرصة عمل اذا لم يتم تأهيل أعداد كافية لشغلها .

لقد أحدثت تقانات المعلومات والاتصالات تغييرات مهمة في مجالات العمل المختلفة ، وقد ساعد انخفاض أسعار أجهزة الحاسوب والبرمجيات وخدمات الإنترنت ووسائل الاتصال المختلفة على الاستخدام الواسع لتقانات المعلومات والاتصالات من الافراد والمؤسسات على حد سواء . يشير تقرير قسم التجارة في الولايات المتحدة الأمريكية لعام ٢٠٠٠ الى ازدياد الاستثمارات في صناعة المعلومات والاتصالات والبرمجيات من ٢٤٣ مليار دولار في عام ١٩٩٥ الى ٥٠١ مليار دولار في عام ١٩٩٩ . وتمثل هذه الصناعة ٣ , ٨ % من إجمال ناتج الاقتصاد الأمريكي لعام ١٩٩٩ ، وتسهم بنمو اقتصادي قرابة ثلث إجمالي نمو الاقتصاد الأمريكي للأعوام ١٩٩٥ ـ ١٩٩٩ . وفي عام ١٩٩٨ ساهمت هذه الصناعة بما يقارب ثلث إجمالي الدعم المالي الذي قدمته الشركات والمؤسسات الأمريكية لدعم البحث والتطوير .

وفي دمشق افتتح مؤخراً وزير السياحة السوري أعمال الاجتماع السادس والعشرين للجنة اقليم الشرق الأوسط التابعة لمنظمة السياحة العالمية بعنوان " السياحة الإلكترونية الطريق الى النجاح التنافسي " اذ أشار الوزير السوري الى ان شبكة الإنترنت وفرت الفضاء المثالي لتوفير المعلومات المحدثة باستمرار عن المقاصد السياحية لتصبح المصدر الأول للحصول على المعلومات وهو امر

اسهم في انخفاض دور الوسائل التقليدية للترويج السياحي . واشار الى ان الشبكة توفر المعلومات الانية عن وضع مقاعد الطائرات والغرف الجاهزة للحجز مما اسهم في زيادة نسب الحجوزات الكترونياً حسب إحصاءات المنظمة العالمية للسياحة حيث بلغت ٢٠% ويتوقع ان تصل الى ٣١% عام ٢٠٠٥ وحجوزات الفنادق الكترونياً ١٣% والسيارات ٢٩% (٤) .

ويتوقع ان تسهم السياحة الإلكترونية اسهاماً فاعلاً في التجارة الإلكترونية ، وهذا يتطلب اندماجاً اكبر في مجتمعات المعرفة عبر توفير بنية اتصالات سريعة ونظم مدفوعات إلكترونية وبنية آمنة وقوانين حماية للتجارة الإلكترونية وتخفيض استخدام الشبكة من مزودي خدمة الإنترنت وتخفيض كلفة الاتصالات الهاتفية الدولية والمحلية ورفع عدد الخدمات الآمنة لتحقيق الصفقات والمعاملات التجارية .

وتشير الوقائع والأحداث جميعها الى انه ليس هناك طريق للتنمية في اقتصاد المعرفة سوى التعليم وخلق المعرفة . يمكن اكتساب المعرفة بالخبرة او بالتعلم او كليهما معاً . يعتمد النمو الاقتصادي في اقتصاد المعرفة في أي بلد من البلدان على قدرته على التحول الى اقتصاد المعرفة ، ولا يقصد باقتصاد المعرفة القدرة على استخدام التقانات الحديثة للوصول الى المعرفة العلمية فحسب ، بل تعني القدرة على التواصل مع الآخرين في مجالات الإبداع المختلفة ، أي باختصار القدرة على التعلم والإسهام في الإبداع ، وهذا يتطلب تعليم الناس كيفية التعلم عبر بناء منظومة تعليمية راقية تتسم بالجودة والمرونة وتستجيب بفاعلية وكفاية عالية لمتطلبات التنمية والتأهيل واعادة تأهيل مستمرة

للقوى العاملة والملاكات الفنية والتقنية مدى الحياة . جاء في تقرير البنك الدولي لعام ١٩٩٩ ان التعليم الذي لا ينفتح على الإبداع والمعرفة لا يمكن ان يحقق التنمية الاقتصادية . من ذلك نخلص الى ان الاستثمارات في تقانة المعلومات والاتصالات تفضي الى نتائج مثمرة بدفع عجلة التقدم في أي بلد من البلدان ، الا ان ديمومة هذا التقدم تحتاج الى عناصر بشرية مدربة تدريباً جيداً في فروع المعرفة المختلفة وهذا يعني ان التعليم النظامي والتدريب والتعلم في اثناء العمل جميعها تؤدي الى اكتساب المهارة وتطوير القدرات ، ومن ثم تحقيق معدلات نمو اقتصادي افضل مما ينجم عنه تحسين مستويات المعيشة لمواطنيها لذا يتطلب الأمر خلق البيئة التعليمية المتطورة والاهتمام بتدريب الملاكات التدريسية وتطوير المناهج الدراسية والعناية بطرائق التدريس وتهيئة جميع مستلزمات العملية التعليمية ، ويلعب التعليم المستمر والتعليم الذاتي والتعلم في أثناء العمل دوراً مهماً في زيادة المعرفة والانتقال السريع من مهنة الى أخرى دون عناء ، ولا بد من السعي المستمر لاكتشاف المبدعين والموهوبين الشباب ودعم إبداعاتهم ومخترعاتهم والإفادة منها عملياً بكل الوسائل الممكنة . وتعد حماية الملكية الفكرية من أهم مرتكزات تنمية اقتصاد المعرفة .

ويكتسب الترابط بين الجامعات وحقل العمل في جميع المجالات أهمية خاصة ، ذلك ان الجامعات هي المصدر الرئيس لاثراء المعرفة بجوانبها المختلفة ، لذا أولتها الدول المختلفة اهتماماً بالغاً اذ غالباً ما تنشأ الجامعات الحديثة وخاصة الجامعات التقنية في مراكز التجمعات الصناعية ، يرتبط معهد MIT الشهير في الولايات المتحدة الأمريكية بأكثر من ١٠٠٠ شركة التي تقدر مبيعاتها العلمية بأكثر من ٥٣ مليار

دولار . ويتوقع ان يترك اقتصاد المعرفة اثاراً اجتماعية كثيرة بسبب عدم استقرار الكثير من الناس في مهن ثابتة كما كان عليه الحال في الحقب السابقة بل اضطرارهم الى الانتقال من مهنة الى أخرى بحسب متطلبات العمل ، وان الكثير من الأعمال يمكن تأديتها في البيوت دون الحاجة للذهاب الى مراكز تجمع العمل ، وان هذه الأعمال قد لا تكون مرتبطة بمكان وزمان معينين ، وقد برز ما يعرف بفجوة المعرفة بين أغنياء المعرفة وفقراء المعرفة بين الدول المختلفة من جهة والفئات المختلفة داخل البلد الواحد ، بين الشباب وكبار السن ، وبين الرجال والنساء وبين سكان المدن وسكان الأرياف ..... الخ يتداول الناس الان مصطلح عمال المعرفة Knowledge workers ، ويقصد بذلك الناس الذين يتعاملون مع الرموز Symbolic analyses وليس الآلات والمعدات ، ويشمل ذلك المعماريين والعاملين في المصارف ومصممي الأزياء والمعلمين والعاملين في المؤسسات المالية ومحللي السياسة . يقدر عدد عمال المعرفة في الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال ٦٠% من مجموع قوة العمل ، وتعد المبادرة والإبداع والانفتاح على التغيير عناصر مهارة مهمة في اقتصاد المعرفة .

التأهيل والتدريب

ان ابرز ما تواجهه المجتمعات البشرية في مطلع القرن الحادي والعشرين هو تامين العمل لجميع أفرادها وديمومة النمو الاقتصادي في ظل اقتصاد العولمة الذي تشهد فيه الدول المختلفة تسابقاً حاداً طبقاً لقدراتها العلمية والتقنية وتوافر راس المال ومصادر الطاقة والمواد الأولية وتراكم الخبرات وتطور بيئاتها الصناعية والاجتماعية على حد سواء . ولمواجهة تحديات العولمة هذه فقد أدركت دول العالم المختلفة ان تنمية قدرات ومهارات مواطنيها وتطوير برامجها ونظمها التعليمية المختلفة وتخصيص المبالغ اللازمة لأغراض التعليم والتدريب والتأهيل المستمر طبقاً لمستجدات العلوم الحديثة ومبتكرات التقانة المتقدمة بهدف الإفادة السريعة منها لأغراض التنمية المختلفة وزيادة الإنتاج والإنتاجية بصورة او بأخرى ، انما تتطلب إيجاد نظام تعليمي راقٍ يتسم بالجودة والكفاية والمرونة ويسهم باكتشاف المبدعين والمتميزين في حقول المعرفة المختلفة ، لقد أثبتت الوقائع ان التعليم ولا شيء سواه يمكن ان يفضي الى تحقيق نهضة شاملة لاي بلد من البلدان ، فالبلدان التي حققت وتائر تقدم عالية وجد ان الفضل في ذلك يعود بالدرجة الأساسية الى جودة نظمها التعليمية . ومن هنا ينبغي النظر الى الإنفاق على التعليم على انه استثمار حقيقي لأغراض التنمية الشاملة اكثر منه انفاقاً خدمياً لتحقيق غايات ومقاصد اجتماعية وثقافية ، وهو امر يتطلب تضافر جهود القطاعات كافة حكومية كانت او سواها . ولا شك ان القطاعات الحكومية تلعب دوراً قيادياً في هذا المجال بحكم قدراتها وإمكاناتها المالية الكبيرة ، ناهيك بمسؤولياتها في بناء مجتمعاتها وتنميتها لتحقيق

رفاهية وسعادة مواطنيها في عالم يشتد فيه التنافس في جميع مجالات الحياة . فقد باتت الدول المتقدمة تسعى بكل الوسائل الممكنة الى بناء مجتمعات المعرفة ، التي قوامها العلم والمعرفة والقدرة على توظيفها لمصلحة رقي شعوبها وتقدمها . ونظراً لما لتقانات المعلومات والاتصالات من دور مهم في مجتمعات المعرفة فقد أولتها الدول المتقدمة اهتماماً خاصاً في جميع المجالات بعامة ، وفي مجالات التعليم والتدريب بخاصة . توفر شبكات المعلومات فرصاً ممتازة لاكتساب الكثير من المهارات والمعارف وتطوير قدرات الافراد في الكثير من التخصصات الجديدة والمتجددة في مسارات التعليم النظامية او غير النظامية . وقد نجم عن هذه المستجدات إعادة نظر شاملة بأساليب التدريس ونظم التعليم ومفردات المناهج الدراسية وهيكلية المؤسسات التعليمية لتتماشى مع المنهج التعليمي المستند الى تقانات المعلومات والاتصالات والإفادة منها بصورة جيدة . ولان المعرفة تشهد تدفقاً هائلاً في جميع التخصصات ينبغي مواكبتها اولاً بأول ، لذا ينبغي الاهتمام الفائق بأساليب التعلم الذاتي أي تعليم الناس كيف يتعلمون ذاتياً بدون معلمين لمواكبة تطورات العلوم والمعارف ومستجداتها وكيفية الإفادة منها في حل المعضلات التقنية وسواها بأفضل الصور . ويعد التعليم الإلكتروني والتعليم الافتراضي والتعليم عن بعد ابرز أنماط التعليم المستند الى تقانات المعلومات والاتصالات التي باتت جميعها تلعب دوراً فاعلاً في برامج التدريب والتعليم والتعلم في أرجاء العالم المختلفة بعد ان أدركت الدول ان النمو الاقتصادي والتطور الاجتماعي باتا اكثر ارتباطاً بالاستثمارات المالية المعتمدة لأغراض التدريب والتعليم . تشير الدراسات الى ان الدول ذات المدخولات المالية هي

الدول نفسها التي يتمتع أفرادها بدرجة عالية من التعليم . ففـــي هـذه الدول تبلغ نسبة الملتحقين بالدراسة الابتدائيـــة ١٠٠% ومثلـــها فـــي الدراسة الثانوية الى حدٍ كبير ، اما نسبة الملتحقين بالدراسة مـــا بعـــد الثانوية فأنها تصل الى قرابة ٥٠% من الفئة العمرية المتوقع التحاقـــها بمثل هذه الدراسات ، وبالمقابل فقد وجد فـــي العـــام ١٩٩٧ ان نســـبة التلاميذ الملتحقين بالدراسة الابتدائية في الدول النامية قرابة ٧٢% وفي الدراسة الثانوية ٤, ١٦% وفي الدراسة مـــا بعـــد الثانويـــة ٢, ٣% . وتفوق نسبة الإنفاق على كل طالب في الدول المتقدمة مثيلتها في الدول المتقدمة لأغراض التدريب والتعليم بـــ ٣٠ ضعفاً . ولعل من المفيد ان نشير هنا الى ان لائحة حقوق الإنسان لعام ١٩٤٨ قد أقرت حق جميـــع بني البشر بالتعليم حقاً اساسياً ينبغي ان تسعى جميع الدول لتحقيقـــه . وعلى الرغم من دخول البشرية في عصـــر مجتمعـــات المعرفـــة ان الدراسات تشير الى انه ما زال هناك اكثر من ٨٨٤ مليون إنسان أمـــي في مختلف دول العالم . وهو امر يعني ان جهوداً حثيثة يجب ان تبـــذل لردم الفجوة العلمية والتقنية والثقافية الآخـــذة بالاتســـاع بيـــن الـــدول الصناعية المتطورة في الشمال والدول النامية في الجنوب . ونظراً لمـــا لتقانات المعلومات والاتصالات من أهمية فائقة فـــي التنميـــة الشـــاملة لجميع البلدان وذلك لما لها من تأثيرات بالغة في الصناعـــة والتجـــارة والتعليم وجميع مناحي الحياة المختلفة ، لذا ينبغي السعي بكل الوســـائل الممكنة لإغلاق الفجوة الرقمية والدخول في مجتمعات المعرفة بكل قوة واقتدار ، اذ تعد المهارات الجديدة والقدرات العلمية والتقنية احد اهـــم متطلبات الحياة العصرية في مجتمعات المعرفة . لذا يلعـــب التدريـــب والتعليم في جميع البلدان دوراً مهماً في بناء مجتمعات المعرفـــة لســـد

النقص الحاد في القوى العاملة المدربة بعامة وفي قطـــاع الاتصـــالات والمعلومات بخاصة اذ تشير الدراسات الى وجود عجز مقداره قرابـــة ١٧٠٠٠٠٠ وظيفة شاغرة في قطاع الاتصالات والمعلومات فـــي دول الاتحاد الأوربي على سبيل المثال لا الحصر ، وهو امر يعوق عمليـــة التنمية الاقتصادية الى حدٍ كبير ولا يختلف الأمر كثـــيراً فـــي أقطـــار أمريكا الشمالية واليابان وجنوبي شرقي آسيا .

وفي مجتمعات المعرفة تلعب العلوم والتقانة دوراً كبـــيراً فـــي التنمية الشاملة ، وهذا يتطلب ان يدرك النـــاس الأبعـــاد الاجتماعيـــة والثقافية للمسارت العلمية والتقنية بهدف الإسهام في بلـــورة سياســـات علمية رشيدة . وتلعب وسائل الإعلام المختلفة دوراً مهماً في التوعيـــة العلمية وتبسيط العلوم والمعارف المختلفة وتقديمها الى الناس بصـــورة جذابة بهدف الإفادة منها . ولغرض تأهيل قطاعات واسعة من النـــاس للايفاء بمتطلبات مجتمعات المعرفة . يزود عمال المعرفة بالمـــهارات المطلوبة لتلبية حاجات معرفية محددة بمدة قصـــيرة وبتكـــاليف ماليـــة رخيصة . ولا تكون هذه الممارسات أساس بناء مهن طويلة الأمد ، بل اساساً لتطوير قدرات الأفراد المهارية في مهنهم الحاليـــة او تأهيلـــهم لممارسة مهن أخرى مختلفة تماماً كان يتحول مهندس كيميـــائي الـــى مهندس برمجيات مثلاً . ويتخذ هذا النمط من التدريب والتأهيل اشـــكالاً متنوعة منها دورات قصيرة أمدها أسبوع او اكثر في إطـــار برامـــج التعليم المستمر لتطوير مهارات معينة في بعض حقول المعرفـــة مثـــل شبكات الحواسيب وتقانة التجارة الإلكترونيـــة والتعليـــم الإلكـــتروني والحكومة الإلكترونية وادارة مشاريع الصناعة البرمجيـــة وغيرهـــا ، ومنها برامج دراسية تفضي الى شـــهادات أكاديميـــة فـــي الدراســـات

الجامعية الأولية والعليا . لقد أدركت المؤسسات الصناعية والشـــركات التجارية المختلفة أهمية التعليم المستمر لجميع المنتسبين إليها في جميع التخصصات ، اذ انه بدون التدريب والتأهيل والتعليم مــدى الحيــاة لا يمكنها منافسة المؤسسات والشركات الأخرى اذ يتوقع ان يصبح جميــع العمال في مجتمعات المعرفة عمال معرفة بصورة او بأخرى . تشــير الدراسات الى ان الجامعات النقابية Corporate universities قــد ازدادت في العقد الأخير من ٤٠٠ جامعة الى اكثر من ١٠٠٠ جامعــة في الولايات المتحدة الأمريكية ، وهي الأسرع نمواً في قطاع التعليـــم العالي وتتبع هذه الجامعات أساليب تعليمية متعددة منها : التعليم عـــبر الأقمار الاصطناعية وقواعد المعرفة والأقــــراص المدمجـــة وشـــبكة الإنترنت وشبكة الانترانيت . يقدر عدد الملتحقين بهذه الجامعات حاليـــاً اكثر من أربعة ملايين شخص . وترتبط هذا الجامعات بعلاقات تعــاون مع الجامعات الأمريكية النظامية . الا انــــها ترتبـــط بصـــورة أوثــق بالمؤسسات الاصطناعية وذلك بسبب طبيعة برامجها الدراسية المصممة اصلاً لكي تستجيب لحاجات تلك المؤسسات بصورة مباشرة اذ حـــددت وظائف هذا الجامعات بالآتي :

ــ تعلم المهارات .

ــ التعاون والاتصالات .

ــ التفكير الخلاق وحل المشكلات .

ــ محو الأمية التقنية ..

ــ محو أمية تجارة العولمة .

ــ تطوير القيادة .

ــ إدارة المهنة الذاتية .

اما دول الاتحاد الأوربي فقد اعتمدت على مبادرة التعليم الإلكتروني في الرابع والعشرين من شهر أيار عام ٢٠٠٠ بعنوان " تصميم تعليم الغد " التي مفادها الاعتماد على تقانات الوسـائط المتعـددة multimedia وشبكة الإنترنت لتحسين نوعية التعليم بالإفادة من المصادر والخدمات المختلفة ، إضافة الى التعاون وتبادل المعلومات عن بعد عبر وسـائل المعلومات والاتصالات المختلفة (٥) اذ ان فاعلية اية منظومة تعليميـة انما تعتمد بالدرجة الأساسية على فاعلية طرائق التعليم والتعلـم . لـذا تتطلب مبادرة التعليم الإلكتروني إعادة هيكلية المؤسسات التعليمية بمـا يمكنها من الإفادة المثلى من تقانات المعلومات والاتصالات . ولاجـل تنفيذ هذه المبادرة فقد حدد مجلس الاتحاد الأوربي أربع سـنوات مـن ٢٠٠١ حتى ٢٠٠٤ لتنفيذها بحيث يكون هذا النمط من التعليـم القـوة الدافعة الرئيسة في مجتمع المعرفة لأغراض التدريب والتعليم والتعلـم مدى الحياة وتلبية حاجات المؤسسات من الخبرات والمهارات في حقول المعرفة المختلفة بعامة وتقانات المعلومات الحديثة بخاصة ولعل مـن المفيد هنا ان نشير الى بعض المعالم التي اعتمدت عليها هذه المبادرة :

١. توفير خدمة الإنترنت والوسائط المتعددة لجميع المدارس بنهاية عام ٢٠٠١ وربط جميع القاعات الدراسية بخدمات الإنترنت السـريعة بنهاية عام ٢٠٠٢ .
٢. ربط جميع المدارس بشبكات البحوث بنهاية عام ٢٠٠٢ .
٣. تحقيق نسبة ٥ ــ ١٥ طالب لكل حاسوب وسائط متعددة بنهايـة عام ٢٠٠٤ .

٤. تامين وجود خدمات مسندة ومصادر تعليمية كافية على شبكة الإنترنت ووسائل تقديمها الى المعلمين والتلاميذ واسرهم بنهاية عام ٢٠٠٢ .

٥. تطوير المناهج الدراسية بهدف تكاملها مع طرائق أساليب التعليم الحديثة المستندة الى تقانات المعلومات والاتصالات بنهاية عام ٢٠٠٢ .

٦. تامين تدريب الملاكات التعليمية لتمكينها من التعامل الفعال مع وسائل المعلومات والاتصالات بصورة فاعلة للأغراض التعليمية المختلفة بنهاية عام ٢٠٠٢ .

٧. تامين شمول جميع خريجي المدارس بالتعليم الإلكتروني بصورة او بأخرى بنهاية عام ٢٠٠٣ .

٨. محو الأمية الحاسوبية بين العمال عبر برامج التعليم المستمر بنهاية عام ٢٠٠٣ .

٩. التنسيق والتعاون بين الجامعات والمدارس ومراكز التدريب ودوائر صنع القرارات التعليمية ومؤسسات الصناعات البرامجية وتقانات المعلومات والاتصالات .

وفي بلادنا العربية يشير تقرير التنمية البشرية العربية للعام ٢٠٠٣ الصادر عن الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي التابع لبرنامج الامم المتحدة الإنمائي المعنون : نحو إقامة مجتمع المعرفة ، الى ان اخطر مشكلات التعليم في البلاد العربية تتمثل في تردي نوعيته مما يقوض احد الأهداف الأساسية للتنمية البشرية ، وهو تحسين نوعية الحياة للبشر واثراء قدرة المجتمعات ويطرح ذلك تحديات خطيرة في وجه المكونات الرئيسة للنظام التربوي التي تؤثر في نوعية التربية ،

وتضم هذه المكونات السياسات التعليمية والمدرسين وشــروط عمــل المربين والمناهج الدراسية ومنهجيات التعليم . ويشير التقرير الى حداثة مؤسسات التعليم العالي ، اذ ان ٧٥% من هذه المؤسسات يقل عمرهــا عن خمسة عشر عاماً . ويعزو التقرير انخفــاض النهضــة المعرفيــة والتقنية في الوطن العربي الى عدم وجود نظم فعالة للابتكار ولانتـــاج المعرفة ، اذ يلاحظ ضالة نصيب البلاد العربية من الابتكارات وقصور خبرة في نقل التكنولوجيا وتوطينها . وغياب سياسات رشيدة تضمـــن تأهيل القيم والأطر المؤسسية الداعمة لمجتمع المعرفة ، وعمــق هــذه المشكلة الاعتقاد المخطئ بإمكان بناء مجتمع المعرفة من خلال استيراد نتائج العلم من دون الاستثمار في إنتاج المعرفة محلياً والركـــون فـــي تكوين الملاكات العلمية الى التعاون مع الجامعات ومراكز البحوث فـــي البلدان المتقدمة معرفياً ، من دون أيجاد التقاليد العلمية المؤديـــة الـــى اكتساب المعرفة عربياً . ويلاحظ ضعف الاهتمام بالبحث العلمـــي ، اذ يشير التقرير الى ان عدد العلماء والمهندسين العـــاملين فـــي البحــث والتطوير في البلاد العربية ٣٧١ شخصاً لكل مليون نسمة مقابل المعدل العالمي ٩٧٩ شخصاً لكل مليون نسمة . وفي ضوء ما تقدم فان الحاجة تدعو الى إعادة نظر شاملة وجادة في أوضاع التعليم برمته في بلادنــا العربية بهدف تحديثه واعادة صياغة أهدافه وبرامجه وزيادة ارتباطـــه بمؤسسات المجتمع المختلفة لبناء مجتمع المعرفة بالإفادة مـــن تقانـــات المعلومات والاتصالات .

من ذلك نخلص الى حقيقة مفادها ان مجتمعات المعرفة تتطلــب تأهيل معظم الملاكات العلمية والتقنية واعادة تأهيلهم لتامين مواكبتـــها لمستجدات العلوم والتقانة والقدرة على توظيفها لزيادة الإنتاج والإنتاجية

وتحسين نوعية منتجاتها وتخفيض تكاليفها لضمان فرص افضل لتسويقها محلياً وعالمياً ، وهذا يتطلب اعتماد نظم تعليمية راقية ومتطورة بالإفادة من تقانات الاتصالات والمعلومات ومنظوماتها التي أصبحت تمثل أحد أهم مرتكزات البنية التحتية لأي تطور ينشده أي بلد من البلدان .

الخاتمة

تقف بلادنا على أعتاب مرحلة جديدة يتوقع ان تشهد فيها تطورات مهمة في جميع مناحي حياتها ، ولا شك من ان الاقتصاد الذي يمثل عصب الحياة حاضراً ومستقبلاً لذا تعد التنمية الاقتصادية الصحيحة مفتاح كل تقدم منشود لتحقيق رفاهية بلادنا وأمنها واستقرارها . ومن هنا لا بد من مواكبة حركة التنمية الاقتصادية واتجاهاتها في العالم التي تؤثر سلباً او ايجاباً بحسب متانة اقتصادنا الوطني وتطوره وقدرته على التفاعل مع الاقتصاد العالمي اذ ان اقتصاد المعرفة بات يشكل حلقة مهمة في النشاط الاقتصادي العالمي لذا اصبح ضرورياً ان تواكب بلادنا هذا التطور بكل الوسائل الممكنة لتقف على قدم المساواة والتكافؤ مع دول العالم المختلفة ولاسيما الدول ذات الاقتصاديات المتقدمة . ولان اقتصاد المعرفة يستند الى تقانات المعلومات والاتصالات بقوة اذ أصبحت الفجوة الرقمية في عصرنا الحاضر أحد أهم معالم التقدم العلمي والتقني . ومن ثم أحد أهم معالم التنمية الاقتصادية والاجتماعية لأي بلد من بلدان العالم المختلفة ،

وباتت وسائل الإعلام وصناع القرار ورجال الفكر والمـال يتحدثـون جميعاً عن اقتصاد المعلومات ومجتمعات المعرفة والتجارة الإلكترونيـة والحكومة الالكترونية والمدارس الذكية والمواطن الرقمي كأمور بديهية ما زالت معظم أقطارنا العربية بعيدة جداً عن هـذه المفـاهيم تنظـيراً وتطبيقاً ، لذا يتطلب أن تبذل بلادنا جهوداً حثيثة لإغلاق الفجوة الرقمية بينها وبين الدول الأخرى . ولا يمكن تحقيق ذلك الا بالاعتمـاد علـى نظام تعليمي مرن يتسم بالمرونة والجودة ويواكب حركة تطور العلـوم والتقانات المتطورة والإفادة من تقانات المعلومات والاتصالات لتحقيـق نهضة بلادنا وتقدمها .

المصـــادر :

١. تقرير التنمية البشرية العربية لعام ٢٠٠٣ .
برنامج الأمم المتحدة الإنمائي / الصندوق العربي للإنماء الاقتصـــادي والاجتماعي / المكتب الإقليمي للدول العربية .

٢. الندوة التعريفية الأولى لمشروع الحكومة الإلكترونية / وزارة العلوم والتكنولوجيا / دائرة تكنولوجيا المعلومات / بغداد / ٢٠٠٤ .

3. Vlatko ceric
Building the Knowledge economy
Journal of computing and information
Technology, 2001.

٤. جريدة الشرق الأوسط ، العدد ، ٩٢٨٩ ، ٤ / ٥ / ٢٠٠٤ .

5. The elearing action plan, designing tomorrow's education, commission of the European communities, brussets, 20.3.2001, com (2001), 172 final.

نضائد الرصاص الحامضية ماضياً وحاضراً ومستقبلاً

القسم الثالث ـ تطوير النضائد بحُسن تحضير وتعتيق ألواحها الموجبة

أ. د. جلال محمد صالح

أستاذ في جامعة بغداد

عضو المجمع العلمي

الملخص

الألواح الموجبة لنضيدة الرصاص الحامضية كانت ولا تزال تكسى بمعجون المركب $3PbO.PbSO_4 .H_2O$ (ويرمز اليه اختصاراً بـ 3BS) والتقنية التي تعتمد على اكساء الألواح الموجبة بهذا المعجون تدعى عادة بالتقنية التقليدية . وهذا المركب (أي 3BS) يتحول بنسبة محددة خلال عملية تعتيق الألواح الى مركب آخر اكثر فعالية يتمتع بالتركيب $4PbO.PbSO_4$ (ونرمز اليه اختصاراً بـ 4BS) . وقد أثبتت البحوث أن المركب 4BS يُكسب الألواح الموجبة للنضيدة بنية امتن ، ويضفي عليها استقراراً اكبر، ويزودها بعمر اشتغال أطول قياساً بالمركب 3BS . ولما كانت بلورات المركب 4BS اكبر حجماً من بلورات المركب 3BS ، لذا تمتلك الألواح المكسوة بالمعجون 4BS سعة كهربائية أوطأ نسبياً قياساً بالسعة الكهربائية للألواح المكسوة بالمعجون 3BS الذي تكون بلوراته أنعم وأصغر حجماً .

وهذا الهبوط في السعة الكهربائية للألواح الموجبة المكسوة بالمعجون 4BS هو الذي كان يقيد على مدى سنين غير قليلة استعمال معجون المركب 4BS في تصنيع ألواح نضيدة الرصاص الحامضية على المستوى العالمي . وقد جرت مؤخراً محاولات جديدة على المستوى الصناعي العالمي لتوسيع استعمال معجون المركب 4BS في اكساء الألواح الموجبة لنضيدة الرصاص الحامضية مع العمل على تلافي مثالب السعة الكهربائية الأولية المنخفضة للألواح المحضرة منه . واشتملت المعالجة على إدخال مادة الرصاص الأحمر (Pb_3O_4) الى مكونات المعجون بصيغ مختلفة . وتمت دراسة العمليات والتفاعلات التي تحدث في مكونات المعجون المحضر على وفق كل صيغة وذلك باستعمال تقنيات الأشعة السينية والمجهر الإلكترونيّ المسحيّ وبقياسات السطح النوعي والمسامية . واشتملت الدراسة كذلك على فحص السعة الكهربائية للنضائد المحضرة بالصيغ المختلفة ، وقد أفلحت تلك المحاولات حديثاً في تحضير نضائد رصاص حامضية تتمتع ألواحها الموجبة بسعة كهربائية ابتدائية أعلى ، وبعمر دورة أطول قياساً بالنضائد المصنوعة وفق التقنية التقليدية من ألواح مكسوة بالمركب 3BS . وقد فتحت هذه الدراسة آفاقاً أوسع لاستعمال المعجون 4BS في صناعة الألواح الموجبة لنضائد الرصاص الحامضية الحديثة .

١ ــ تمهيــد

نبذة عن مراحل تصنيع نضيدة الرصاص الحامضية

يمر تصنيع نضيدة الرصاص الحامضية (Lead – Acid Battery) كما ذكرنا في منشــوراتنا السابقــة (١ ــ ٢) بخمس مراحل مهمـــة (المخطط ١) نشير إليها بإيجاز كبير فيما يأتي :

(١) **المرحلة الأولى** ــ ويتم فيها تحضير المشــابك (Grids) مــن سبيكة الرصاص والانتمون التي تحوي نسبة واطئة من الانتمــون (عادة من ٢,٥ الى ٩ بالمائة وزناً) .

(٢) **المرحلة الثانية** ــ ويتم فيهــا تحضــير الاوكســيد الرصــاصي (ويسمى ايضاً بلوكسيد ليدي Leady Oxide) وذلــك بأكسـدة الرصاص بطريقة بودقة بارتن (Barton – Pot Method) او بطريقة طاحــونة الكــرات (Ball – Mill Method) او بــــهما معاً . والاوكسيد الرصاصي المحضر هذا يكون على هيئة مسحوق ناعم يحتوي عادة (٦٠ ــ ٨٠) % وزناً من أحــادي اوكســيد الرصــاص PbO (Lead Monoxide) وعلـــى نحـــو (٢٠ ــ ٤٠) % وزناً من دقائق الرصـــاص غــير المتأكســد . ويحوي الاوكسيد الرصاصي كذلك نسبة ضئيلة مـــن الرصـــاص الأحمر (Pb_3O_4) وبعض اكاسيد الرصاص الأخرى .

يخلط الاوكسيــد الرصاصي (اوكسيــد ليدي) المحضر هـــذا بالماء وحامض الكبريتيك وبعض المضافات الأخرى لتحضير معجـــون (أو عجينة Paste) لتكسى به المشابك المحضرة في المرحلة الأولـــى . وبهذا يتم الحصول على الألواح (Plates) التي تتكون منـــها أقطـــاب

النضيدة (**Battery Electrodes**) . وهذا الأسلوب في تحضير المعجون لاكساء ألواح النضيدة به يدعى بالتقنية التقليدية(**Classical Technique**) .
إن الكثير من معامل نضيدة الرصاص الحامضية في العالم لا تزال تعتمد على هذه التقنية في تحضير ألواح النضيدة ، ومنها معامل بابل لصناعة بطاريات الرصاص الحامضية في العراق .

(٣) **المرحلة الثالثة** ــ وتسمى بمرحلة التعتيق او التعمير(**Curing**)

ويتم فيها إدخال الألواح المكسوة بـالمعجون المحضرة في المرحلة السابقة الى غرفة خاصة تتوفر فيها الرطوبة والحرارة اللازمتان لإحداث التفاعلات الكيميائية في مكونات المعجون ، فتتحول هذه المكونات الى المركب $3PbO.PbSO_4.H_2O$ (الذي رمزنا اليه بـ **3BS**) الذي يتحول بصورة جزئية الى مركب آخر هو $4PbO.PbSO_4$ (ورمزنا اليه بـ **4BS**) . وتكون بلورات المركب **3BS** صغيرة الحجم وتتمتع بفعالية كيميائية عالية في حين تكون بلورات المركب **4BS** كبيرة الحجم وتمتلك فعالية واطئة . ويتم تمثيل مقدار تحول المركب 3BS الى المركب 4BS بدلالة النسبة ($\frac{4BS}{3BS}$) . وتكون قيمة هذه النسبة مهمة في تحديد مدى فعالية الألواح وهي التي تقرر كذلك قدرة الألواح المعتقة على اكتساب الشحن الكهربائيّ في مرحلة التكوين اللاحقة .

(٤) **المرحلة الرابعة** ــ وتوصف بمرحلة التكوين (Formation)

ويتم فيها غمر الألواح المعتقة عقب تعتيقها في المرحلة الثالثة في أحواض تحوي محلولاً مخففاً من حامض الكبريتيك ثم يتم امرار تيار كهربائيّ مباشر (d. c.) عليها. ويتم بهذه العملية تحول المعجون

المعتق الملتصق بسطح الألواح الى تراكيب كيميائية وبُنى بلورية مناسبة . فالألواح التي تغمر في الأحواض تصنف عادة الى مجموعتين : الألواح الموجبة (**Positive Plates**) والألواح السالبة (**Negative Plates**) . تربط الألواح الموجبة بالقطب الموجب والألواح السالبة بالقطب السالب لمصدر التيار الكهربائي المباشر لغرض شحنها . تؤدي عملية الشحن (التي تسمى ايضا بالتكوين) الى أكسدة المعجون المعتق للألواح الموجبة الى فوق اوكسيد الرصاص (**PbO_2 Lead Dioxide**) وتؤدي كذلك الى اختزال المعجون المعتق للألواح السالبة الى رصاص اسفنجيّ القوام .

وقد تشتمل هذه المرحلة كذلك على تعريض الألواح المشحونة الى سلسلة من دورات التفريغ (**Discharging**) والشحن (**Charging**) المتعاقبة وذلك قبل استعمالها في تركيب أقطاب النضيدة وهذه العملية مهمة للوقوف على مدى قدرة النضيدة على توليد الطاقة الكهربائية عند الاستعمال .

(٥) المرحلة الخامسة ـ وتشتمل على جمع وربط الألواح الموجبة (بأعداد مناسبة) معاً للحصول على القطب الموجب للنضيدة ، وكذلك جمع وربط الألواح السالبة معاً للحصول على القطب السالب للنضيدة . يتم بعد ذلك وضع الألواح المنضدة في القطبين في الوعاء الخاص لغرض الحصول على النضيدة المتكاملة . المخطط (١) يوضح هذه المراحل الخمسة بإيجاز .

مخططات أهم العمليات الفيزيائية والكيميائية والفنية التي تشتمل عليها صناعة نضائد الرصاص الحامضية

المرحلة	العمليات
١	رصاص نقي ← اتمون ونسب قليلة من عناصر أخرى ← سبيكة الرصاص والأنتمون ← صهر وصب قوالب ← مشبكات الألواح ← استخدام في المرحلة (٤)
٢	رصاص نقي ← طريقة بودلة بارتن / طريقة الطاحونة الكرات ← مسحوق ناعم من أوكسيد الرصاص ورصاص ← ماء وحامض ومضافات ← عجينة اللوح الموجب / ماء وحامض ومضافات ← عجينة اللوح السالب ← استخدام في المرحلة (٣)
٣	مشبكات الألواح ← عجينة اللوح السالب ← ألواح مكسوة بعجينة اللوح السالب ← تجفيف ← ألواح القطب السالب غير المعتقة / عجينة اللوح الموجب ← ألواح مكسوة بعجينة اللوح الموجب ← تجفيف ← ألواح القطب الموجب غير المعتقة ← استخدام في المرحلة (٤)
٤	ألواح القطب السالب غير المعتقة ← تعتيق ← ألواح القطب السالب المعتقة ← تكوين (شحن) ← ألواح القطب السالب المشحونة ← تجفيف تقطيع / ألواح القطب الموجب غير المعتقة ← تعتيق ← ألواح القطب الموجب المعتقة ← تكوين (شحن) ← ألواح القطب الموجب المشحونة ← تجفيف تقطيع ← استخدام في المرحلة (٤)
٥	وعاء النضيدة ← تركيب الألواح والعوازل ← ألواح وعوازل مركبة في الوعاء ← تركيب الغطاء والرؤوس والسدادات ← نضيدة مكتملة ← إضافة محلول حامض الكبريتيك من قبل المستهلك ← نضيدة رصاص حامضية جاهزة الاستعمال

المخطط (١)

يُطلق اسم الكتلة الفعالة Active Mass على المعجون الذي تُكسى به الألواح عقب مرورها بمرحلتي التعتيق والتكوين .

تعد خلية الرصاص الحامضية الوحدة الأساسية في بناء نضيدة الرصاص الحامضية ، ويبلغ جهدها عندما تكون كاملة الشحن نحو ٢ فولت وإذا ربطت ثلاث خلايا معاً على التوالي أمكن الحصول على نضيدة يبلغ جهدها ٦ فولت ، وعند جمع ست خلايا معاً على التوالي يتم الحصول على نضيدة يبلغ جهدها نحو ١٢ فولت .

تتألف الخلية المكتملة عقب عمليتي التعتيق والتكوين من قطبين : قطب سالب (ويدعى الانود او المصعد Anode) الذي يتغطى سطحه بطبقة من الرصاص الذي يتمتع عادة بقوام اسفنجيّ ، وقطب موجب (الكاثود او المهبط Cathode) الذي يتغطى سطحه بطبقة من فوق اوكسيد الرصاص (PbO_2) ، ويمكن تمثيل هذه الخلية على النحو :

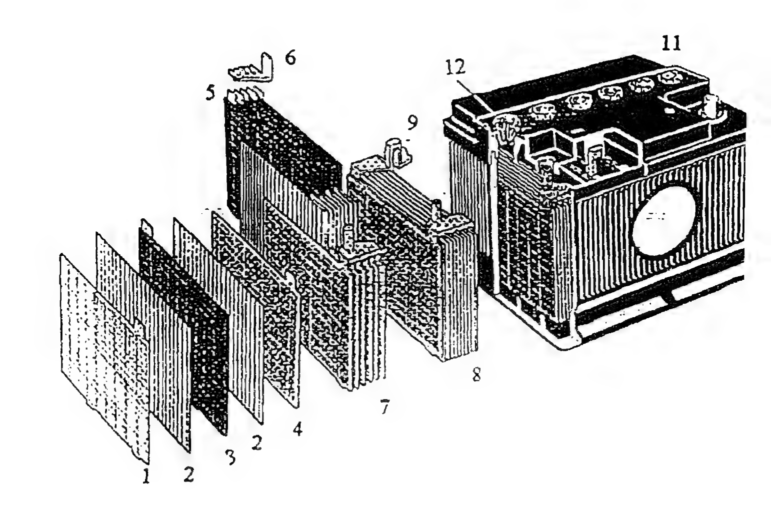
$$Pb \mid H_2SO_4 \mid PbO_2$$

الانود او المصعد   الكاثود او المهبط

(-)   (+)

ويرمز للانود او المصعد بإشارة (-) وللكاثود او المهبط بإشارة (+) ويغمر القطبان في محلول حامض الكبريتيك الذي يبلغ وزنه النوعي (١,٢٥) عندما تكون الخلية كاملة الشحن ، وهذه الصيغة في تمثيل خلية الرصاص الحامضية لا تعني بالضرورة ان بنية القطب تتكون فقط من الرصاص وانما يغطي الرصاص طبقة السطح للقطب . وتوجد تحت هذه الطبقة ، وفي طبقة السطح نفسها أيضاً ، مواد أخرى مثل أحادي اوكسيد الرصاص PbO بالإضافة الى مركبي 3BS و 4BS

اللذين لم يتم اختزالهما بالكامل الى رصاص في مرحلة التكوين .
والقطب الموجب لا يقتصر تركيبه الكيميائيّ على فوق اوكسيد الرصاص ، وانما يغطي هذا الاوكسيد معظم طبقة السطح لهذا القطب .
وتوجد في هذه الطبقة نفسها ، وتحت الطبقة كذلك مركبات أخرى مثل اوكسيد الرصاص **PbO** بجانب المركبين **3BS** و **4BS** اللذين لم يتم تأكسدهما في مرحلة التكوين الى فوق اوكسيد الرصاص . وتحتوي طبقة السطح والطبقات التي تقع تحتها على بعض الرصاص ايضاً .
الشكل (١) يبين الأجزاء التي تتألف منها نضيدة رصاص حامضية مكونة من ست خلايا .



الشكل (١) أجزاء نضيدة الرصاص الحامضية

Lead Acid Battery Parts

1. Plate-grid
2. Micro-porous separator
3. Positive plate
4. Negative plate
5. Positive plate group
6. Strap to connect plates of the same polarity
7. Negative plate group
8. Complete element
9. Inter-cell connector
10. Battery container with bottom hold dow
11. Monotop cover with lead-bushes
12. Vent plug

وعندما يتم تفريغ الخلية او النضيدة من تيارها الكهربائي كلـــه يتحول محلول حامض الكبريتيك فيها الى ماء وتتغطى ألواح القطبيـــن (الموجب والسالب) بطبقة من كبريتـــات الرصـــاص ($PbSO_4$) ، وعلى هذا يمكن اتخاذ الوزن النوعي لمحلول الحامض في الخليـــة أو النضيدة كمقياس لمقدار احتفاظها بتيارها الكهربائيّ أو كمقياس لمقـــدار إفراغ الخلية او النضيدة من تيارها الكهربائيّ .

تحضير وتعتيق معجون الألواح الموجبة

يتحدد عمر استخدام نضيدة الرصاص الحامضية عـــادة بعمـــر انحلال الكتلة الفعالة لألواحها الموجبة . وتتوقف سرعة انحلال الكتلـــة الفعالة للألواح الموجبة على ثلاثة عوامل رئيسة :

أ . تركيب الطور البلوريّ للمعجون الذي استعمل في تحضير الألواح .

ب . طبيعة البلورات التي يتكون منها المعجون .

جـــ . كثافة المعجون .

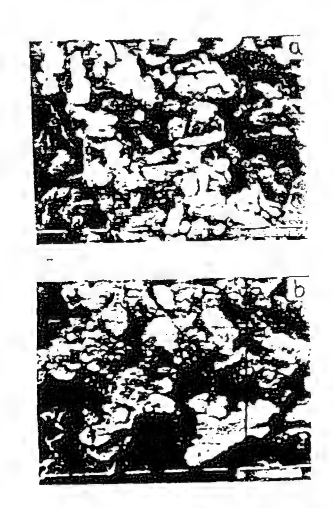
تشير المعلومات المتوافرة في الأدبيات الى ان الكتلـــة الفعالـــة الناجمـــة عن استعمال معجـــون بتركيـــب 4BS تمتـــلك عمـــر دورة (Cycle Life) أطول (الشكل ٢) مقارنة بالمعجون المحضر علـــى وفق التقنية التقليدية الذي يتمتع بـــالتركيب 3 BS . فالنضـــائد التـــي تستخدم الواحاً محضرة من معجون 4BS تتمتع بعمـــر دورة أطـــول بحوالي ٣٠% وبسعة ابتدائية منخفضة بنحـــو ٢٠% مقارنـــة بعمـــر الدورة والسعة الابتدائية المسجلة وفق المقاييس العالميـــة ، لـــذا يلـــزم تعريض النضيدة الى (٢٠ ـــ ٥٠) دورة تفريـــغ وشـــحن متعاقبـــة للوصول بالألواح الى السعة الابتدائية المطلوبة . والســـعة الابتدائيـــة

المنخفضة هذه تنجم عن عدم اكتمال تأكسد مادة المعجون **4BS** خـــلال عملية التكوين (**Formation**) كي تتحول كاملة الى فـــوق اوكســيد الرصاص (PbO_2) اذ ان تفاعل التأكسد لمعجون المادة **4BS** يكون عادة بطيئاً ويحتاج الى وقت طويل كي يبلغ حالـــة الاكتمـــال ، وقـــد يستغرق ذلك مدة تزيد على (٢٠٠) ساعة . وهذه المثالب هي التـــي حددت في الواقع استخدام معجون بالتركيب **4BS** مباشرةً في تحضـــير ألواح نضيدة الرصاص الحامضية .

$3pbO.pbSO_4.H_2O = 3BS$

$4pbO.pbSO_4 = 4BS$

الشكل (٢) ــ يبين أداء السعة للنضائد المصنوعــة مــن معجــون 3BS و 4BS . يلاحظ فيه ان السعة الابتدائية للألواح المحضرة من معجون 3BS تكــون أعلــى ، وعمر دورتها اقل من الألواح المحضرة من معجــون 4BS التــي تكــون ســعتها الابتدائية أوطأ وعمر دورتها اكبر .



الشكل (٣) ــ صورة بالمجهر الإلكتروني المسحي لــ :

(a) بلورات معجون معتق .

(b) لتجمعات الكتل الفعالة عقب عملية تكوين المعجون الــذي اشــتمل علــى المركب 3BS والذي جرى تعتيقه بدرجة ٤٠ مئوية مدة ٧٢ ساعة .

٢ـ الجوانب العملية لتحضير الألواح الموجبة

١ـ الطرائق الحديثة لتحضير معجون المادة الفعالة للألواح الموجبة :

أجريت دراسات كثيرة لتحضير المادة الفعالة للألواح الموجبة لنضيدة الرصاص الحامضية من معجون بتركيب 4BS . ونشير فيما يأتي الى طرائق ثلاث اعتمد عليها في التحضير :

(١) **الطريقة الأولى** ـ واشتملت على تحضير محلول عالق (Suspension) بمزج أحادي اوكسيد الرصاص (نوع بيتا) بالماء ، تضاف الى المزيج بعد ذلك الكمية المكافئة والمحسوبة من حامض الكبريتيك التي تكفي للحصول على المقدار المطلوب من المعجون بتركيب 4BS ، ويتم إجراء المزج بدرجة ٨٠ مئوية .

(٢) **الطريقة الثانية** ـ ويتم فيها تحضير معجون بتركيب 4 BS من تفاعل الاوكسيد الرصاصيّ (Leady Oxide) مع محلول حامض الكبريتيك مباشرة بدرجة حرارة ٨٠ مئوية مدة نصف ساعة تقريباً .

(٣) **الطريقة الثالثة** ـ ويتم فيها تحضير المعجون بتركيب 4BS من معجون بتركيب 3BS عقب تعتيقه بدرجة ٧٠ مئوية او أعلى قليلاً ويتم تحضير المعجون 3BS لهذا الغرض بالطريقة التقليدية المألوفة .

ان تحول المعجون الذي يتمتع بالتركيب 3BS الى معجون بتركيب 4BS يتطلب عادة عشرات الساعات . والألواح المحضرة بهذا الأسلوب يصعب تحويلها كاملة بعملية التكوين الى فوق اوكسيد الرصاص (PbO_2) ، لذا فهي تمتلك سعة ابتدائية واطئة . وللإسراع

بعملية التعتيق ينبغي رفع درجة حرارة التعتيق الى ٦٥ مئوية ، وعلى الرغم من ذلك تبقى عملية التعتيق بطيئة وتستغرق مدة تتراوح من ٣٦ الى ٤٨ ساعة .

أدخلت تعديلات على هذه الطرائق وذلك بإضافة الرصاص الأحمر الى مزيج التحضير . وقد ثبت ان إضافة الرصاص الأحمر الى مزيج التفاعل تفيد في الحصول على معجون يتمتع بمرحلة تكوين اقصر (أي يحتاج الى مدة اقصر للتحول الى PbO_2) وان الألواح المستحصلة منه تمتلك سعة كهربائية ابتدائية أعلى . فالرصاص الأحمر (Pb_3O_4) المضاف يُزيد من السعة الكهربائية الابتدائية للألواح الموجبة للنضيدة دون إحداث تأثير سلبي في عمر دورة الألواح .

إضافة الرصاص الأحمر وصيغ تحضير المعجون بتركيب 4BS :

عند مزج الاوكسيد الرصاصي (اوكسيد ليدي) بالرصاص الأحمر (Pb_3O_4) وحامض الكبريتيك والماء بالطرائق الثلاث التي أشرنا إليها في الموضوع السابق تحدث العمليات والتفاعلات الكيميائية الآتية :

(أ) يتفاعل الرصاص الأحمر (Pb_3O_4) المضاف مع حامض الكبريتيك لتكوين كبريتات الرصاص ($PbSO_4$) وفوق اوكسيد الرصاص من نوع بيتا وفق المعادلة :

$$Pb_3O_4 + 2H_2SO_4 = PbSO_4 + \beta - PbO_2 + 2H_2O \quad .... (1)$$

(ب) ويتفاعل الرصاص الحر الموجود في الاوكسيد الرصاصي (اوكسيد ليدي) كذلك مع الرصاص الأحمر على وفق المعادلة :

$$Pb + Pb_3O_4 = 4PbO \quad .... \quad (2)$$

(جـ) وبجانب التفاعلين (أ) و (ب) المُشار إليهما بالمعادلتين (1) و (2) يمكن حدوث تفاعلات بين بعض المواد الناتجة من التفاعلين لتكوين المركب 4BS .

ان حدوث هذه التفاعلات والعمليات يتوقف على الطريقة التي تتبع في مزج المكونات وفي نسق إضافة المكونات الى بعضها البعض . وتوصف الطريقة المتبعة في المزج ونسق إضافة المكونات بعضها الى بعض بصيغة التحضير . وقد ابتدعت لحد الآن ثلاث صيغ مختلفة في مزج المكونات وفي نسق إضافة المكونات بعضها الى بعض وذلك بجانب الصيغة التقليدية المعروفة للمزج لغرض الحصول على معجون بتركيب 3BS اولاً الذي لا يلبث ان يتحول جزئياً الى 4BS . ولغرض تحضير (٥) كيلو غرام من المعجون بالصيغ الثلاث (غير التقليدية) يمزج ٣,٧٥ كيلو غرام من الاوكسيد الرصاصيّ (اوكسيد ليدي) بـ ١,٢٥ كيلو غرام من الرصاص الأحمر . يضاف حامض الكبريتيك (وزنه النوعيّ ١,٤) بعد ذلك حتى تصل نسبته الوزنية قياساً بمجمل وزن الاوكسيد الرصاصيّ والرصاص الأحمر الى نحو ٦% يضاف الماء بعد ذلك بمقدار كافٍ حتى تصل كثافة المعجون الناتج الى ٤,٢ غرام على السنتمتر المكعب . والصيغ المتبعة لتحضير هذه المخاليط متباينة ويمكن إيجازها بما يأتي :

الصيغة (أ) ـ وهي الصيغة التقليدية المعروفة لتحضير المعجون بتركيب 3BS . يمزج في هذه الصيغة الاوكسيد الرصاصيّ بالماء وحامض الكبريتيك حتى تصل النسبة الوزنية للماء والحامض معاً الى ٤,٥% قياساً الى وزن أحادي اوكسيد الرصاص الموجود في الاوكسيد الرصاصيّ المستعمل . يتم تحريك مكونات المعجون ومزجها بدرجة

٤٠ مئوية مدة ربع ساعة . يتم بذلك الحصول على معجون الذي يتمتع بالتركيب 3BS الذي يتحول جزئياً الى التركيب 4BS .

الصيغة (ب) ــ ويتم تحضير المعجون على وفق هذه الصيغة بتركيب 4BS مباشرة وذلك من الاوكسيد الرصاصيّ (اوكسيد ليدي) وحامض الكبريتيك . ويراعى في المزج استعمال الكميات المحسوبة من كل من الاوكسيد الرصاصيّ والحامض . يضاف الى المزيج بعد ذلك الرصاص الأحمر (Pb_3O_4) والماء للحصول على معجون ذي الكثافة المطلوبة . يتم تحريك المعجون ربع ساعة لمزج ومجانسة مكوناته . فالرصاص الأحمر المضاف على وفق هذه الصيغة لن يتفاعل مع حامض الكبريتيك ، لذا لن يساهم في تكوين بلورات 4BS ونموها ، وانما يتفاعل مع الرصاص غير المتأكسد الموجود في الاوكسيد الرصاصي على وفق المعادلة $Pb + Pb_3O_4 = 4PbO$ وتتكون كبريتات الرصاص كذلك بموجب المعادلة (1) وبهذا تتوافر المواد اللازمة للحصول على المركب 4BS .

الصيغة (جـ) ــ وتقضي هذه الصيغة بمزج الاوكسيد الرصاصي (اوكسيد ليدي) بالرصاص الأحمر اولاً ، ثم يضاف حامض الكبريتيك . يحرك المزيج بدرجة ٨٠ مئوية مدة ساعة لحين الحصول على المعجون بالكثافة المطلوبة . فالرصاص الأحمر المضاف على وفق هذه الصيغة سوف يتفاعل مع الحامض والرصاص الحر الموجود في الاوكسيد الرصاصيّ في آن واحد على وفق المعادلتين (1) و (2) اللتين أشرنا إليهما سابقاً للحصول على المادتين اللازمتين لتكوين المركب 4BS .

الصيغة (د) ـ وتتضمن هذه الصيغة تفكيك الرصاص الأحمر اولاً بحامض الكبريتيك فيتكون $PbSO_4$ وبيتا PbO_2 على وفق المعادلة (أ) يضاف الى هذا المحلول العالق بعد ذلك الاوكسيد الرصاصي وترفع درجة حرارته الى ٨٠ مئوية مع تحريك المزيج ساعة واحدة . يحدث تفاعل بين PbO_2 و PbO في وجود كبريتات الرصاص لتكوين بلورات المعجون الذي يتمتع بالصيغة الكيميائية 4BS .

يمكن تلخيص الصيغة التقليدية (الصيغة ـ أ ـ) والصيغ المطورة (الصيغ ب ، ج ، د) كما يأتي :

الصيغة التقليدية	الصيغ المطورة		
الصيغة (أ)	الصيغة (ب)	الصيغة (ج)	الصيغة (د)
١. مزج الاوكسيد الرصاصي بالحامض والماء حتى تصل النسبة الوزنية للحامض والماء قياساً بالاوكسيد الى ٥ و ٤% . ٢. تحريك المزيج (١٥) دقيقة بدرجة ٤٠ مئوية ٣. يتكون معجون بتركيب 3BS الذي يتحول جزئياً الى 4BS.	١. مزج الاوكسيد الرصاصي بالحامض بكميات محسوبة . ٢. إضافة الرصاص الأحمر بعد ذلك تدريجياً لحين الحصول على معجون بتركيب 4BS .	١. مزج الاوكسيد الرصاصي بالرصاص الأحمر ثم إضافة الحامض . ٢. مزج المكونات بالتحريك لمدة ساعة بدرجة ٨٠ مئوية . ٣. المعجون المستحصل يحوي المركب 4BS .	١.تفكيك الرصاص الأحمر اولاً بمفاعلته مع الحامض ثم إضافة الاوكسيد الرصاصي . ٢. رفع درجة حرارة المحلول الى ٨٠ مئوية والتحريك ساعة واحدة . ٣. المعجون المستحصل يحوي المركب 4BS.

استعمال المعجون في تحضير ألواح النضيدة

لغرض دراسة فعاليات المعاجين المحضرة بـالصيغ المختلفـة التي أشرنا إليها في الموضوع السابق ينبغي استخدامها فـي تحضـير الألواح الموجبة للنضيدة . وهذا يستدعي لبخ عدد من مشابك الرصاص والانتمون التي تطرقنا إليها في موضوع سابق بالمعـاجين المحضـرة على وفق الصيغ المختلفة . ويراعى جعل سمك طبقة اللبخ ٢ ملمتر في كل حالة . فالألواح المحضرة بهذه الصورة سوف تمتلك سعة تبلـغ ١١ أمبير ساعة والتي تكافئ استغلال ٤٣% من المادة الفعالة للوح .

تعتيق الألواح المحضرة

لغرض استكمال الدراسة يتم بعد ذلك تعتيق الألواح المحضرة بـالصيغ المختلفة . ويتحقق ذلك باتباع أسلوبين :

أ. الأسلوب التقليدي في التعتيق وذلك بتسخين الألـواح المحضـرة (أي المشابك المكسوة بالمعجون) الى درجة حرارة ٤٠ مئوية مدة ٧٢ ساعة في جو رطب تتم السيطرة عليه جيداً .

ب. الأسلوب الثاني المطور في التعتيق ويتضمن تسـخين الألـواح (المكسوة بالمعجون) الى درجات حرارة أعلـى (٩٣ الـى ٩٥ مئوية) لمدة ٨ او ٢١ ساعة في وجود بخار الماء .

ولغرض دراسة العمليات التي تحدث خلال تحضير المعجـون وتعتيق الألواح المكسوة به يتم فحص عينات مختلفة منه بالاعتماد على التقنيات الآتية :

١. دراسة المعجون قبل التعتيق وبعده للوقوف على تغيرات الطـور ، ويتم ذلك عادة بدراسة أطياف حيود الأشعة السينية للنماذج .

٢. فحص النماذج بالمجهر الإلكتروني المسحيّ .

٣. دراسة النماذج من قياسات حجوم المسام (Pore Volume) والتوزيع السطحي لأنصاف أقطارها باستعمال مقياس المسامية الزئبقي (Mercury Porosimeter) .

تكوين الألواح الموجبة المعتقة

تتم بعد ذلك عملية تكوين الألواح المعتقة وذلك بغمرها في أحواض حامض الكبريتيك (وزنه النوعي ١,٠٥) باستخدام كثافة تيار مقدارها ٥ مللي أمبير على السنتمتر المربع بدرجة ٣٥ مئوية لمدة ٢٠ ساعة .

تستخدم الألواح بعد عملية التكوين في صنع نضائد الرصاص الحامضية التي يبلغ جهدها ١٢ فولت وشدة تيارها ٥٥ أمبير ساعة . ويجري بعد ذلك تعريض الألواح المشحونة الى دورة تفريغ مدة ٣ ساعات (الى ٨٠ % من سعتها) تعقبها دروة شحن ٩ ساعات (لغاية بلوغ زيادة الشحن لها الى ١٥%) .

نتائج فحوصات التشخيص

(١) المعجون المحضر وفق الصيغة (أ) :

يبين الشكل (٣) صورة بالمجهر الإلكتروني المسحيّ (SEM) لبنى وبلورات المعجون المحضر بالصيغة التقليدية (بتركيب 3BS) المعتق بدرجة ٤٠ مئوية مدة ٧٢ ساعة (الصورة a) . والصورة (b) تبين أشكال تلك البلورات عقب تعريض الألواح المعتقة الى مرحلة تكوين للحصول على مادة فوق اوكسيد الرصاص (PbO_2) الفعالة ، يلاحظ

في الصورة (a) أن المعجون المعتق يتمتع ببنية متجانسة ويشتمل على بلورات تكاد تكون متشابهة من حيث الحجم والشكل .

والشكل (٤) يعرض تغييرات الأطوار البلورية لمكونات المعجون (المحضر وفق الصيغة أ) الذي يكسو سطوح الألواح الموجبة لنضيدة الرصاص الحامضية الذي تعرض لعملية تعتيق بدرجة ٩٣ مئوية في وجود بخار الماء . وقد تم تمثيل هذه التغيرات بدلالة الشدة النسبية للأشعة السينية عقب حيودها من خلال تلك الأطوار البلورية مع الزمن ، ويلاحظ في هذا الشكل ما يأتي :

(أ) تناقص الشدة النسبية للأشعة السينية مع الزمن من بلورات أحادي اوكسيد الرصاص ــ نوع ألفا (رباعي الأضلاع tet – PbO) وتزايدها من بلورات أحادي اوكسيد الرصاص ــ نوع بيتا (المعيني المجاور orth - PbO) . وتصل الشدة النسبية للأشعة السينية عقب مرور ٢٤ ساعة على تعتيق المعجون بدرجة ٩٣ مئوية الى نحو ٤٠% بالنسبة لاحادي اوكسيد الرصاص ــ نوع ألفا والى حوالي ١٢% بالنسبة لاحادي اوكسيد الرصاص نوع بيتا .

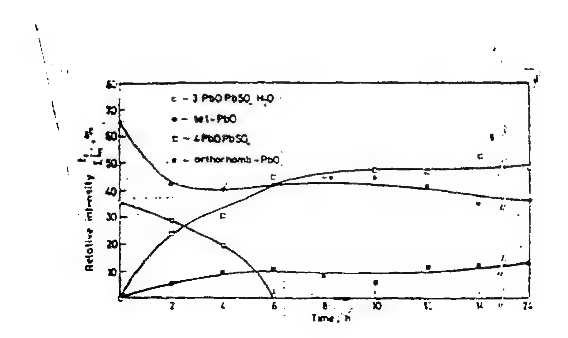
(ب) تناقص الشدة النسبية للأشعة السينية مع الزمن من بلورات المعجون المحضر تقليدياً (بتركيب 3BS) وازديادها لبلورات المعجون 4BS . وتصل الشدة النسبية للأشعة السينية من بلورات 3BS الى الصفر بعد مضي ٦ ساعات على التعتيق في حين تبقى الشدة النسبية للأشعة السينية الخاصة ببلورات 4BS بحدود ٥٠% حتى بعد انقضاء ٢٤ ساعة على التعتيق .

(ج) يتضح من نتائج الشكل (٤) كذلك ان المعجون المحضر تقليدياً (3BS) يبدأ بالتحول الى المركب 4BS حال بدء التعتيق بدرجة ٩٣

مئوية في وجود بخار الماء ، ويكتمل هذا التحول كلياً في غضـــون ٦ ساعات ، وان المعجون 4BS يحوي نسبة معينة مـــن أحادي اوكســيد الرصاص (بنوعيه ألفا وبيتا) بحـــالة غير متفاعلـــة . والواقـــع ان أحادي اوكسيد الرصاص من نوع بيتا (β - PbO) ما هو الا نتـــاج تفاعل أحادي اوكسيد الرصاص من نوع ألفا (α - PbO) .

(د) ان المركب 4BS وفق هذه الصيغة هو نتاج تحول المركب 3BS ، وهذا التفاعل يكاد يكتمل خلال ٦ ساعات من بدء التعتيق ، وان الزيادة الطفيفة التي تطرأ على كمية 4BS بعد هذه المدة تتم بطرائق أخـــرى وليس من خلال تحول المركب 3BS الذي يكون قد اختفى كلياً من بنية المعجون .

يبين الشكل (٥) صورة بالمجهر الالكترونيّ المســـحيّ لبلـــورات المعجون المحضر وفق الصيغة (أ) والمعتق بالأسلوب الذي تطرقنا إليه في الشكلين السابقين وذلك عقب تعريض المعجـــون لعمليـــة تكويـــن (شحن) . فالصورة (a) من الشكل (٥) تشير الى ان المعجون المعتـــق يتكون من بلورات (4BS) كبيرة الحجم وغـــير منتظمـــة الأشـــكال ، وتختلط بها بلورات اصغر حجماً من أحادي اوكسيد الرصاص (PbO) والرصاص غير المتفـــاعل . والتـــركيب يبـــدو عمومـــاً بشكل غـــير متجانس . ان الكتلة الفعالة الناجمة عن عملية التكوين مشابهة من حيث البنية للمعجون المعتق كما تبدو في الصورة (b) من الشكل نفسه ، امـــا الصورة (c) من الشكل (٥) فأنها تبيـــن بلـــورات 4BS المتعرضـــة للانكسار عقب مرورها بعملية التكوين . ويلاحظ في الصورة ايضاً ان طبقات السطح للبلورات (الجزء الأيمن من الصورة) قد تأكسدت فعلاً وتحولت الى بلورات فوق اوكسيد الرصاص (PbO_2) .



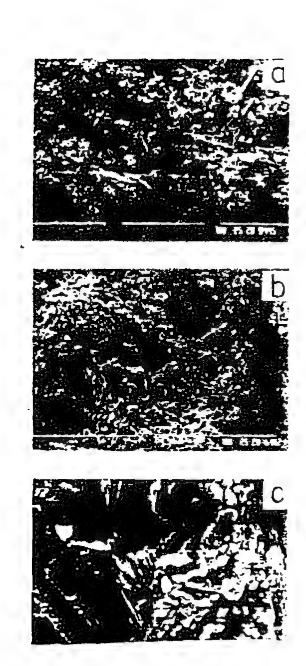
الشكل (٤) ــ التغييرات التي تطرأ على تراكيب أطوار المعجون مع الزمن خـــلال عمليــة التعتيق بدرجة ٩٣ مئوية في وجود بخار الماء بدلالة الشدة لنسبية للأشعة السينية المحيـــدة .
يلاحظ في الشكل تناقص طور PbO ــ الفا وازديـــاد طـــور 4BS ويـــزداد كذلـك طـــور PbO ــ بيتا ويقل طور 3BS .

$3PbO.PbSO_4.H_2O$ = 3BS

tet – PbO = الفا - PbO

$4PbO.PbSO_4$= 4BS

orthorhomb . PbO = بيتا - PbO



الشكل (٥) ــ صور بالمجهر الإلكتروني المسحي لــ : (a) بلورات معجون معتــق (الخــط الأبيض = ١٠ مايكرومتر) و (b) تجمعات الكتلة الفعالة (الخط الأبيض = ١٠٠ مــايكرومتر) و (c) بلورات 4BS المتكسرة (الخط الأبيض = ١٠ مايكرومتر) .

(٢) المعجون المحضر وفي الصيغة (ب)

عند إضافة الرصاص الأحمر الى المعجون 4BS المحضر من الاوكسيد الرصاصيّ (وهو خليط من أحادي اوكسيد الرصـــاص PbO والرصاص غير المتأكسد) مع حامض الكبريتيك يحدث تفـــاعل بيـــن الرصاص الأحمر المضاف والرصاص على النحو المذكور في التفاعل

$$Pb + Pb_3O_4 = 4PbO \quad : (2)$$

ويمكن متابعة تغيرات تركيز الرصاص فـــي أثنـــاء تحضـــير المعجون باستعمال طريقة التحليل الكيميـــائيّ الرطـــب . فقـــد دلـــت المعلومات التجريبية على ان محتوى المعجون من الرصاص ينخفـــض من ١٨% الى ٨% وزناً وذلك من جراء تفاعله مع الرصاص الأحمر. ودلت فحوصات المعجون بالأشـــعة الســـينية ان الرصـــاص الاحمـــر المضاف لا يتفاعل بصورة كاملة مع الرصاص ، بل ان كميات قليلـــة من الرصاص والرصاص الاحمر تبقى في المعجون المعتق بصـــورة غير متفاعلة . ويعزى ذلك الى اكتساء السطوح الخارجية لهذه الكميات من الرصاص والرصاص الاحمر بطبقة اوكسيد التي تمنـــع اســـتمرار التفاعل بينهما .

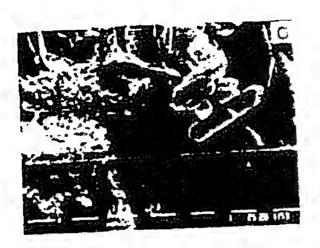
يبين الشكل (٦) ــ الصورة (a) للمعجون المعتق علـــى وفـــق هـــذه الصيغة كما هي ملتقطة بالمجهر الإلكـــتروني المســـحي . فـــالبلورات الموشورية الكبيرة في الصورة (a) هي بلورات 4BS ، والبلـــورات الصغيرة في الصورة نفسها تعود الى أحادي اوكسيد الرصاص(PbO) والتجمعات التي تظهر على الجهة اليسرى من الصورة (a) تعود الى بلورات الرصاص الأحمر (Pb_3O_4) غير المتفاعل . اما الصـــورة (b) من الشكل (٦) فهي صـــورة بالمجـــهر الإلكـــتروني المســـحي

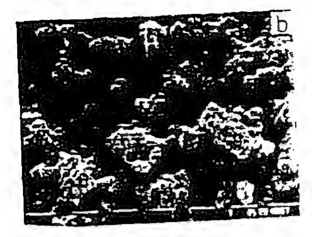
لبلورات فوق اوكسيد الرصاص (PbO_2) الناجمة عن عملية التكوين . وتصل النسبة المئوية لتحول معجون 4BS المعتق الى فوق اوكسيد الرصاص بعملية التكوين نحو ٨٥% . وبلورات فوق اوكسيد الرصاص المتكونة تكاد تعيد ترتيب بنيتها وتركيبها عل غرار بلورات المعجون الأصلية (4BS) التي تكونت منها .

(٣) المعجون المحضر وفق الصيغة (ج) :

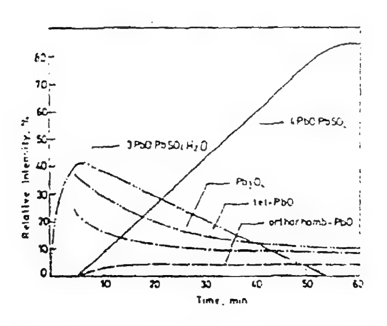
يبين الشكل (٧) التغيرات التي تحدث في الأطوار البلورية لمكونات المعجون عقب تحضيره بدرجة ٨٠ مئوية بدلالة تغيرات الشدة النسبية للأشعة السينية المحيدة من الأطوار المختلفة . فالمزج على النحو المذكور في الصيغة يؤدي الى الحصول على معجون بالتركيب 3BS اولاً . وتتم هذه العملية بصورة سريعة ، وتكتمل في غضون نحو ٨ دقائق ثم يختفي هذا الطور البلوري كلياً خلال الدقائق الخمسين التالية ، يبدأ تكون المعجون بالتركيب 4BS بعد انقضاء ٦ دقائق تقريباً على التحضير ، وتصل الشدة النسبية للأشعة السينية المحيدة من طور 4BS أقصاها (نحو ٩٠%) خلال نحو ٥٥ دقيقة ، وبمقارنة هذا الشكل مع الشكل (٣) الذي مر بنا سابقاً والخاص بتحضير المعجون بالتركيب 3BS يلاحظ ان الشدة النسبية للمركب 4BS الناجم عن تحول المركب 3BS قد بلغت فقط نحو ٥٥% ، أي ان هذه الصيغة في تحضير المعجون 4BS تؤدي الى الحصول على قدر اكبر من 4BS قياساً بمقدار هذا المركب الناجم عن تحول 3BS على وفق الصيغة (أ) التقليدية .

ويتكون أحادي اوكسيد الرصاص من نوع بيتا (المعيني المجاور) منذ المراحل الأولى من المزج في حين تقل كمية أحادي





الشكل (٦) ــ صور بالمجهر الإلكتروني المسحي لـــ : (a) بلـــورات معجـــون معتـــق (الخط الأبيض = ١٠ مايكرومتر) و (b) تجمعات الكتلة الفعالة (الخط الأبيـــض = ١ مايكرومتر) .



الشكل (٧) ــ تغيرات في تراكيب الأطوار البلورية لمعجون خلال عملية تحضـــيره علـــى وفـــق الصيغة (ج) . يلاحظ في الشكل تناقص طور 3BS وازدياد طور 4BS وبقاء كـــل مـــن طـــوري Pb_3O_4 و PbO ثابتاً بعد التناقص الابتدائي فيه خلال الدقائق العشر الأولى . يلاحظ ايضاً تكـــون طور PbO ــ بيتا عقب مرور (٥) دقائق على التحضير ثم يبدأ الطور بالازديـــاد فـــي الدقـــائق العشر التالية . Pb_3O_4 هو الرصاص الأحمر والمركبات الأخرى في الشكل معرفة في الشكل (٤)

اوكسيد الرصاص من نوع ألفا (رباعي الأضلاع) ، وتقل تبعاً لذلك الشدة النسبية للأشعة السينية المحيدة منه بشكل سريع خلال ١٥ دقيقة الأولى من التحضير ثم يعقبه تناقص أبطأ للشدة النسبية خلال الدقائق الأربعين التالية (الشكل ٧) .

الشكل (٨) يعرض صورة بالمجهر الإلكتروني المسحي لمعجون معتق بدرجة ٤٠ مئوية لمدة ٧٢ ساعة ، فالمعجون يتكون من بلورات 4BS الموشورية الكبيرة في الحجم التي تتمتع بجوانب وحافات وقمم واضحة . وتوجد مع هذه البلورات الكبيرة بلورات صغيرة من أحادي اوكسيد الرصاص من نوع ألفا . وقد وجدت بلورات مشابهة من حيث المظهر في المعجون المعتق بدرجة حرارة ورطوبة عاليتين . وتلتحم البلورات فيما بينها خلال عملية التعتيق في هذه الظروف مولدة كتلاً اكبر والتي تتمتع بمقاومة ميكانيكية اكبر .

الشكل (٩) يعرض صورة بالمجهر الإلكتروني المسحي للمعجون المعتق عقب تعريضه لعملية تكوين . فالكتلة الفعالة الناجمة عن عملية التكوين تحتفظ عادة بالبنية العيانية للمعجون الأصلي . ان عملية التكوين تسبب تحول بلورات 4BS الى تجمعات فوق اوكسيد الرصاص التي تشتمل على دقائق فوق اوكسيد الرصاص المكورة او الدائرية الشكل . وتصل النسبة المئوية للتكوين والتحول الى بلورات فوق اوكسيد الرصاص (PbO_2) الى حوالي ٨٩% .



الشكل (٨) ـ صورة بالمجهر الإلكتروني المسحي لبلورات معجون معتق
(الخط الأبيض = ١ مايكرومتر)

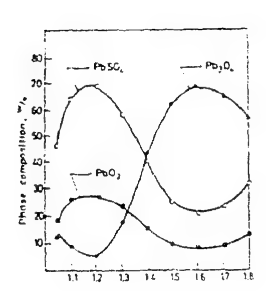


الشكل (٩) ـ صورة بالمجهر الإلكتروني المسحي لتجمعات الكتلة الفعالة
(الخط الأبيض = ١ مايكرومتر)

(٤) المعجون المحضر وفق الصيغة (د) :

يبين الشكل (١٠) مدى اعتمادية تراكيز كـــل مـــن كبريتـــات الرصاص ($PbSO_4$) وفوق اوكسيد الرصاص (PbO_2) الناجم عـــن عملية التكوين ، والرصاص الاحمر (Pb_3O_4) غير المتفـــاعل علـــى تركيز حامض الكبريتيك . جرى تقدير تركـــيز كـــل مـــن كبريتـــات الرصاص وفوق اوكسيد الرصـــاص بـــالتحليل الكيميـــائي الرطـــب ، واستخدمت النتائج في حساب تركيز الرصاص الاحمر غير المتفـــاعل بالاعتماد على المعادلة (1) التي مرت بنا سابقاً . وجرى تحليـــل كـــل طور بعد انقضاء ٤٠ دقيقة على مزج المكونات .

لوحظ ان الرصاص الاحمر يتفاعل بسرعة مع محلول الحامض وانه على الرغم من وجود زيادة من الحامض في وسط التفاعل سـيبقى مقدار من الرصاص الاحمر بحالة غير متفاعلة . ويلاحظ في الشـــكل (١٠) ان تفكك الرصاص الاحمر يتم بدرجـــة اكـــبر فـــي التراكـــيز المنخفضة للحامض . وهذا يفسر لنا سبب تفضيل اســـتعمال محلـــول مخفف من حامض الكبريتيك في تحضير المعجون . ويمكـــن تحديـــد التركيز الأصغر للحامض الذي يمكن استعماله لهذا الغرض بتخفيـــف المقدار المحسوب من حامض الكبريتيك (وزن نوعـــي ٤ , ١) مـــع الماء حتى يتم الحصول على معجون بكثافة ٧, ٤ غرام على الســـنتمتر المكعب . يضاف الى هذا المحلول العالق (ذي اللون البني الغـــامق) المقدار اللازم من الاوكسيد الرصاصي . يتم مزج مكونات المعجـــون ساعة واحدة بدرجة ٨٠ مئوية . يبين الشكل (١١) تغيـــرات الأطـــوار لمكونات المعجون بدلالة تغيرات الشدة النسبية للأشعة السينية المحيـــدة من كل طور مع الزمن .



الشكل (١٠) ـ يعرض تغيرات فعالية الرصاص الأحمر (Pb_3O_4) المخلوط مع حامض الكبريتيك بدلالة تركيب الطور بعد مضي ٤٠ دقيقة على المزج كنسبة منوية مقابل كثافة حامض الكبريتيك المستعمل يلاحظ في الشكل :

ـ ازدياد أولي لطور كبريتات الرصاص ($PbSO_4$) يعقبه تناقص الى الحد الأدنى ثم يحدث ازدياد طفيف مع ازدياد كثافة الحامض المستعمل .

ـ ازدياد تركيز طور فوق اوكسيد الرصاص (PbO_2) ثم تناقصه التدريجي الى الحد الأدنى مع ازدياد كثافة الحامض .

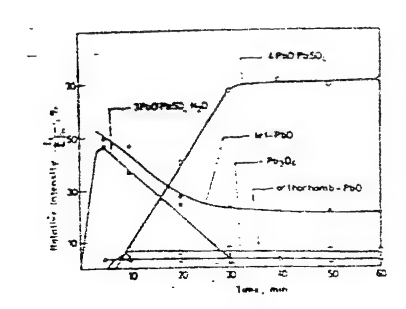
ـ تناقص تركيز طور الرصاص الأحمر (Pb_3O_4) أول الأمر ثم يعقبه ازدياد في التركيز بشكل ملحوظ حتى يصل حده الأقصى ثم يأخذ بالتناقص قليلاً مع ازدياد كثافة الحامض .

وتحدث العمليات نفسها خلال عملية تكوين المعجون 4BS كما لو تم تحضير هذا المعجون من مزج الاوكسيد الرصاصي بالرصاص الاحمر (الصيغة ج) . وقد تكون العمليات أسرع في حالة الصيغة (ج) مما في حالة الصيغة (د) ، ويصبح المعجون المحضر بلون بني خفيف . ولا تظهر خطوط لحيود الأشعة السينية خاصة بطور فوق اوكسيد الرصاص (طور بيتا) ـ الشكل (١١) ـ وقد ينجم ذلك عن كون فوق اوكسيد الرصاص عموماً بحالة غير بلورية .

الشكل (١٢) يعرض في صورتين بالمجهر الإلكتروني المسحي (الصورتين a و b) بلورات 4BS الموجودة في بنية المعجون المعتق وكذلك في بنية الكتلة الفعالة المتكونة . وقد تكون بلورات 4BS المستحصلة بهذه الصيغة اصغر حجماً من تلك البلورات الناجمة عن مزج الاوكسيد الرصاصي بالرصاص الأحمر (وفق الصيغة ج ـ الشكل ٩) . يتضح من هذا ان بلورات كبريتات الرصاص ($PbSO_4$) الناجمة عن تفكك الرصاص الأحمر (Pb_3O_4) تسهل من تكوين نوى من بلورات 3BS ، وهذه بدورها تسهل تكوين نوى لبلورات 4BS .

ولم تسجل أية تغيرات في تركيب الطور في عملية التعتيق بدرجة ٤٠ مئوية مدة ٧٢ ساعة او بدرجة ٩٣ مدة ٢١ ساعة ، ولكن لوحظت إعادة تبلور المركب 4BS وكذلك لاحادي اوكسيد الرصاص من نوع ألفا . وتم تعريض الألواح عقب عملية التعتيق لعملية تكوين فكانت النسبة المئوية للكتلة الفعالة المتكونة (أي فوق اوكسيد الرصاص المتكون) بحدود ٨٦% .

يعرض الشكل (١٣) علاقة جهد اللوح الموجب للتضيدة بالزمن خلال عملية التكوين باستعمال معاجين محضرة بصيغ مختلفة . يلاحظ



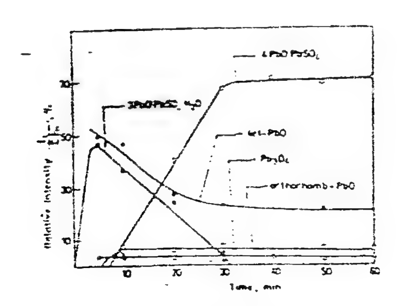
الشكل (١١) ـ الشدة النسبية للأشعة السينية المحيدة مرسومة مقابل الزمن . يلاحظ فيه :

ـ ازدياد تركيز 3BS خلال اقل من ١٠ دقائق عقب تحضيره ثم ينقص بشدة خــــلال ٢٥ دقيقة .

ـ ازدياد تركيز 4BS بشكل سريع حال بدء 3BS بالنقصان ثم يقف عن الزيادة عند بلــوغ 3BS حدها الأدنى .

ـ يقل تركيز PbO ـ الفا بسرعة أول الأمر ثم يثبت بعد ذلك .

ـ يبقى تركيز كل من Pb_3O_4 و PbO بيتا ثابتاً .



الشكل (١١) ـ الشدة النسبية للأشعة السينية المحيدة مرسومة مقابل الزمن . يلاحظ فيه :

ـ ازدياد تركيز 3BS خلال اقل من ١٠ دقائق عقب تحضيره ثم ينقص بشدة خـــلال ٢٥ دقيقة .

ـ ازدياد تركيز 4BS بشكل سريع حال بدء 3BS بالنقصان ثم يقف عن الزيادة عند بلـــوغ 3BS حدها الأدنى .

ـ يقل تركيز PbO ـ الفا بسرعة أول الأمر ثم يثبت بعد ذلك .

ـ يبقى تركيز كل من Pb_3O_4 و PbO بيتا ثابتاً .



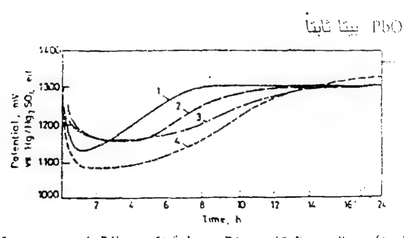


الشكل (١٢) ــ صور بالمجهر الإلكتروني النسحي لــ :

(a) بلورات معجون معتق .

(b) تجمعات الكتلة الفعالة (الخط الأبيض = ١ مايكرومتر) .

بيتا ثابتاً PbO



الشكل (١٣) ــ الجهد المقاس خلال عملية تكوين الالواح مرسوم مقابل الزمـــــن .

الكتلة الفعالة حضرت بــ :

(١) بالصيغة (أ) من معجون 3BS المعتق بدرجة ٩٣ مئوية .

(٢) بالصيغة (أ) من معجون 3BS المعتق بدرجة ٤٠ مئوية .

(٣) بالصيغة (د) من معجون 4BS المعتق بدرجة ٩٣ مئوية .

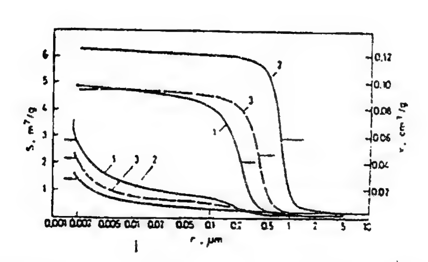
(٤) بالصيغة (ج) من معجون 4BS المعتق بدرجة ٩٣ مئوية .

في هذا الشكل ان المعاجين المشتملة على الرصاص الأحمر (Pb_3O_4) تعاني مدة أطول استقطاباً منخفضاً من جراء التفاعل الكهروكيميائي لتكوين فوق اوكسيد الرصاص . وهذا يعني إمكان إسهام الرصاص الأحمر او أحد نواتج تفككه في هذه العملية . وبالمقابل فان الألواح المحضرة باستعمال معجون 3BS التقليدي الذي يجري تعتيقه بدرجة ٩٣ مئوية تظهر استقطاباً أسرع خلال عملية التكوين ، ويبقى قسم اكبر من مادة 4BS على حالتها دون التحول إلى فوق اوكسيد الرصاص خلال عملية التكوين .

ان الاختلافات في الأشكال البلورية وفي بنى الكتل الفعالة للمعاجين المختلفة المحضرة بالصيغ المختلفة ، تؤدي بطبيعة الحال الى اختلافات مناظرة في مسامية الكتل الفعالة . والشكل (١٤) يعرض منحيات التوزيع لكل من مساحات وحجوم المسام مقابل أنصاف أقطار المسام للكتل الفعالة . وتشير المعلومات المتوافرة الى ان الكتل الفعالة المستحصلة من المركب 4BS تمتلك اكبر معدل قطر قياساً بالكتلة الفعالة المستخدمة من المركب 3BS المحضر على وفق التقنية التقليدية لذا تكون بلورات 4BS كبيرة الحجم وتصبح مساحة مسامها اصغر للكتل الفعالة المستحصلة من معاجين 4BS مقارنة بتلك المحضرة من 3BS بالتقنية التقليدية .

السعة الابتدائية وعمر الدورة لنضائد الرصاص الحامضية

يبين الشكل (١٥) ان نضائد الرصاص الحامضية المحضـــرة باستعمال معجون 4BS في اكساء ألواحها الموجبـــة أظـــهرت ســـعة كهربائية أعلى من القيم المعهودة وذلك خلال الدورات الثلاث الأولـــى من التفريغ والشحن المتعاقبين . وبمقارنة المعلومات المعروضة فـــي الشكل (١٥) بالمعلومات التي عرضت في الشكل (١) يمكن استنتاج ان الرصاص الأحمر له تأثير قوي في السعة الابتدائية للألواح . ويـــزداد عمر الدورة للنضائد المصنوعة باستعمال المعجون 4BS بمقدار 30% قياساً بالنضائد المحضرة باستعمال المعجون 3BS . يستنتج من هذا ان إدخال الرصاص الأحمر الى العجينة يؤدي الى التخلص من المثـــالب التي ترافق استعمال المعجون 4BS المحضر بدون إضافة الرصـــاص الأحمر التي تتلخص بالسعة الابتدائية المنخفضـــة وبســرعة التكويـــن البطيئة دون إحداث تغير ملحوظ في عمر دورة النضيدة . وعلى هـــذا فان تقنية الرصاص الأحمر لغرض تحضير المعجون 4BS تفتح آفاقـــاً واسعة لتطوير نضائد الرصاص الحامضية وتحسين أدائها .

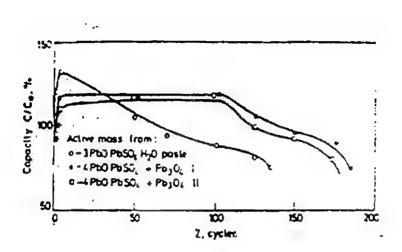


الشكل (١٤) – توزيع حجوم (V) وسطوح (S) لمسام مرسوم مقابل أنصاف أقطار المسام للكتلة الفعالة المحضرة من :

(١) معجون 3BS المعتق بدرجة ٤٠ مئوية مدة ٧٢ ساعة (الصيغة أ) .

(٢) معجون 4BS المعتق بدرجة ٩٣ مئوية مدة ٢١ ساعة (الصيغة ج) .

(٣) معجون 4BS المحضر وفق الصيغة (د) .



الشكل (١٥) – يبين السعة الكهربائية لثلاثة أنواع من المعجون :

معجون محضر وفق الصيغة (أ) بالتركيب 3BS .

المعجون (I) المحضر من المركب 4BS وفق الصيغة (ج) .

والمعجون (II) المحضر من المركب 4BS وفق الصيغة (د) .

بعض المصادر المعتمد عليها :

١.جلال محمد صالح ، نضائد الرصاص الحامضية ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ، مجلة المجمع العلمي .

القسم الأول ــ التطور التاريخي والفني والعلمي ، عام ٢٠٠٢ المجلد ٤٩ الصفحات (١٥ ــ ٤٨) ــ العدد الثاني .

القسم الثاني ــ سبل تحسين مواصفات وتطوير أداء النضيدة لعام ٢٠٠٢ المجلد ٤٩ الصفحات (٣٣ ــ ٨٠) ــ العدد الرابع .

2. S.Kawauchi, T.Iijima and T. Kawase, New Battery Technologies, Matsushita Battery Industrial Co. Ltd, Osaka, 1994.

3.D. Linden, Handbook of Batteries, 2nd edition, McGraw – Hill, New York, 1995.

4. C.D.S.Tuck, Modern Battery Technology, Ellis Harwood, NewYork, 1950.

5. A.Attewell and T.Keily, Power Sources 15, 1995, International Power Sources Symposium Committee, 1995 .

6. J.Burbank, J.Electochem . Soc, 113 (1966) 10.

7. B.V.Biagetti and M.C.Week, Bell Sys. Tech. J, 49 (1970) 1305.

8. D.Pavlov and S. Papazov, Electrochem. Power Sources, Proc.Intr. Symp, Praha Zari, Dum, Techniky VTS , Praha , CSSR, 1975, p . 19.

9. D.Pavlov, in B.D.McNicol and D.A.J.Rand (Ed), Power Sources for Electric Vehicles , Elsevier, Amsterdam, 1984 , P. 335 .

10. D.Pavlov and E. Bashtavelova, J.Electrochem. Soc., 131 (1984) 1468.

11. D.Pavlov E.Bashtavelova and V. Ilien . In K.R.Ballock and D.Pavlov (Eds), Advances in Lead – Acid Batteries , Vol. 84-14, the Electrochem Soc. Inc. Pennington, NJ, USA, 1984, P, 16 .
12. D.Pavlov and G.Papazov, J.Appl. Electrochem. 6 (1976) 339 .
13. V.Iliev and D.Pavlov, J.Appl. Electochem. 9 (1979) 555.
14. D.Pavlov and N.Kapkov,J. Electochems . Soc, 137 (1990) 16 and 137 (1990) 21.
15. D.Pavlov and N.Kapkev, Belg. Patent 40005, 43335, 43336 (1987) .
16. C.A.Vincent, Modern Batteries, (John Wiley & Sons Inc, New York , 1997) .
17. J.O'M. Bockris, A.K.N.Reddy and M.Gamboa – Aldeco, Modern Electrochemistry, 2nd Edn. (Kluwer Academic / Plennm Publishers New York 2000) .

اللغات العاربة ، لغات العرب القدماء

أ. د. عامر سليمان
عضو المجمع العلمي وأستاذ اللغة الاكدية
قسم الآثار ، جامعة الموصل

يطلق عادة على مجموعة اللغات التي تكلمت بها الأقوام القديمة التي عاشت في شبه الجزيرة العربية وأطرافها ، ومنهم العرب ، مصطلح " اللغات السامية " ويطلق على المتكلمين بها اسم " الساميين "(*) وهو مصطلح حديث الاستخدام اذ كان أول من استخدمه الباحث اليهودي النمساوي شلوتزر في العام ١٧٨١ م(١) . وقد اشتق الاسم ـ كما هو واضح ـ من اسم سام بن نوح الذي ورد ذكره في سفر التكوين من كتاب العهد القديم(٢) ظناً من شلوتزر ان جميع الأقوام التي عاشت في المنطقة انحدرت اصلاً من نسل سام بن نوح كما يذكر سفر التكوين وقد وقعت التسمية موقعاً حسناً في نفوس الباحثين واللغويين ، لاسيما الغربيين منهم لإيجازها وسهولة استخدامها ولأنها تؤكد ما جاء في كتاب العهد القديم ، كتاب اليهود المقدس ، الذي يؤلف

(*) ينظر وقائع ندوة الصلات المشتركة بين أبجديات الوطن العربي القديمة ، بغداد ٢٠٠١ ، والتوصيات المتخذة بشان تسمية السامية والساميين .

(1) Schlozer, Vonden, Chaldain , 1781 , p. 161.

(٢) سفر التكوين ، اصحاح ١٠ : ٢١ ـ ٢٤ " وسام ابو كل بني عابر اخو يافث الكبير ولد له ايضاً بنون . بنو سام عيلام واشور وارفشكاد ولود وارام وبنو ارام عوص وحول وجاثر وماش وارفشكاد ولد شالح وشالح ولد عابر " .

القسم الأول من الكتاب المقدس . وشاع استخدام التسمية بين الباحثين العرب والأجانب على حد سواء حتى أواسط القرن العشرين . الا ان الاكتشافات الآثارية الحديثة وقراءة النصوص المسمارية وغيرها من النصوص القديمة قد أثبتت عدم دقة هذه التسمية ، وأظهرت الارتباك الذي وقع فيه كتاب سفر التكوين ودفعهم للخلط بين الأقوام والانقياد لمقاصدهم الدينية والعرقية وتعصبهم على الأقوام التي سبقتهم في العيش بفلسطين ارض كنعان ، كما ورد اسمها في كتاب العهد القديم . الى جانب ذلك فقد اكتسبت التسمية " السامية " و " الساميّون " في الغرب بعامة مفهوماً سياسياً جديداً منذ الحرب العالمية الثانية اذ غدت تستخدم للدلالة على اليهود فقط دون غيرهم من الأقوام التي يفترض انها كانت تؤلف الغالبية العظمى ممن أطلق عليهم اسم الساميين ، ومنهم العرب ووصف النازيون ــ تبعاً لذلك ــ بأنهم ضد السامية[٣] أي : ضد اليهود كما وصف العرب أنفسهم الذين يفترض انهم ــ على وفق هذه التسمية ــ من الساميين بأنهم ضد السامية ، ايضاً ، وهو ما يؤكد عدم دقة التسمية أو ملاءمتها وضرورة نبذها واستخدام تسمية بديلة تفصح عن هوية الأقوام القديمة وتشير ــ كلما كان ذلك ممكناً ــ الى موطنهم الأول ، ويمكن في الوقت نفسه استخدامها في اللغات العربية والأجنبية بيسر وسهولة[٤] .

ان معظم الباحثين العرب ــ والعراقيون منهم بخاصة ــ يتفقون حالياً على نبذ مصطلح " اللغات السامية " والساميين للأسباب التي

---

[٣] ينظر تفصيل ذلك : مقارا ، شفيق ، قراءة سياسية للتوراة ، لندن ص ١٧ .

[٤] ينظر مثلاً : سليمان عامر ، محاضرات في التاريخ القديم ، موصل ١٩٧٨ ، ص ٩٨ ــ ٩٩ .

ذكرناها انفاً وان كان هناك نفر منهم يصر على استخدامها ، على الرغم مما ظهر من عيوبها والتثبت من عدم دقتها ، متأثرين بما قال به الغربيون دون الالتفات الى ما تخفيه التسمية من مقاصد غير علمية . وظهرت نتيجة ذلك مقترحات عدة لتسميات بديلة كان لكل منها ما يسوغ استخدامها وفي الوقت نفسه فيها ما يشير الى عدم دقتها او ملاءمتها اذ يصعب ان نجد تسمية بديلة دون ان يكون عليها اعتراض لغوي او تاريخي او جغرافي ما دمنا لا نعرف شيئاً عن أولى التسميات القديمة التي استخدمت للدلالة على الأقوام الأولى التي تكلمت بهذه المجموعة من اللغات قبل تفرقها ولا عما كان يطلق على موطنهم الأول الذي يفترض انه كان في شبه الجزيرة العربية ، بحسب أقوى النظريات المقدمة بخصوص ذلك .

ان عدم الاتفاق على تسمية بديلة بين الباحثين واستخدام تسميات عدة بحسب تفضيل الباحث يقلل في رأينا من أهمية الاتفاق على نبذ التسمية القديمة " السامية " و " الساميين " بل انه يسوغ الاستمرار في استخدامها ما دام لا توجد تسمية أخرى بديلة متفق عليها ، ويقدم الحجة لأولئك الذين لا يرغبون في أيجاد تسمية جديدة .

وللوصول الى تسمية بديلة مقبولة تتوافر فيها جميع الشروط ، او معظمها ، لا بد من المامة سريعة بما يعرف عن هذه المجموعة من اللغات وما ذكره عنها الكتّاب العرب وبالتسميات البديلة المقترحة حديثاً .

ان معرفتنا بلغات الأقوام القديمة تتحدد عادة بتاريخ اختراع الكتابة وسيلة لتدوين اللغة وحفظها ، وقد نتعرف فصيلة اللغات التي استخدمت في بلد معين ، في ضوء موقعه الجغرافي وطرق الهجرة

والغزو المتيسرة اليه ، الا انه لا سبيل لمعرفة اللغة او اللغات التي استخدمت على وجه التحديد في غياب الكتابة . وكانت اقدم اللغات التي وجدت طريقها الى التدوين والحفظ ، هي لغتا العراق القديم السومريّة والاكدية بلهجاتهما المتعددة[٥] وكان العراقيون القدماء أول من ابتكر وسيلة التدوين في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد[٦] . اما اللغة السومريّة ، وهي اللغة القدمى من حيث تاريخ التدوين ، فهي لغة منفردة لا تشبه غيرها من اللغات المعروفة التي حفظتها لنا المدونات ، وربما تنتمي الى أسرة لغوية انقرضت جميع فروعها وبطل استخدامها من قبل ان تبتكر الكتابة ، وكان حظ اللغة السومريّة أوفر من حظ شقيقاتها ، اذ ابتكر السومريون أول وسيلة للتدوين ودونوا بها لغتهم وحفظوها للأجيال التالية . وتنتمي اللغة الاكدية ، وهي اللغة العراقية الثانية من حيث تاريخ التدوين . الى الفصيلة اللغوية نفسها التي تنتمي اليها لغتنا العربية ، وهي الفصيلة التي سميت خطأ ، كما الممحنا باللغات السامية التي انتشر استخدام فروعها في شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام وبلاد الرافدين وسواحل شماليّ أفريقية وشرقيها بالدرجة الأساسية أن معرفتنا بلغات هذه الفصيلة اللغوية كثيرة وهي بازدياد مستمر ما دامت أعمال التنقيب مستمرة في المدن والمواقع القديمة في أرجاء الوطن العربي وتمدّنا بالمزيد من الكتابات القديمة التي تنقل الينا لغات المنطقة القديمة . ومع وفرة المعلومات المتيسرة عن تاريخ المنطقة

---

(٥) ينظر سليمان عامر ، اللغة الاكدية ــ البابلية الاشورية ــ موصل ، ١٩٩١ ، ص ٢٦ ــ ٢٧ .

(6) Driver G. R, Semitic Writing 3 rd . ed. Oxford , 1967 , pp. 2-3 Gelb, I.J. Asudy of Writing London, 1952 pp. 61 – 63 .

القديم وتاريخ الأقوام التي عاشت فيها ولغاتها . انـــــها لــم تقــدم لنــا معلومات وافية عن أول الأقوام التي عاشت في شبه الجزيرة العربيــة ، الموطن الأول للمتكلمين بهذه الفصيلة من اللغـــات ، بحســب أقــوى النظريات التي قدمت بشان ذلك (**) ، نظراً لان الكتابة لم تستخدم فــي شبه الجزيرة العربية الا في وقت متأخر نسبياً لا يتجاوز في أي حــال من الأحوال الألف الأول قبل الميلاد ، لذلك كانت معرفتنا باللغة التــي استخدمها سكان شبه الجزيرة الأوائل غير معروفة لدينـــا ايضــاً ، ولا نتوقع ان المكتشفات المقبلة في شبه الجزيرة العربية ستكشف لنا عمــا يفصح عنها لان الكتابة لم تكن معروفة فيها اصلاً .

وفي غياب الكتابة وسيلة حفظ اللغة للأجيال التاليـــة ، سـعى الباحثون اللغويون المحدثون الى تلمس سمات اللغة الام التي يفــترض انها كانت مستخدمة في شبه الجزيرة العربية ، الموطن الأول للأقــوام التي استخدمت اللغات موضوع بحثنا ، فعكفوا على دراســة السـمات الرئيسة للغات التي انتشر استخدامها في المنطقة بلهجاتها المختلفة مــن خلال ما حفظته لنا المدونات المسمارية وغيرها المكتشفة في بلاد الشام وبلاد الرافدين . وقد أثبتت الدراسات اللغوية وجود اوجه شبه كبيرة في سمات هذه اللغات . وكان الكتاب العرب المسلمون قد تنبهوا الى هــذه الحقيقة منذ الثامن الميلادي في اقل تقدير ، اذ ذكر الخليل بــن احمــد الفراهيدي المتوفى في العام ١٧٥هـ / ٧٨٦ م في كتابه " العين " مــا نصه : " وكنعان بن سام بن نوح ينسب إليـــه الكنعــانيون ، وكــانوا

(**) ينظر : ظاظا ، حسن ، الساميون ولغاتــهم ، القــاهرة ١٩٧١ ، موســكاتي ، سبتينو ، الحضارات السامية القديمة ، لندن ، ١٩٥٧ ، ترجمة بكر يعقوب ص ٥٢ وما بعدها .

يتكلمون بلغة تضارع العربية " [٧] . اما المسعوديّ[٨] علي بن حسن بن علي المتوفى في العام ٣٤٦هـ / ٩٥٦ م ، فقد ذكر في كتابه " مـروج الذهب ومعادن الجوهر : معلومات دقيقة عن الأقوام التي تكلمت بـهذه اللغات وعن علاقاتها بعضها ببعضها الآخر الى درجة دفعت البـاحث الروسيّ كرتشوفسكي ان يقول عنهم : " من الغريب انو توجد لديه فكرة وحدة الشعوب السامية ، وذلك قبل عهدٍ طويل من ظـهورها كنظريـة علمية في أوربا "[٩] . وشبـه ابن حازم الاندلسـيّ المتوفـى في العام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م القرابة اللغوية بين العربية والعبرية والسـريانية بقرابة لهجات اللغة الواحدة وقال ان هذه اللغات إنما هي لغة واحدة فـي الأصل ، وذلك في كتابه : " الأحكام السلطانية " الذي ورد فيـه : " ان الذي وقفنا عليه وعلمناه يقيناً ان السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر وربيعة ــ لا لغة حمير ــ لغة واحدة تبدلت بتبدل مسـاكن أهلها فحدث فيها جرس كالذي يحدث من الأندلسي اذا رام نغمة أهـل القيروان ، ومن القيرواني إذا رام نغمة الأندلسي ، ومن الخراسـاني اذا رام نغمتهما ... فمن تدبر العربية والعبرانية والسـريانية ، أيقـن ان اختلافها من نحو ما ذكرناه ، من تبديل ألفاظ الناس على طول الزمـان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم ، وانها لغة واحدة في الأصل " [١٠].

---

[٧] نقلاً عن رمضان عن عبد التواب ، فقه اللغة العربية ، القاهرة ، ص ٣٠ .

[٨] ينظر الطعان ، هاشم ، مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ص ١٨ .

[٩] كرتشوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ١ / ١٨٣ .

[١٠] ابن حزم ، الأحكام في أصول الأحكام ، ١ / ٣١ .

ومع ان ابن حزم قد تنبه الى العلاقة الوثقى التي تربط هذه اللغات بعضها ببعضها الآخر وقال بأصولها المشتركة وبين أسباب الاختلاف بينها مما يدل على تفكير لغوي سليم انه لم يستخدم تسمية معينة للدلالة على هذه المجموعة من اللغات او على المتكلمين بها .

ثم جاءت التسمية التي أطلقها شلوتزر على هذه المجموعة من اللغات وعلى المتكلمين بها ، الا ان عدم دقة التسمية التي قدمها شلوتزر وما تضمنته من مقاصد عرقية وسياسية دفع عدداً من الباحثين العرب الى التعرض لها منذ أواسط القرن الماضي ، وكان اول من دعا الى ذلك الأستاذ المرحوم جواد علي اذ جاء في كتابه " تاريخ العرب قبل الإسلام " ما نصه : " اني سأطلق لفظ عرب على جميع سكان الجزيرة بغض النظر عن الزمان الذي عاشوا فيه والمكان الذي وجدوا فيه ، سواء أكانوا سكنوا في الشام الشمالية ام في الأقسام الوسطى من جزيرة العرب ام في الأقسام الجنوبية منها . فكل هؤلاء في نظري عرب علم لقومية خاصة ومصطلح ظهر متأخرا في النصف الأخير من الألف الأول قبل الميلاد ، وتركز وتثبت بعد الميلاد خاصة ، وقبل ظهور الإسلام على الأخص . وعلى هذا فالذين عاشوا قبل الميلاد بقرون عديدة وبألوف من السنين ، هم عرب وبالطبع وان لم يدعوا عرباً " ... ولعلني لا أكون مخطئا او مبالغا اذا قلت ان الوقت قد حان لاستبدال بمصطلح " سامي و " سامية " " عربي " و" عربية " فقد رأينا ان تلك التسمية تسمية مصطنعة تقوم على أساس التقارب في اللهجات وعلى أساس فكرة الأنساب الواردة في التوراة ... اما مصطلحنا " العرب " الذي يقابل " السامية " فهو اقرب – في نظري – الى العلم وليس ببعيد ولا بقريب عن العلم والمنطق ان تعد السامية عربية لكونها

ظهرت في جزيرة العرب ونحن نعلم ان كثيراً من العلماء يرون ان جزيرة العرب هي مهد الساميين " [11].

ويبدو ان المرحوم الأستاذ جواد علي لم يكن واثقاً كل الثقة بالتسمية التي اقترحها كما انه تعرض لانتقادات كثيرة مما دفعه الى التراجع عن هذا الرأي في العام ١٩٦٨ في كتابه التالي ولم يقدم مصطلحاً بديلاً كما فعل في المرة الأولى[12].

وفي العام ١٩٧٣ أشار أستاذنا المرحوم طه باقر ، الى تسمية الساميين واللغات السامية واقترح ضرورة الاستبدال بهما تسمية أخرى بعد ان ثبت عدم دقتها وقال : " يجدر بنا ان نبين ان هذه التسمية الشائعة ، أي " الساميين واللغات السامية ، غير موفقة ولا صحيحة في رأيي على الرغم من شيوعها في الاستعمال . ولو اننا سمينا هذه اللغات بلغات الجزيرة او اللغات العربية والأقوام السامية بالأقوام العربية او أقوام الجزيرة لكان ذلك اقرب الى الصواب "[13]، الا ان الأستاذ طه باقر لم يأخذ بأي من مقترحاته اذ استخدم مصطلح السامية واللغات السامية في الصفحة التالية من كتابه نفسه واكتفى بتقديم المقترح . كما أشار الأستاذ لطفي عبد الوهاب الى خطأ التسمية القديمة من الجوانب العلمية والانتروبولوجية والتاريخية واللغوية الا انه لم يقدم بديلاً

---

[11] علي ، جواد ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، بغداد ١٩٤٥ ، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ .

[12] علي ، جواد ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج١ ، ١٩٦٨ ، ص ٧ .

[13] باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ط٣ ، بغداد ١٩٧٣ ، ص ٦٧ .

عنها[١٤] . وفي العام ١٩٧٨ قلنا بضرورة إبدال الاسم ، بعد ان بينا خطاه ، بمصطلح " اللغات العربية القديمة " وتسمية المتكلمين بها بالأقوام العربية القديمة ، اعتقاداً منا انه لا بد ان تضم التسمية البديلة أسم العرب ، وهم العنصر الأول والاساسيّ ، الذي عاش في شبه الجزيرة العربية ولا يزال . ولتمييزهم من العرب الحاليين ، الذين يؤلفون قسماً مهماً منهم ، وصفناهم بالقدماء ووصفنا لغاتهم بالقديمة[١٥]. وفي الأعوام التالية استخدم عدد من الباحثين العراقيين مصطلح " اللغات الجزرية و " الأقوام الجزرية " بدلاً من اللغات السامية والساميين [١٦].

وفي العام ١٩٩٩ ، أغنى المكتبة العربية الأستاذ الدكتور محمد بهجت قبيسي بكتابة القيم الذي حمل الاسم " ملامح في فقه اللهجات العربية ، من الاكادية والكنعانية حتى السبئية والعدنانية " ، اذ انه استخدم مصطلح " اللهجات العربيات " للدلالة على اللغات التي تفرعت عن اللغة الام التي كان موطنها الأول في شبه الجزيرة العربية وبذلك أطلق على كل لهجة تفرعت عن تلك اللغة الام اسمها كما ورد في

---

[١٤] عبد الوهاب ، لطفي ، العرب في العصور القديمة ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

[١٥] سليمان ، عامر ، محاضرات في التاريخ القديم ، موصل ، ١٩٧٨ ، ص ٩٨ ــ ١٠٠ .

[١٦] انظر مثلاً ، الاحمد ، سامي سعيد ، مدخل الى تاريخ اللغات الجزرية ، بغداد ، ١٩٨١ ، ص٣ .

النصوص القديمة مسبوقاً بعبارة " اللهجة العربية " فسمى الاكدية مثلاً ، اللهجة العربية الاكدية ، والآرامية . اللهجة العربية الآرامية وهكذا[١٧].

وكان آخر تسمية مقترحة هي التي قدمها الأستاذ د. خالد إسماعيل الذي عنون كتابه عن فقه هذه المجموعة من اللغات بالتسمية المقترحة ، وهي : فقه اللغات العاربة المقارن "[١٨].

وهكذا تعددت المقترحات وغدا كل باحث يستخدم التسمية التي يراها افضل من غيرها الا ان جميعهم أرادوا في التسمية البديلة ان تشير الى الموطن الأول الذي يفترض ان خرجت منه الأقوام التي تكلمت بهذه الفصيلة من اللغات ، وهو شبه الجزيرة العربية . ومع اننا قدمنا مقترحنا في العام ١٩٧٨ واننا نفضله على غيره من المقترحات ، اننا آثرنا استخدام المصطلح الذي استخدمه عدد من الباحثين العراقيين فيما بعد ، وهو اللغات الجزرية والأقوام الجزرية ، ووضعنا الى جانبه مقترحنا بين قوسين هلاليين ، رغبة في توحيد الآراء وتثبيت إحدى التسميات المقترحة علها تزيح التسمية القديمة وتبطل استخدامها [١٩].

ان من شروط التسمية الواجب استخدامها في رأينا فضلاً عما ذكر سابقاً ، ان تكون معبرة عن السكان الأوائل للمنطقة التي يفترض انها الموطن الأول الذي هاجر منه المتكلمون بمجموعة اللغات موضوع البحث ، وانتشروا في بلاد الرافدين والشام بالدرجة الأساسية . وما دام هناك شبه إجماع ان شبه الجزيرة العربية هي ذلك الموطن ، فان علينا

---

[١٧] قبيسي ، محمد بهجت ، ملامح في فقه اللهجات العربية ، دمشق ١٩٩٩ ، ص ١٢ – ١٣ .

[١٨] إسماعيل ، خالد ، فقه اللغات العاربة المقارن ، اربد ، ٢٠٠٠ ، ص ٧ – ١٠

[١٩] ينظر ، سليمان ، عامر ، اللغة الاكدية ، موصل ، ١٩٩١ ، ص ٦٨ .

ان نبحث عن الاسم الذي يمكن ان يستخدم للدلالة على سكان شبه الجزيرة الأوائل ونشتق منه اسماً يطلق على اللغات التي تفرعت عن اللغة الام التي يفترض انه تكلم بها السكان الأوائل . ان هذا الشرط يستبعد إمكانية استخدام اسم " الساميين " الذي لا علاقة له بشبه الجزيرة العربية ، كما يستبعد تسمية الجزريين ، الذي لا علاقة له باسم السكان الأوائل لشبه الجزيرة العربية ويرشح إحدى التسميات البديلة الأخرى التي ترتبط باسم سكان شبه الجزيرة وهي اسم " العاربة " الذين يمثلون اقدم سكان شبه الجزيرة العربية بحسب ما ورد في كتب الأنساب العربية واسم " العرب " الذين يمثلون العنصر الاساسيّ في شبه الجزيرة العربية منذ اقدم ورود للاسم حتى الآن [٢٠]، وكلا الاسمين مشتق من الجذر الثلاثيّ ع ر ب .

ان البحث عن أصول اسم عرب وعاربة يقودنا اى اقدم النصوص التي وردت فيها صيغة من صيغ هذا الاسم ، وهي النصوص الآشورية المسمارية ، اذ ورد في النصوص التي ترقى

---

[٢٠] معنى العرب : هناك من يرى ان كلمة العرب مشتقة من البادية والصحراء وأنها مأخوذة من مادة عرب بمعنى امحل او اجدب وهو فعل قليل الاستعمال في العديد من اللغات العاربة (باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ط ٢ بغداد ، ١٩٥٥ ، ج٢ ، ١٨٩) ، كما ان هناك من يرى ان كلمة عرب مشتقة اصلاً من جذر بمعنى " عرب " ويتبع ذلك ان أول من استخدم هذه التسمية للدلالة على الأقوام الموجودة الى الغرب منهم لا بد ان يكونوا سكان العراق القديم ، الا ان ما يبعد هذا الاحتمال ان سكان العراق القدماء أطلقوا على الأقوام القادمة من الغرب اسم امرُ amurru . كما ربط بعضهم بين مادة عرب ومادة عبر وقال ان كلاً من الكلمتين عربي وعبري مشتقة من مادة عبر بمعنى ذهب وانتقل (ولفنسون ، اسرائيل ، اللغات السامية ، القاهرة ، ١٩٢٩ ، ص ١٦٤ – ١٦٥ .

بتاريخها الى أواسط القرن التاسع قبل الميلاد تسمية تتألف من الحروف الثلاثة المذكورة انفاً للدلالة على أقوام معينة ، وعلى موطنهم الذي كان في أطراف شبه الجزيرة العربية .

لقد وردت التسمية بصيغ عدة تبعاً لتاريخ النص المسماري والأسلوب الذي اعتمد عليه الكاتب الآشوري في كتابة الأسماء الأجنبية بالنسبة له . ، وقد استخدم الكتبة الآشوريون الكتابة المسمارية ، وهي كتابة مقطعية وليست ألفبائية ، كما انها كتابة وجدت اصلاً لتدوين اللغة السومرية التي تخلو أصواتها من الأصوات الحلقية والمفخمة ، لذا خلت العلامات المسمارية من العلامات التي تعبر عن هذه الأصوات . وعندما أراد الكتبة البابليون والآشوريون كتابة مفردات او تسميات تضم اصواتاً حلقية ، اضطروا الى التعبير عنها بعلامات مسمارية خاصة بحروف علة قريبة من حيث اللفظ من الحروف الحلقية الموجودة في المفردة او التسمية ، تماماً كما نفعل حاليا لو أردنا كتابة مثل هذه المفردات في اللغة العربية بالخط اللاتيني الذي يخلو هو الآخر من الرموز المعبرة عن الأصوات الحلقية فكتب تسمية عرب بالرموز اللاتينية Arab وعمر بالرموز اللاتينية Umar وهكذا [٢١] فعل الكتبة الآشوريون عندما أرادوا ان يدونوا اسم الأقوام التي احتكوا بها اول مرة في القرن التاسع قبل الميلاد وهم " العرب " او " العاربة " . وقد اختلفت طريقة تدوينهم لاسم هذه الأقوام واسم بلادهم تبعاً لأسلوب الكاتب الذي دون النص وطريقة تعبيره عن الأسماء الغريبة عليه ،

---

[٢١] حول أسلوب تدوين الأصوات الحلقية والمفخمة بالكتابات المسمارية واللاتينية والعربية ينظر : سليمان ، عامر ، الكتابة المسمارية ، موصل ، ٢٠٠٠ .

ونظرا لان الكتابة المسمارية لا تفرق بين الحركة القصـيرة ، الفتحة والضمة والكسرة ، الحركة الطويلة ، الألف والواو والياء ، فان ما كتبه الكاتب الآشوري يمكن ان يقرا بالحركة القصيرة او الطويلة ، وعلـى النحو الآتي :

آريبي	أو	آربِ	=	aribi
أوربي	أو	أربِ	=	Urbi

واذا أعدنا الى المفردة صوتها الحلقي الذي فقدته عند التدويـن وعبر عنه الكاتب الآشوري بالعلامة المسمارية الخاصة بحرف العلـة المناسب أمكن قراءة الصيغتين آنفا على النحو الآتي :

عَربِ	أو	عاربي	آريبي	أو	آربِ	⟶	Aribi
عُربِ	أو	عوربي	أوربي	أو	آربِ	⟶	urbi

اما اسم بلاد العرب ، التي كان يقصد منها المناطق التي كـان يحكم فيها الملك او الملكة المعنية ، والتي وردت أسماؤهم في النـص المسماري ولم يكن يقصد منها كل بلاد العرب ، فقـد دونـها الكتبـة الآشوريون بالصيغ الآتية :

آربي	أو	آربِ	Arbi
آريبي	أو	آرِبِ	Aribi
آريبو	أو	آرِبُ	Aribu
آرابي	أو	آربِ	Arabi
آرابايا	أو	آربَي	arabaya

فإذا أعدنا الصوت الحلقي الذي أستعيض منه بالكتاب المسمارية بالحركة القصيرة او الطويلة ، أمكن قراءة التسميات الواردة في النصوص المسمارية على النحو الآتي :

عَرِب	أو	عاربي	aribi
عَرِب	أو	عاريبي	Aribi
عَرِبُ	أو	عاريبو	aribu
عَرَب	أو	عارابي	arabi
عَرَبَي	أو	عارابايا[٢٢]	arabaya

وللتفريق بين أسماء الأقوام واسماء البلدان ، فقد اعتاد الكتبة البابليون والآشوريون استخدام العلامات الدالة ، وهي علامات توضع غالباً قبل الاسم لتبين ماهيته ، فهناك علامة خاصة تسبق أسماء الأقوام والقبائل وهي العلامة (امِلُ) وأخرى تسبق أسماء البلدان ، وهي العلامة التي تلفظ " مُتَ " ، باللغة الاكدية [٢٣]. وقد وضعت هذه العلامات قبل التسميات المذكورة بما يتناسب ومعناها ، فكتب امِل عَرِب aribi (amel) أي : الأقوام التي تسمى عَرِب / عاربي ، وكُتب (مَت) عَرَب arabi (mat) أي بلاد العرب .

ومما يلاحظ في الصيغ المختلفة التي استخدمت للتعبير عن اسم " عَرَب " وبلاد " العرب " ان الكاتب لم يفرّق كثيراً بين التسميات

---

[٢٢] ينظر حول تفصيل هذه الصيغ وأماكن ورودها : الهاشمي ، رضا جواد ، العرب في ضوء المصادر المسمارية ، مجلة كلية الآداب ، بغداد ، ٢٢ ، ١٩٧٨ ، ص ٦٣٩ ـ ٦٨٢ .

[٢٣] سليمان ، عامر ، الكتابة المسمارية ، ص

عرب واعراب وعاربي ، وان كل صيغة من الصيغ الواردة يمكن ان تشير الى إحدى هذه الصيغ الثلاث .

ويرقى تاريخ النصوص المسمارية التي ورد فيها اسم العرب أو العاربة واسم بلادهم جميعاً الى العصر الآشوري الحديث (٩١١ ــ٦١٢ ق.م) وما بعده ويعد نص شيلمنصر الثالث (٨٥٨ ــ ٨٢٤ ق.م) اقدم تلك النصوص . الا ان ذلك لا يعني ان العرب لم يكونوا موجودين قبل هذا التاريخ ويعرفون بالاسم عينه بل ان أول احتكاك الآشوريين بهم قد بدأ عندما شاركت إحدى الممالك العربية في حلف مضاد للآشوريين في عهد شيلمنصر الثالث ، وقد أشارت النصوص المسمارية الى عدد من القبائل العربية المعروفة الا انها ذكرت أسماء القبائل فقط مثل السبئيين والثموديين والقيداريين[٢٤] .

نخلص من هذا الى ان اسم " عرب " و " عاربي " هي من اقدم الأسماء الوارد ذكرها في النصوص المدونة للدلالة على سكان الأطراف الشمالية من شبه الجزيرة العربية وعلى المناطق التي استقروا فيها لذا نرى ان اية تسمية تمثل إحدى هاتين التسميتين يمكن أن تستخدم للدلالة على سكان شبه الجزيرة العربية الأوائل على ان لا تثير التسمية أي التباس . اذ ان تسمية " العاربة " مستخدمة في كتب التاريخ وكتب الأنساب بخاصة للدلالة على قبائل معينة وهي القبائل العربية البائدة لذا نرى ان استخدام هذه التسمية للدلالة على سكان شبه الجزيرة العربية القدماء قد يثير التباساً ما تعنيه التسمية المستحدثة وما يعنيه اسم العاربة

---

[٢٤] ينظر تفصيل ذلك ، سليمان ، عامر ، هوية العرب في العصور القديمة ، في كتاب الهوية العربية عبر حقب التاريخ ، بغداد ، ١٩٧٧ ، ص ١٧ .

في كتب التاريـخ والأنساب في حيـن ان إطلاق مصطلح " العــرب القدماء " على السكان الأوائل ، الذين تفرعت عنهم القبائل العربية التـي انتشرت في بلاد الرافدين وبلاد الشام ، من اكديين واموريين وارامييـن وعرب ، لن يثير أي التباس .

اما بالنسبة الى اللغات التي تكلم بها السكان الأوائـــل وعنــها تفرعت ، كما يفترض ، مجموعة اللغات التي انتشرت في بلاد الرافدين وبلاد الشام فضلاً عن أرجاء شبه الجزيرة العربية ، فيمكن ان تســمى بأسرة " اللغات العاربة " اذ ان هذه التسمية لم تستخدم سابقاً للدلالة على لغات معينة لذلك لن تثير أي التباس لدى القارئ في حين ان تســميتها بأسرة " اللغات العربية " او " اللهجات العربية " قد يثير التساؤل عــن المقصود من هذه التسمية أهي اللغة العربية المعروفة لدينا او غيرهـا ؟ وماذا سنسمي اللغة العربية ، لغة القران الكريم ؟ وبعبارة أخرى ، فـان المقترح المقدم يذهب الى تسمية السكان القدماء ، الذين كان موطنــهم الأول شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم تفرقوا في أطرافه وأسسوا ممالك عدة ، مثل الاكديين والبابليين والآشــوريين والآرامييـن والكنعــانيين والعرب ، بالعرب القدماء ، وتسمية اللغات التي تكلموا بــها ، وهــي لغات متفرعة عن اللغة الام التي يفترض انها كانت مستخدمة في شــبة الجزيرة العربية منذ اقدم وجود العرب القدماء فيهـا ، باسم " اللغــات العاربة " ، فاللغة الاكدية هي لغــة عاربة وكذلك الآرامية والفينيقيـــة والعربية والشمالية والعربية والجنوبية وغيرها .

ان الأمل يحدونا ان يستخدم الباحثون العرب ولا سيما منهم العراقيون التسميتين المقترحتين في جميع البحوث والدراسات المقبلة فالعراقيون هم الذين نادوا منذ اكثر من نصف قرن بضرورة التوقف عن استخدام تسمية " سامية " و " ساميين " ولاسيما ان اللجان المختصة في المجمع العلمي قد فضلت هاتين التسميتين [٢٥] .

---

[٢٥] ناقشت الهيئة العامة في المجمع العلمي مقترح بيت الحكمة الخاص بتسمية السامية والساميين واللغات الجزرية وشكلت من اجل ذلك لجنة ضمت متخصصين باللغات العربية والاكدية والارامية ومتخصصين بتاريخ العرب قبل الإسلام والتاريخ الاسلاميّ وبعد مناقشات مستفيضة واستعراض لجميع التسميات المقترحة سابقاً أكدت اللجنة مقترحنا باستخدام مصطلح " العرب القدماء " للدلالة على السكان تميزاً من " العرب " في العصر الراهن واستخدام مصطلح " اللغات العاربة للتدليل على عائلة اللغات القديمة وتمييزها من اللغة العربية (عقدت اللجنة آخر اجتماع لها في ٢٧ / ١١ / ٢٠٠١) .

اكتشاف غير مسبوق حول رحلة ابن بطوطة

د. عبد الهادي التازي
عضو أكاديمية المملكة المغربية
وعضو مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي

هديتي الى سائر الباحثين والمهتمين بالرحالة العالمي المعروف بابن بطوطة الطنجي ، وذلك بمناسبة احتفال **المنظمات العالمية والمؤسسات الجامعية** ، والهيئات الثقافية مشرقاً ومغرباً بمرور سبعة قرون شمسية على ميلاده الذي كان يصادف يوم 24 فبراير 1304 (17 رجب 703) اعترافاً بالجميل لرحلته التي تعتبر أهم رحلة في تاريخ البشرية جمعاء .

المقدمة

كان أبو عبد الله محمد بن ابي القاسم محمد بن احمد **بن جزي** الكلبي **رابع أربعة** من الذين كانوا وراء ظهور رحلة **ابن بطوطة** على الساحة المغربية اولاً ثم الساحة الدولية ثانياً بعد تشجيع الوزير الأول **ابن اودرار** ، وبعد أمر العاهل المغربي السلطان **ابي عنان** .
وقد ولد بغرناطة سنة 721 = 1321 وادركه اجله بفاس يوم 29 شوال 757 = 25 أكتوبر 1356 عن عمر لا يتجاوز ستاً وثلاثين سنة .
وقد قدر لهذا الرجل ان يجتمع بابن بطوطة في غرناطة وكان يصغره عمراً بنحو ثماني عشرة سنة ، عندما زار الرحالة المغربي عاصمة

بني نصر عام 752 = 1351 (ج IV ، ص 371) (1) .

وتم ذلك في بستان الفقيه ابي القاسم محمد بن عـــاصم حيـث انتظمت نزهة جمعت عدداً من وجوه العاصمة الأندلسية ، ووجدنـــا ان ابن جزي يعرب عن ارتياحه كشاب للاستمتاع بالأخبـــار التـي كـان يرويها الرحالة الشيخ ، ولم يتردد في الاعتراف بانه قيـد عـن ابـن بطوطة في ذلك البستان ، أسماء بعض الأعلام الذين لقيهم الرحالة فـي أثناء سفره وانه استفاد منه فوائد عجيبة .

وبهذه المناسبة سال الشاب ابن جزي الرحالة عن مولده فاخبره بأنه ولد بطنجة يوم الاثنين (1) 17 رجب 703 = 24 فبراير 1304 .

كان ابن جزيٍ على هذا العهد في خدمة أبي الحجاج يوسف بن الأحمر من بني نصر ، ملك غرناطة الذي كان الحق ابن جزي ببلاطه منذ عام 741 = 1341 في أعقاب استشهاد والده في وقعة طريف في نفس العام ، اذ كان يطرب لادب الكاتب وفكاهته (2).

---

(1) تنبيه للقارئ :

يلاحظ ان الأرقام المثبتة في التعليقات التي تشير لمجلدات الرحلة وصفحاتها ، هذه الأرقـام تنطبق تماماً على ما في الطبعات الدولية لترجمة الرحلة بمختلف اللغــات ، سـواء منـها الترجمات الكاملة او الجزئية ، ابتداءً من ترجمتها وطبعتها ١٨٥٣ مـن قبـل الناشـرين الفرنسيين ديفريميري وسانكينيتي وانتهاء بنشرها باللغات الأخرى ..

(1) كان اليوم يوم الاثنين بالفعل ويـوافق 24 فبراير 1304 بحسـب جـداول كـاطنوز CATENOZ الرباط 1954 .

(2) ابن الخطيب : الإحاطة ، تحقيق عبد الله عنان 1394 = 1947 ج ١١ . المقري : **أزهار الرياض** . ج ١١١ 195 ، طبع المملكة المغربية 1398 = 1978 . ابن الحاج النمـيري : فيض العباب ، تحقيق د. محمد بن شقرون ، دار الغـرب الإسـلامي ، بـيروت 1990 . د. التازي : اكتشاف موقع الزاوية المتوكلية بظاهر مدينة فاس بحيث قدم لأكاديمية المملكة المغربية يوم الخميس 28 شعبان 1419 = 17 دجنبر 1998 .

وإذا أراد الله أمرا هيأ له أسبابه كما يقولـــون فقـد حـدث ان تعرض الكاتب ابن جزي لظلم لحقه من ملكه ابي الحجاج في أعقـــاب وشاية آثمة ، ولم يتحمل ابن جزي إهانة الضرب بالسوط ، فالتجأ الـــى فاس " مستقر الغرباء ومأوى الخائفين " على حد تعبيره (ج ١١ ، ص 138) وذلك في آخر عام ثلاثة وخمسين 1353 م حيث وجد من ابـــي عنان ما كان يرجوه .

ويذكر انه شرع ــ وهو بحضرة السلطان ــ في تأليف حـــول تاريخ غرناطة ، وان لسان الدين ابن الخطيب تلميذ والده ، وقف علـــى بعض الكراريس منه عام 755 = 1354 بمناسبته لدى السلطان أبـــي عنان عن ملك غرناطة [3]...

وعندما قرر هذا السلطان استنساخ رحلة ابن بطوطة وجعلـــها في متناول الناس ضارباً عرض الحائط برأي بعض الحسدة والمنافسين لم يجد في مجلسه افضل من الكاتب ابن جزي صاحب **الخط الرفيـــع** ، خط **ابن مقلة** ، كما نعته لسان الدين ، ولاسيما انه أي ابن جزي سبــق له على ما قلنا انه اقترب من ابن بطوطة وتعرف مذكراته عندمـــا تـــم اللقاء في بستان غرناطة [4].

---

[3] د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ، من اقدم العصور الى اليوم ، مطبعـــة فضالة ــ المحمدية 1406 = 1986 ج 2 ص 139 ، ج 7 ص 96 ، رقـــم الإيـــداع القانوني 25 / 1986 .

[4] **رحلة ابن بطوطة** : تحقيـــق د. عبد الهـــادي التازي ، نشـــر أكاديمية المملـــكة المغربية ، عام 1417 = 1997 م . رقم الإيداع القانوني 321 = 1997 .

وامتثل ابن جزي لامر سيده .... وهكذا كتب لـــه ، أي لابــن جزي ان يستمر ذكره عبر الأرجاء على الرغم من عمره القصير على ما أسلفنا ....

كان ابن جزي ــ على ما ذكره مترجموه اديباً رائعاً ، ولذلك قد كان خير من يختار لمهمة مثل هذه على ما كان يحفّ بها من مصاعب ومتاعب ...

ونحن نعلم ان التأليف أي تأليف إذا اشترك فيه اثنان ، وتوزعت فيـــه المسؤولية بين حاك وكاتب اصبح تأليفاً يحتاج الى الحيطة ... ولاسـيما اذا كان التأليف مثل هذه الرحلة التي قام بها شيخ جال فـــي أطــراف المعمور ، والتي سجل تقييداته حولها شاب يعتمد على الحكاية والنقــل ويصوغ التقاليد بأسلوبه ، ولو انه أسلوب جميل رفيع ، لكـــن تعــوزه المشاهدة والمعايشة ، علاوة على ما يثبت لنا مراجعة ابـــن بطوطــة للعمل والتدقيق مع ابن جزي حول ما كتب ، الأمر الذي لا اعتقد انـــه حصل ، فقد كان العمل أحادياً ولم يكن تعاقدياً كما يقولون ...

ومن هنا توالت بعض الانتقادات على ما روى عن الرحالة .. ابتـــدأت من عصره كما نعرف : ابن الخطيب الذي نقل عن شيخه ابي البركات البلفيقي ما لفقه على ابن بطوطة .. وابن خلدون الذي ســعى ، علـــى جلالته قدره الى الوزير ابن اودرار لينقل اليه تناجي الناس بأكاذيب ابن بطوطة آملاً في إتلاف الرحلة !![ز]

[ز] مقدمـــة ابـــن خلـــدون : طبعـــة دار الكتـــاب اللبنـــاني بـــيروت 1956 ، ص 325 – 327 ، رحلة ابن بطوطة : تحقيق د. التـــازي ، ج 4 ، ص 285 مصـــــدر سابق .

أبتدأ الانتقاد من ذلك العصر الى ان ظهرت حركة المستشرقين الذين يرجع لهم الفضل اولاً في اكتشاف مخطوطات الرحلة ، قبل ان ينتبه إليها علماء المشرق والمغرب ، وهكذا اجتذبوا زمام الفكر من مشرق حائر ومغرب مشغول بما كان يتهدده من أطماع أجنبية !

ثم انهم أي المستشرقين اخذوا ثانيا يبحثون في تمحيص تواريخ **الرحلة ويومياتها** : ما يمكن منها وما لا يمكن . وهل عندما يتحدث عن **حالة القيظ** او **حالة القر** كان يصادف فعلاً **فصل الصيف وفصل الشتاء** .... وهل عندما يذكر **يوم الاثنين** مثلاً كان يتحدث عن يوم اثنين او انه كان يتحدث عن يوم الجمعة ! وعندما يذكر الرحالة حاكماً لبلد زاره هل كان ذلك الحاكم فعلاً هو القائم بالأمر في ذلك البلد في ذلك التاريخ ؟ وهل تم له ركوب ابن بطوطة البحر أول مرة عندما اخذ المركب الى بلاد فارس عام 727 = 1327 ، كما تزعم الرواية ، (ج I ، ص 18) او إنما تم عام 730 = 1330 على ما يؤكده هو باللفظ الصريح الفصيح (ج II ، ص 158) وهل كانت المدة التي ذكرها لزيارة بقعة معينة ، بمشاهدها المذكورة ، ورجالها المعدودين مدة كافية لقضاء كل تلك الأغراض التي يذكرها ؟ وهل كانت تصادف وجود أولئك الأشخاص الذين لقيهم هناك ؟ مما يعود فيه أولئك الباحثون الى المؤلفات المعاصرة لتلك الحقبة لاستجلاء الحقيقة ؟ . الى آخر ما نحس به ونحن نتوفر اليوم على المصادر والمراجع !.

من اجل كل هذا خصصت في مقدمة تحقيقي للرحلة فصلاً بعنوان **الدراسات النقدية للرحلة** ، قصدت به ان احمل جمهور الناس على قراءة جديدة للرحلة !!...

وقد كان مما جاء في آخر هذا الفصل ، تعليقاً على " تلخيص التقييد " ــ يسمي ذلك ابن جزي ــ هذه الكلمات : ذلك التقييد الذي جمعه ابن بطوطة **قرابة ثلاثين سنة** وقام ابن جزي **بتلخيصه** في اقل من **ثلاثة شهور**[6] ... ومتى كانت هذه الحقبة كافية لتغطية تلك الأعوام **الطوال** ، واستيعاب ذلك العدد الكبير من **الأسماء الجغرافية والأعلام** الشخصية التي مرت بذاكرة الرحالة واستطاع اختزانها عبر تلك الأحقاب ؟

يقوم أحدنا في العصر الحديث برحلته في امدٍ معروف البداية والنهاية ؛ ثم لا نذكر بعد مرور بضعة أسابيع او أيام من رحلتنا ، بعض الأسماء التي مرت بنا فنأخذ في الاستنجاد برفاقنا في الرحلة ، لا فرق بين صغير وكبير ، ولا ينبئك مثل خبير !.

اعتقد ــ كما أشرت ــ ان ابن جزي كان **مستعجلاً اكثر مما** ينبغي في أداء هذه المهمة الدقيقة وربما كان ــ كما اعتقد **ايضاً** ــ مشغولاً بمشكل **صحي** قد يكون " قرحة في المعدة " وهو ما عبر عنه مترجموه بقولهم : " مات **مبطوناً** " وقد يكون سرطاناً أصابه في أعقاب الإهانة التي ظل يتذكرها وهو يجلد بالسياط من لدن ملك كان الى الأمس القريب يضحك في وجهه ، ويعطف عليه ويستأنس به !!

كان مما ينسب اليه وهو في حالة مرضه ما رواه الوليد بن الأحمر :

---

[6] اكمل ابن بطوطة رحلته الى السودان أواخر عام 753 .. وتذكر خاتمة الرحلة ان الفراغ من " **التقييد** " كان في ذي الحجة عام 756 هـ ، في حين كان الفراغ من كتبها في صفر 757 = فبراير ، ومعنى هذا ان الفرق بين زمن التقييد وزمن الكتابة كان اقل من ثلاثة شهور . .

ان يأخذ السقم من جسمي مأخذه   واصبح القوم من أمري على خطر
فان قلبي بحمـد الله مـرتبط   بالصبر والشكـر ، وتسليـم للقدر
فالمرء في قبضة الأقدار مصرفه   للبرء والسقم او النفع والضرر!!

ربما كانت تلك الظروف والصروف وراء تسـرعه وبعثرتـه للمعلومات التي " أمليت " عليه او " التقييدات " التي قدمت اليه ... بـل في **الاستغناء** كليةً عن بعض " **التقاييد** " ولا ندري ــ كما أسلفنا ــ هل كان ابن بطوطة يجلس الى جانب ابن جزي ليراجع هذا " التلخيـص " بعد تحريره ، ليعطي رأيه فيه ؟ مهما يكن ، فان الظرف القصير الـذي حدد للقيام بالمهمة كان فيه إجحاف بالمشروع ...

ولنُضيف الى " **شغل** " ابن جزي بأمر صحته عنصراً ثانياً قرأناه في أثناء الرحلة ، وهو الحسرة البالغة التي ظلت تجرح ابـن بطوطـة وهو يتحدث عن السطو الذي تعرض له في جزيرة تقع فـي المحيـط الهندي بين هَنور (HONAVAR) وفاكنور (BACCANORE) فـي ذي الحجة 745 أبريـل 1345 (ج IV ، ص 206) حيـث سـلبه القراصنة جميع ما كان يملك من جواهر ويواقيـت حتـى الثيـاب و " الزوادات " كما يقول !.

ومن المهم ان نذكر هنا انه بالرغم من القيمة المادية الهائلة لما افتقده رحالتنا في هذه **الحادثة المروعة** التي استحقت من احد الرسامين الأوربيين المهرة في القرن الماضي ان يقوم بوضع لوحة لها معبرة [7] بالرغم من ذلك انه نسي كل تلك الثروات ، وكل تلك التحف ولم يبـق

---

[7] القصد في الرسام ليون بينيت L. Benett التي اتينا على لوحته في المجلد الرابع من الرحلة (ج IV ، ص 208) .

عالقاً بذاكرته الا " التقييدات " التي كان يودع فيها معلومات عن الشخصيات العلمية التي تعرفها وعن **التصانيف** التي الفتها تلك الشخصيات ...

والطريف في هذا الحادث الكارثي بالنسبة لابن بطوطة انه لم ينتظر التعبير عن شعوره بالمضض على ضياع تلك المذكرات حتى **وصوله للحديث** عن تلك الجزر التي وقع فيه الحادث ولكن ، والمذكرات امر ذو بال بالنسبة اليه ، تعجل بذكر هذه المأساة للناسخ ابن جزي عندما كان يتحدث عن علماء بخارى وهو ما يزال في طريقه الى الهند (ج III ، ص 28 - 99 - 448 ، ج VII ، ص ٢٠٦) .

والمزعج لي في دراستي هذه انه لم يبق لدينا بعد كتب الرحلة **في صفر عام سبعة وخمسين وسبع مئة** (فبراير 1356) [8]، أقول لم يبق لنا بعد هذا ، وبعد رحيل كل من يهمه أمر الرحلة ، لم يبق بين ظهرانينا من نسأله !! . فابن جزي قتلته " الإهانة " التي كان يشعر بها ولم تتجاوز به شوال عام 757 أكتوبر 1356 ، مات وهو يذكر السياط التي كانت تصب عليه ظلماً وعدوانا كما قالوا [9]..

والوزير ابن اودرار الذي اسكت ابن خلدون فشجع ابن بطوطة على عمله ، وهو بدوره لقي مصرعه عندما هاجمته زبانية السلطان ابن عنان فصفوه في أعقاب مؤامرة يعلم الله وحده مدى صحتها ..

والسلطان ابو عنان نفسه امتدت اليه يدا وزيره حسن بن عمر الذي خنق سيده في ذي الحجة 859 = دجنبر 1385 .

---

[8] رحلة ابن بطوطة ، ج 4 ، ص 451 تعليق ١٥١ .

[9] رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ، المقدمة ص 79 ، ج I ، ص 78 .

ماتوا جميعاً هكذا تباعاً ، الواحد بعد الآخر في مدة واحدة تقريباً كما ترى ، ولم يبق معنا الا **ابن بطوطة الذي** كان في حكم الأموات ايضاً ! لا نعرف عنه وعن أسرته أي شيء ، هل تزوج ؟ وهل انجب اولاداً جدداً ؟ . لقد كان المغرب يعيش في زمن الفتن بعد تصفية الحسابات ، وكل الناس اصبحوا يلوذون بيوتهم . .

ولم يبق ممن نعرفه غير **الخطيب ابن مرزوق** الذي تمكن من الفرار بنفسه الى مصر .... وعن طريقه وصلتنا ــ من مصر ــ **آخر أخبار** ابن بطوطة الطنجي .. فهو الذي بقي مصدراً لنا حول الموضوع وهو الذي وقف الحافظ ابن حجر (تـ 852 = 1448) على تقييد بخط **ابن مرزوق** يقول فيه بالحرف على ما يرويه ابن حجر في الدرر الكامنة :

" وقرأت بخط ابن مرزوق ان أبا عبد الله بن جزي **نمقها أي الرحلة وحررها** بأمر السلطان أبي عنان ، وكان **البلفيقي رماه بالكذب فبراه ابن مرزوق** ، وقال : انه أي ابن بطوطة بقي الى سنة سبعين ، ومات وهو متول للقضاء في بعض البلاد ، قال ابن مرزوق : ولا اعلم احداً جال في البلاد كرحلته وكان مع ذلك جواداً محسناً [١٠].

وبالعودة الى (نفاضة الجراب) للسان الدين ابن الخطيب ، نجد ان القصد ببعض البلاد الى **تامسنا** وكانت عاصمتها هي (آنفا) ، الدار البيضاء الحالية [١١]...

---

(10) The Travels of Ibn Battutah , Abridged, Introduced and amotated by Tim Mackentosh – Smith , B/ CADO, London.

[١١] نفاضة الجراب : تأليف لسان الدين ابن الخطيب ، تحقيق د. احمد مختار العبادي ، القاهرة بدون تاريخ .

قلنا ان الأربعة : ابن جزي وابن اودرار وأبا عنان ومعهم ابن بطوطة قضوا جميعهم من غير ان يترك أحدٌ لنا اثراً ولا صدى حول ظروف كتب **الرحلة** سوى ما قرانا

مات المداوي ، والمداوى ، والذي

صنع الدواء ، وباعه ومن اشترى !!

وأمام المصير الذي ينتظرنا نحن الباقين ! رأيت من واجبي ان أعلن هذا الاكتشاف غير المسبوق ــ على ما اعتقد ــ إضافة الى ما سبق ان نبهت عليه في تعليقاتي على تحقيق الرحلة وخاصة في " المستدركات "[12].

هذا " الاكتشاف الذي رأيت انه لا يجوز السكوت عنه بحال من الأحوال ولاسيما بعد ان فرضت علينا تساؤلات ملحة حول ما جرى وكيف جرى ، ولاسيما ايضاً بعد ان وقفنا وقوف عين على ما يدعمه ويعززه من وثائق مخطوطة ...

كل الذين تتبعوا زيارة ابن بطوطة الأولى لسوريا لاحظوا انه ــ حسب حكايته ــ زار عدداً من المدن والجهات والمعالم والمشاهد ، سواء خارج دمشق ، بحلب مثلاً ، او داخلها ، حيث جالس فيها عدداً من العلماء والعالمات كذلك ، ونال إجازات مكتوبة منهم ومنهن ... وقرانا فيها أصداء عن " طاعون العصر " ... اكثر من هذا سنعرف انه تزوج بدمشق من سيدة تركها هناك حاملاً ، وهي التي علم ، وهو بالهند ، انها ولدت ولداً ذكراً اذ بعث الى جده للام ، وكان من **مكناسة**

---

[12] هذا كتيب صدر لي ، من طبع وتوزيع وزارة الثقافة عام 2004 وهو يتضمن (مستدركاتي) على تحقيقي لرحلة ابن بطوطة التي طبعتها أكاديمية المملكة المغربية عام 1417 هـ = 1997 م .

المغـرب ، بعـث لـه أربعين دينـاراً ذهبيـاً هنديـاً (ج IV ، ص 315 – 316)[13].

وكلنا نعلم عن تلك الحركات .... ونعلم الى جانب هذا ، مـن خلال " تلخيص " ابن جزي " لتقييد " ابن بطوطة انه أي ابن بطوطـة انما قضى بدمشق عام 726 - 1326 سوى نحو من عشرين يوماً مـن شهر الصوم : فهل كانت هذه الأيام المعدودة كافية للقيـام بكـل تلـك الحركات ؟ دخل دمشق في تاسـع رمضان وخـرج منها فـي فـاتح شوال ...؟

الى جانب هذا الإشكال ، فان الذين كانوا يناقشونه الحساب ، لم يقبلوا قط ان يزور كل تلك المواقع التي تصل الى نحو العشرين موقعـاً قبل ان يصل الى دمشق ... انهم يقولون ان زيارة ابن بطوطة لحلب لم يتم قط عام 726 ، لان الأمير ارغون [14] الذي ذكره ابن بطوطة لـم يتول الحكم بحلب الا عام 727 .

الم يقم ابن بطوطة **بزيارة ثانية** لدمشق أتاحت له القيام بكل تلك النشاطات علاوةً على ما كان يقتضيه حال الزواج ؟ صحيح انه زارهـا عام 748 = 1348 وهو في طريقه العودة للمغرب بعد غياب عشرين

---

[13] يبدو ان لهذا السيد المكناسي صلة بالشيخ عبد الواحد المكناسي المشيشي الـذي ينسب اليه جامع من اقدم جوامع طرابلس الشام ، بعد الجامع المنصوري الكبـير ، لان بناءه تم سنة 705 = 1206 = 1207 أي في أيام السلطان النـاصر محمـد بـن قلاوون الثانية ... ومما يذكر ان الشيخ عبد الواحد التقى به الرحالة المغربي فـي مدينة آسنا Latoplis في الصعيد المصري . هذا والجدير بالذكر ان هذا الولد ليس هو (احمد) الذي تركه حياً بالهند عند الامير العباسي غياث الدين عندما ذهب ابن بطوطة سفيراً للصين . وقد قال عنه : لم يعرف الله ما فعل به (جI ، ص 267) .

[14] ابن حجر : الدرر الكامنة . (ج I ، ص 374) ؛ (ج IV ، ص 192) .

سنة إذ بحث عن ابنه **من زوجته** التي تحدثنا عنها قبل قليل ... لكنه وجد ان جميع المشايخ الذين عرفهم من ذي قبل ، صاروا الى **عفو الله** جميعاً باستثناء الشيخ السخاوي الذي لم يعرف ابن بطوطة الا بعد ان قدم له نفسه وانعم فيه النظر !! (ج IV ، ص 316) .

لقد صاحبنا جميعاً ابن بطوطة بعد قضائه الحجة الأولى وانفصاله عن مكة يوم عشرين لذي الحجة 726 = (17 نونبر 1326) .

صاحبناه محطةً محطةً ، يوماً عن يوم وهو يسير صحبة أمير ركب **العراق** العرب الملقب : البهلوان (كلمة تعني البطل المغوار) .

صاحبناه الى ان وصل الى مدينة **النجف الاشرف** حيث تحدث عن روضتها وقبورها ونقيب الأشراف بها : نظام **الدين** حسين بن تاج الدين ...

وهنا ــ في النجف ــ افترق ابن بطوطة **مع الركب العراقي** اذ اخذ هذا الركب بغداد في حين اخذ ابن بطوطة طريق **البصرة** (ج II ص 16) .

وهو في البصرة قريب من المدينة التاريخية (الابلة) على عشرة أميال نراه يغتنم الفرصة ويزور الابلة (ج I ، ص 404) على متن **قارب صغير** في بساتين متصلة ونخيل مظللة عن اليمين واليسار ، والباعة في ظلال الأشجار يبيعون الخبز والسمك واللبن والفواكه على ما تحكيه الرحلة (ج I ، ص 404) ...

هنا تفاجئنا رواية الرحلة ، على ما " ينمقه ويحرره " ابن جزي **بأن ابن بطوطة كان يعتزم ان يلتحق بمدينة بغداد** التي راح اليها الركب العراقي ... لكن بعض **أهل البصرة** أشاروا عليه بالسفر الى

(عراق العجم) : فارس ، قبل ان يزور **عراق العرب** (بغداد) فعملى بمقتضى إشارتهم تقول رواية ابن جزي .

وهكذا نقرا ان ابن بطوطة **ركب البحر**[15] ، هذا العام 727 = 1327 (II ، ص 18) وعبر الى تستر في **زمن الحر** اذ أصابته حمى كما يعرض لزائر دمشق إذا زارها الإنسان زمان الحر (ج II ، ص 28) ثم **الى ايذج** التي يؤكد انه وصل اليها **أيام القيظ** ، الأمر الذي ينكره المعلقون وخاصة عميد الاستشراق التشيكي ايفان هربك (I. HRBEK)[16].

---

[15] يجب ان نلاحظ هنا ما يأتي له : من انه لم يركب البحر الا سنة 730 = 1330 اذ يقول بالحرف : " **لم اكن ركبت البحر قبلها** " ج II ، ص 158 . وكان هذا عندي **مدعاة للتساؤل** ، كما قلت في تعليقاتي بهامش الرحلة .

[16] حديث ابن بطوطة عن أيام القيظ ومبيته **في السطح في هذا الوقت** جعل الذين يتابعونه في يوميات سفره ، ذلك يتساءلون : هل كان الوقت فعلاً وقت حر ؟ وسنراه مدة مديدة من الزمن ، يصل الى اصفهان يوم 14 جمادي الاخرة 737 = 7 مايه 1737 ومعنى هذا ان ذلك الوقت لم يكن وقت حر .

IVAN HRBEK : THE CHRONOLOGY OF IBN BATTUTA TRAVEL , ARACHIV ORIENT ALIN , AKADEME PRAHA – 1962

H. GIBB :**The Travels of Ibn Battuta** , vol II , P . 289 – V. Monteil : Introduction aux voyage d ' Ibn Battuta …

ROSS E DUNN : The Adventures of Ibn Battuta – Croon Helm, London and Sydney 1986 . p . 93 – 104.

Voyage d ' Ibn Battuta Paris "Introduction et notes de Stephane Yerasimos. La decouvert , Paris 1990 . p . 40 – 390 .

د. التازي : تحقيق رحلة ابن بطوطة 1997 . ج II ، ص 30 ، تعليق 81 كذلك . ج IV ص 315-316 .

د. التازي : عميد الاستشراق التشيكي ايفان هربك ، وعطاؤه للمكتبة الاسلامية والمغربية والافريقية دراسة مقدمة الى مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الدورة 65 – مارس 1999 . وانظر تحقيق رحلة ابن بطوطة (II، ص 30) تعليق 81 (ج IV ، ص 315 – 316).

وبعد هذا يدعي الراوي ان ملك ايذج كان في عهد دخوله اليـــها كان هو (السلطان) اتابك افراسياب ، الأمر الذي دعـــا المـــترجمين الناشرين الفرنسيين الأولين (D. S.) الى اختراق الخط على الراوي في أثناء ترجمتهما ، ليطلبا الى القراء : ان يقرؤوا : نصـــرت الدين شاه أحمد عوض افراسياب الذي لم يصعد كرسي الحكم الا عام 1339 [17].

ثم الى مدينة اصفهان . وهنا تقول الرواية : خلع قطب الديـــن حسين شيخ زاوية ابن سهل تلميذ الجنيد ، على ابـــن بطوطـــة جبـــة وقلنسوةً ظلتا محل اعتزاز ابن بطوطـــة (ج II ، ص 49) ، وكـــان اليوم يصادف الرابع عشر لجمادى الآخـــرة ســـنة ســـبعة وعشـــرين وسبعمائة (7 مايه 1327) الأمر الذي سنراه يصطدم بالمعلومـــة المهمة التي وقفنا عليها بخط يد ابن بطوطة وهو في دمشق فـــي هـــذا التاريخ بالضبط على ما سنرى ، وما كان حديثاً يفترى [18]..

ومن اصفهان قصد شيراز التي يقارنها بدمشـــق ... وبعـــد ان يحكي عن بعض مشاهدها ينتقل الى كازرون والزيديـــن والحويـــزاء

---

[17] لاحظ كل الباحثيـــن في التاريـــخ الذين علقـــوا على هذه المعلومـــة من فرنســـيين وبريطانيين وتشيكيين وغيرهم ، ان ابن بطوطة اختلط عليه الأمر : ان اتـــابك افراســـياب Afraciab كان يحكم هذه المنطقة بعد عشرين سنة من هذا التاريخ ! أي عند عودة ابـــن بطوطة الى بلاده 748 اما الذي كان يحكم ايذج على عهده فهو نصرت الدين احمد الـــذي توفى عام 733 – 1333 . انظر التعليق قبل هذا ، وانظر رحلة ابن بطوطـــة تحقيـــق د . التازي ج II ، ص 31 . التعليق 82 .

[18] لاحظ ايفان هربك Hrbek ان هذا التاريخ يحتاج الى تعديل وتصويب بمعنـــى انه تاريخ مخطئ ، وسنلاحظ في هذا التاريخ المخطوطة التي كتبـــها بيـــده ابـــن بطوطة بدمشق عام 727 = 1327 .

(ج II ، ص 93) ثم حينئذٍ **مدينة الحلــة** [19] ثــم الى كربلاء حيــث مشهد الحسين بن علي .. ثم الى **بغداد** التي يأخذ في وصفـــــها (ج II ص 100) مقتبسا من **ابن جبير** التي كان زارها قبل اجتياح المغــول لها (656 = 1258) على ما أشار اليه ابن بطوطة ، الذي اخبرنـــــا بخراب المدارس (ج II ، ص 105) ، واخبرنا كذلك انه لقـــي بـــها مسند العراق سراج الدين **القزويني** الذي اخذ عن الشيخة فاطمة بنـــت الملوك وتم هذا اللقاء في شهر رجب عام **سبعة وعشرين وســـبعمائة** (يونيه 1327) وذلك في جامع الخلفاء [20].

وبعد هذا الحديث عن تاريخ بغداد وسلطان بغداد يعود الرحالة الى ما كان بسبيله فيذكر ــ بحسب الكاتب ابن جزي ــ ان نفسه تعلقت بالسفر مع محلة السلطان ابي سعيد بهادور الى عراق العجم ليقف على " الترتيبات " التي تجري بمناسبة حركة السلطان [21]... ولكن من غــير **ان يذكر تاريخاً للقيام بهذه الحركة** ، ومن غير ان يذكر محطــةً مــن المراحل التي عودنا ذكرها وكأنه اخذ طائرة على ما قلته في تعليقاتي .

وكل ما عرفناه عن هذه الرحلة مع السلطان ابي سعيد ان ابــن بطوطة اغتنم هذه الفرصة فتقدم ، بمساعدة الأمير علاء الدين ، الـــى السلطان الذي سأله عن بلاده المغرب .. اذ اعلم الأمير عـــلاء الديــن

---

[19] تحدثت الرواية هنا عن صحراء اعترضت طريق ابن بطوطة ويلاحظ هربــك (ص 434) ان خط السير كان عبر المروج ولذلك لا يفهم معنى حديث الرحلة عن صحراء بدون ماء " Waterless desert " .

[20] رحلة ابن بطوطة ، ج II ، ص 110 .

[21] حسب حافظ ابرو فان رحلة السلطان تمت أواخر **مايه أوائل يونيه** = رجـــب 727 ، يعني بعد لقاء الشيخ القزويني مباشرة . رحلة ابــن بطوطــة . ج II ، ص 129 ، تعليق 249 .

السلطان ابا سعيد بعزم ابن بطوطة على الحج مرة أخرى فأمر له السلطان بالزاد والمركوب ، وكتب الى أمير بغداد ، اذ نرى ان ابن بطوطة يعود على التو الى بغداد ليستوفى ما امر به السلطان ، وقعد ينتظر موعد ، تحرك الركب العراقي الى الحجاز .

وهنا يقول الرحالة : " وكان قد بقي لاوان سفر الركب أزيد من شهرين فظهر لي ان أسافر الى الموصل وديار بكر لاشاهد تلك البلاد واعود الى بغداد عند سفر الركب ..

ويذكر انه خرج من بغداد .. حيث نراه – وهو مولع بتقليد ابن جبير واتباع خطواته ، نراه يحذو ماراً بسامراء ، وتكريت ، الى الموصل ومن الموصل الى مدينة نصيبين ، ثم مدينة سنجار ... ثم دارا ثم ماردين [22]... قبل ان يفاجئنا بوجوده في بغداد حيث كان ركب الحاج العراقي على أهبة الرحيل ...

وهنا نلاحظ ، ايضاً على نحو ما لاحظناه في رحلته الى تبرير مع السلطان ، انه أي ابن بطوطة لم يكن حريصاً على ذكر تاريخ للوصول الى هذا الموقع او ذاك مما كان مدعاة ايضاً لتساؤل الذين يتتبعون سير الرحلة زماناً ومكاناً اذ سنقف ايضاً مع شهادة أحد الباحثين من أبناء الموصل د. جزيل الجومرد ممن كانوا يتطلعون الى " جديد " ابن بطوطة عن الموصل [23] ..

---

[22] رحلة ابن جبير ، منشورات دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان 1981 . ص 192 – 193 . ابن بطوطة (ج II ، ص 147) .

[23] د. جزيل عبد الجبار الجومرد . جامعة الموصل : رحلة ابن بطوطة الى الموصل بين الحقيقة والتأليف ..

وقد احسن زميلنا الراحل العلامة خليل الله خليلي سفير افغانستان في بغداد في كتابه (ابن بطوطة في أفغانستان) عندما استوقفته **طفرة** رحالتنا في مدينة بسطام في إيران الى قندور وبغلان في أفغانستان طاوياً يوميته لمدة تفوق الشهر [24] ..!

ولنعد بعد هذا الى تساؤلاتنا حول رحلة ابن بطوطة الى جنوبيّ فارس ؟

ماذا عن أيام **القيظ** التي تحدثت عنها الرحلة وهي أيام قرّ ؟ وماذا عن اتابك **افراسياب** الذي تحدثت عنه الرحلة مع انه لم يحكم البلاد الا بعد عشرين سنة ؟؟ وماذا عن الحديث عن **الجبة والقلنسوة** اللتين خلعتا على ابن بطوطة في اصفهان في تاريخ يصطدم بتاريخ مكتوب بخط يد ابن بطوطة يثبت انه كان في دمشق ؟

ثم ماذا عن تاريخ أول ركوب له للبحر ؟ هل عام 727 او عام 730 ؟ هذه الأسئلة التي حيرت الباحثين والمعلقين وحيرتنا معهم ؟

طوال بضع سنوات ظللت أعيش مع المتابعات ومع التقصيات الى ان بلغ علمي وجود خط الرحالة ابن بطوطة على ورقة من تأليف يتعلق بالحديث النبوي موجود بمكتبة الأزهر[25]... وكنت فعلاً **ابحث** عن خط **ابن بطوطة** لأقارن بينه وبين خط ابن جزي الذي وقع عليه الاختيار لنسخ الرحلة .

---

[24] خليل الله خليلي سفير أفغانستان في بغداد والكويت : ابن بطوطة في أفغانستان 1970 – 1971 . مطبعة الجامعة ، بغداد ــ شارع المتنبي . ص. ص 6 – 7 – 58 .

[25] عبد العزيز الساوري : ابن بطوطة لواتي ام جراوي ، مجلة : المناهل ، شوال 1420 = يناير 2000 عدد 60 ، ص 241 .

واغتنمت فرصة بوجودي بالقاهرة لحضور أعمال مجمع اللغة العربية يوم 30 \ 03 \ 2002 حيث حصلت على المخطوطة المتعلقة بالحديث النبوي ، وكانت لابي العباس احمد بن عمر الأنصاري القرطبي دفين الإسكندرية عام 656 هـ = 1358 م ، وهي بعنوان (الكتاب المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم) .

وهو يشتمل على وثيقتين كتبتا بيد الرحالة ابن بطوطة نفسها ، أولاهما بآخر المجلد الثاني وثانيهما بآخر المجلد الثالث والأخير ... وهما معاً تثبتان ــ كما أشرنا ــ انه كان مقيماً **بدمشق** في الأقل في شهر ربيع الثاني **وجمادى الأولى وجمادى الآخرة من عام سبعة وعشرين وسبعمئة** ...

هذه المخطوطة كتبها ــ كما قلنا ــ الرحالة المغربي ابن بطوطة الطنجي بخطه ، ويتأكد لي انه كانت هناك وثيقة ثالثة في اخر المجلد **الأول** لكنها ضاعت معه ! .. وهكذا وقفت على أواخر المجلد الثاني من المخطوطة ، وعلى معظم المجلد الثالث وخاصة على آخر المجلد ... وهما مما نسخه ابن بطوطة تحت **سماء دمشق** وفي إحدى مدارسها العلمية (**المدرسة العزيزية**) ولفائدة الشيخ **السخاوي** [26] الذي كانت تربطه بابن بطوطة علاقات متميزة على ما ذكره هو في الرحلة (ج I ، ص 241) .

يحمل آخر المجلد الثاني من المخطوطة الحديثية المشطورة تاريخ **أول شهر** جمادى الأولى (26 مارس1327) ويحمل الثالث تاريخ 18 جمادى الآخرة من عام سبعة وعشرين وسبعمئة (727) 11 مايه 1327 ...

---

[26] ترجمة ابن مجيد في الدرر الكامنة ج III ، ص 79 .

وقبل ان أورد نص الوثيقتين اذكر بان هذا الرحالة **اخبرنا في رحلته** (ج I ، ص 222) بأنه وقف في كتاب : (**المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم**) للإمام القرطبي على معلومة تتعلق باويس القرني الأمر الذي يؤكد الصلة بين ابن بطوطة والمخطوطة موضوع الحديث . وهذا هو النص الموجود في الرحلة :

ووجدت في كتاب المفهم في شرح صحيح مسلم للقرطبي ان جماعة من الصحابة صحبهم اويس القرني من المدينة الى الشام فتوفي في أثناء الطريق في برية لا عمارة ولا ماء ، فتحيروا في أمره ، فنزلوا فوجدوا حنوطاً وكفناً وماء فعجبوا من ذلك وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ، ثم ركبوا ، فقال بعضهم : كيف نترك قبره بغير علامة ؟ فعادوا للموضع فلم يجدوا للقبر من اثر .. (ج II ، ص 222 - 223)[27]. فلنعد بعد هذه المعلومة الى الوثيقتين المكتوبتين بخط ابن بطوطة الطنجي . لقد وردت الوثيقة **الأولى** في اخر المجلدة الثانية ، ووردت الثانية بتفصيل اكثر في اخر المجلدة التالية ..

وهذا نص الوثيقة الأولى :

أنجزت المجلدة الثانية من الكتاب المفهم لشرح تلخيص كتاب مسلم بحمد الله وحسن عونه وتأييده ونصره ، يتلوه في أول المجلدة ان شاء الله **كتاب اللباس** ، وكان الفراغ منه في يوم **الجمعة ثاني جمادى الأولى** من عام **سبعة وعشرين وسبعمئة** [28] على يد الفقير الى رحمة مولاه ، الراجي عفوه وغفرانه محمد بن عبد اللــه بن محمد بن إبراهيم

---

[27] الطايع الحداوي : النص الواصف لابن جزي ، صنعته الخبرية وأنماطه الخطابية ، مجلة المناهل ، عدد 59 ، 1999 .

[28] الموافق 26 مارس 1327 .

الطنجي ، وفقه اللـــه ولطف به بمنه وكرمه ، **وجبر حاله** ، **واوصلـــه أهله** وجمع شمله على افضل حالٍ عن قريب ، انه ســـميع مجيـــب ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا ومولانا واله وازو**اجه** وذريته وسلم تسليما .

الورقة 93 من مخطوطة الأزهر (المفيد) التي كتبها الرحالة الطنجي ابن بطوطة بخط يده عام 727 هـ - 1327 م.

وهذا نص الوثيقة الثانية :

أنجزت المجلدة الثالثة من الكتاب : " المفهم لمـــا أشـــكل مـــن تلخيص كتاب مسلم " وبتمامها تم جميع الديوان ، والله المستعان ، وذلك يوم الاثنين **الثامن عشر من جمادى الآخرة** من عام **سبعة وعشـــرين وسبعمائة** [29] وذلك بمدرسة العزيزية من مدينة دمشق **المحروســـة** ، والحمد لله الذي هدانا للإسلام ، ووفقنا لكتابة سنة نبيه وحبيبه وخليلـــه

---

(29) الموافق 11 مايه 1327 .

سيد الأنام ، **والله المسؤول** ان يخلص أعمالنا ونياتنا وضمائرنا لوجهه الكريم ، وان يبقى علينا **أسماعنا وأبصارنا وقوتنا** في سبيله ، وان يعطف علينا وعلى والدينا ومشايخنا واحيائنا وأمواتنا ، وجميع المسلمين برحمته ورضوانه ورأفته وان يجعلنا ممن ينظر الى وجهه الكريم في جنته ، آمين يا رب العالمين ، كتبه العبد الفقير الى عفو ربه المستغفر من زلته وذنبه الراجي رحمة ربه محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم **بن بطوطة الجرواي الطنجي**[30] وهو بحال **غربة عن بلاده** جمع الله أموره وأحواله حامداً لله تعالى ومصلياً على رسوله صلى الله عليه وسلم تسليما .

نسخة لمالكه الشيخ الفقيه الأجل ، المدرس الأوحد ، الاسنى الأسعد ، الأتقى الاصعد ، الاشهر الأمجد ، الاظهر الاوحد ، المحقق الورع المتقن الصالح القاضي العدل الرضي الارضى ، نور الإسلام ، سيد القضاة والحكام ابي الحسن على السخاوي المالكي ، أبقى الله عزته ومكن رفعته ، وأطال إسعاده ، وبلغه في الدنيا والآخرة مراده امين يا رب العالمين ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، لا رب سواه ، ولا خير الا خيره .

---

[30] عبد العزيز الساوري : ابن بطوطة لواتي ام جراوي ، مجلة : المناهل ، شوال 1420 = يناير 2000 عدد 60 ، ص 241 .

الصفحة 336 من مخطوطة (المقفى) التي كتبها الرحالة المغربي ابن بطوطة الطنجي بخط يده في دمشق عام 727هـ = 1327م.

فكيف يفسر لنا ابن جزي بعد هذا **إهماله** لذكـــر **وجـود ابـن بطوطة في دمشق** هذه السنة 727 هـ = 1327 وصنيعه في ان ينقلنـا الى رحلة لجنوبي بلاد فارس

هاتان وثيقتان خطتهما يد الرحالة نفسه ، شهادتان معروفتـــان **بالمكان** ، محدودتان **بالزمان** كما رأينا . علاوةً إلى وثيقة ثالثة كـــانت بآخر المجلدة الأولى التي لم نعثر عليها .

لقد خلق صنيع ابن جزي **طائفـــة مـن المشـكلات للبــاحثين والمتعقبين** الذين وجدوا ، على ما أسلفنا ، ان الأشخاص المذكورين من لدن ابن بطوطة عام **727 هـ = 1327 م** لم يكونـــوا علـــى ارض الواقع آنئذٍ ، وانما أتوا فيما بعد . مشكلاتهـم وهم يشعرون ان شكوى

ابن بطوطة من حالة القيظ لم يكن لها ما يبررها لان الفصل كان فصل قرّ وبرد .

مشكلات الناشرين الأولين للرحلة منذ عام 1858 عندما كانـــا مضطرين لكي يخترقا ترجمة النص ويطلبا الى القـــارئ ان يصحـــح الخطأ ويقرا (نصرت) عوض (افراسياب) على ما أسلفنا ..

مشكلات الباحثين ، وفي صدرهم (هربك) الــــذي وجــد ان حديث الرحلة عن الصحراء التي قطعها ابن بطوطة في المنطقة حديـث يحتاج الى تفسير لانها ، أي الرحــلة ، كـــانت علـــى ارض تـــزدان بالمروج . لقد وجدنا أنفسنا اما حديث ابن بطوطة عن **ركوبـــه البحـــر** أول مرةً عام 730 = 1330 وليس عام 727 = 1327 وهكذا ازددنـــا إقتناعاً **بان رحلته** لفارس كانت من تأليف ابن جزي رحمه الله .

لقد اقتنعت ولاسيما بعد وقوفي على المخطوطة التي كتبها بيـده بدمشق عام 727 هــ 1327 بان الوقائع التي جرى ذكرها انما عرفتها **سنة لاحقة أتت** بعد عشرين عاماً [31].

لقد كنت من الذين نشروا ، منذ عشرين عاماً (1984) ان ابن بطوطة زار (عراق العجم) خمس مرات وعددت منها هذه الزيـــارة عام 727 هــ موضوع الحديث [32]. لكني بعد ان وقفت على مخطوطة

---

[31] القرطبي : كتاب المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم عن نســخة نــادرة بخط الرحالة ابن بطوطة ، تقديم د. التازي (تحت طبع من لدن وزارة الأوقـــاف والشؤون الإسلامية 1425 = 2004)

[32] د. التازي : إيران بين الأمس واليوم : قراءة جديدة لرحلة ابن بطوطة ، نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي . طبعة أولى 1404 = 1984 . ص 8 - 9 .

(المفهم) بخط يده في دمشق اقتنعت بان صنيع ابن جزي كانت تطبعه العجلة وعدم التثبت .

وهكذا نستطيع تبديد الشكوك التي كانت تحوم حول مصداقية بعض معلومات الرحلة وخاصةً ما أثير عن رحلته الأولى لدمشق ، ورحلته الى جنوبي فارس ...

ولقد حاولت ان أتصور مع نفسي ظروف تلخيص الرحلة على النحو الآتي :

بعد ان صدر أمر السلطان أبي عنان ، وبعد ان **أملى الشيخ** ابن بطوطة ما أملى من مذكراته ، قام بتسليم " **تقاييده** " الى الكاتب ابن جزي ... وكان في " التقاييد " ما يتعلق ببلاد الحجاز ، وفيها ما يتعلق **ببلاد الشام** ، ومنها ما يتعلق بالهند . الخ ... فاخذ ابن جزي يجمع معلومات **مكة** على حدة من غير بحث في ترتيب تواريخ الزيارات **السبع** ومن ثمت وجدنا انه يذكر **في الحجة الأولى** ما رآه او سمعه في الحجات اللاحقة !!

وكذا كان في بلاد الشام ، جمع الكاتب ابن جزي كل ما يتعلق بالشام ودمشق دفعة واحدة ولو ان بعض ذلك وقع فيما بعد .. وهكذا اختلطت بعض الملفات على ابن جزي ، واخذ بآخرها عوض أولها ..

اقتراحي اخيراً .. ان نؤجل تحرك ابن بطوطة الى بلاد فارس عام 727 = 1327 ، ونجعل عوض ذلك انه **عاد من البصرة الى بغداد حيث قام ، بعد وصفه** لعاصمة العباسيين ، بالرحلة لدمشق ، التي كان يبررها اكثر من سبب بالنسبة إليه ..

اولاً : لما علمناه من ان ابن بطوطة له زوجة بدمشق ستأتي له بولد ، كان يبعث له بمساعدات مالية من الهند على ما يقوله الرحالة نفسه (ج IV ، ص 316) ..

ثانياً : لما علمناه من نشاطه العريض الطويل في دمشق ، حيث اخذ على الشيوخ والشيخات وحصل الإجازات المكتوبة ..

ثالثاً : وهكذا بيت القصيد ، انه حرر بذات يده ـ وبدون شك او ريب ـ **مخطوطة عظيمة ألفها رجل عظيم** ، **ورغب في نسخها رجل عظيم** في مكان معروف ووقتٍ محدود .. وهي ما تزال لحسن الحظ حية داخل رفوف الأزهر الشريف بالقاهرة المُعّزية .

وحتى يقوم ابن بطوطة بالزيارة الثانية الى دمشق .. وحتى يرضي رغبته في ان يظل مقتدياً بسلفه ابن جبير في خطواته السابقة سواء عندما كان يريد ان يقلده في عبوره لجدة عن طريق **البحر الأحمر** او عندما كان يعتمد على نفسه في وصف المشاهد والأماكن . حتى يبقى مقتدياً بابن جبير **سلك نفس الطريق التي سلكها سلفه بالأمس للوصول** الى دمشق . وهكذا افترض انه اخذ الطريق عبر الموصل .. **الى ماردين** .. الى حلب .. الى المعرة .. الى حماة .. الى حمص .. الى **دمشق قبل ان** نسمه به في بغداد يأخذ طريقه مع الركب العراقي مرة ثانية الى حج بيت الله ..

لقد كانت مأخذي على الكاتب ابن جزي رحمه الله تقف عند عدم بذل جهده في ان **يجتنب استطرادات** الشيخ ، ويضم ما يتعلق بالهند الى الحديث عن الهند (ج I ، ص 422 – 426) ، ويذكر ما يتعلق بسيلان في سيلان (ج II ، ص 80) ، كان مأخذي على ابن جزي

في انه كان مختصراً بل مستعجلاً اكثر من اللازم ، فقد نسي الحديث عن الأمير هريب الذي وعدنا بذكره (ج IV ، ص 68) .

لقد كان مأخذي عليه انه نقل عن رحلة العبدري الحيحي بالحرف ، ولكنه لم يذكره ..

لكن المأخذ الكبير والخطير تجلى لي عندما وجدنا ان رحلةً بكاملها لجهةٍ معروفة مهمة بالنسبة للرحالة ، **تحذف لتعويضها رحلة أخرى** الى جهةٍ لم يصدقها الواقع ..

ومع كل ذلك فان عمل الكاتب ابن جزي سيظل شاخصاً أمامنا وسيظل جهد الرجل ، بالرغم من **ظروفه الشخصية** .. جهداً شامخاً يذكر على الدوام .. ولعل ما أشرنا إليه في بداية الحديث من **الازدواجية في التأليف** : مؤلفين اثنين يختلفان عمراً وتكويناً وتجربة وممارسة .. هي التي كانت وراء الخلل الذي ظهر في بعض الرحلة .. ومع كل ذلك ، فقد **حفظ** ابن جزي عمل ابن بطوطة تراثاً انسانياً محمياً مع كل زيف منذ الأيام التي سجل فيها بمدينة فاس الى يومنا هذا ، وتلك مزية كبيرة لرحلة واسعة الأرجاء ، فسيحة الفضاء ، متنوعة العطاء ، لا يوجد لها على وجه الأرض نظير ولا مثيل .

الشيخ محمد الجواد الجزائريّ
وتيسير علوم اللغة العربية

أ. د. نعمة رحيم العزاويّ
أستاذ في كلية التربية / ابن رُشد
جامعــة بغــداد

الملخص

الشيخ محمد الجواد الجزائريّ المولود في النجف عــام ١٢٩٨ هــ ، هو أحد أعلام العراق في القرن العشرين في اللغة العربية والفقه والفلسفة ، وهو مجاهد كبير من مجاهديه الذيـــن قـــارعوا الاحتـــلال البريطانيّ ، ومنشئ أول جمعية سرية في العراق عملت علـــى طـــرد الإنجليز وهيأت لثورة العراق الكبرى عام ١٩٢٠ .

لقد ضاق الإنجليز ذرعاً بهذا العالم الثائر ، فطاردوه وحكمـــوا عليه بالإعدام ، ثم أبدلوا هذا الحكم بالسجن والنفي ، ولم يشغل الشـــيخ الجزائري نشاطه السياسي عن مواصلة الدرس والتدريس ، فألف جملـة مصنفات في الأصول والفقه والفلسفة ، كما ان له ديوان شعر أيضاً وقد طبع باسم (ديوان الجزائري) ، وله (حل الطلاسم) ردّ فيـــه علـــى (طلاسم) ايليا أبي ماضي . توفي الشـــيخ الجزائـــري فـــي الثـــالث والعشرين من نيسان عام ١٩٥٩ م .

وكان للشيخ الجزائري مشاركة في دراســة علـــوم العربيـــة ، ولاسيما (النحو) وقد اختارته وزارة المعارف العراقية عــام ١٩٣٨ م لدراسة مقترحات لجنة الفتها وزارة المعارف المصرية لتيسير علـــوم

العربية ومنها النحو ، ثم وزعت هذه المقترحات على الحكومات العربية ومنها العراق لاخذ رأي علمائها في تلك المقترحات .

لقد انتدبت الحكومة العراقية يومذاك العلامة الشيخ محمد الجواد الجزائري للنظر في هذا المشروع الخطير ، واعطاء الرأي فيه ، وستجدون في هذا البحث عرضاً لمقترحات وزارة المعارف المصرية ، ولرأي الشيخ الجزائري فيها ، ثم تجدون مناقشة الباحث لكل من مقترحات اللجنة ولرأي الشيخ الجزائري فيها .

ان الهدف من هذا البحث هو إلقاء الضوء على أول محاولة رسمية عربية لتيسير علوم اللغة العربية ولاسيما النحو ، وما آلت اليه تلك المحاولة ، وما كان من رأي وزارة المعارف العراقية فيها ، ممثلاً في رأي الشيخ محمد الجواد الجزائري ، مع تحليل لرأي الشيخ ، ونقده نقداً موضوعياً . ولا شك في ان هذا البحث سيخدم من يروم معرفة تاريخ حركة تجديد النحو العربي وتيسيره في العراق والوطن العربي في العصر الحديث ، والله الموفق ، وهو الهادي الى سواء السبيل .

(١) تعريف بالجزائريّ

هو العلامة الشيخ محمد الجواد بن الشيخ علي بن الشيخ كـاظم الاسدي الجزائريّ ولد في النجف الاشرف عام ١٢٩٨ هـ ، ونشا فيها وتلقى على علمائها العلوم العربية والأصول والفقه والفلسفة .

ولم يكن الشيخ الجزائري بعيداً عن أحداث عصره ، فقد اشترك في الدفاع عن وطنه العراق ، ومدينته النجف ، عند هجـوم الإنكليز عليهما في الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٧. وكان من وجوه نشـاطه السياسي انه أسس مع رفاقه (جمعية النهضة) بعد الاحتلال البريطانيّ وكانت أول جمعية سرية في العراق ، عملت على طـرد الإنكليز ، وأشعلت ثورة النجف عام ١٩١٨ ، التي هيأت لثورة العراق الكـبرى عام ١٩٢٠ .

وقد ضاق الإنكليز ذرعاً بهذا العالم الثائر ، فطاردوه ، وحكموا عليه بالإعدام ، ثم أبدل هذا الحكم بالسجن والنفي . ولم يشغل الشـيخ الجزائري نشاطه السياسي عن مواصلة الدرس والتدريس ، فألف جملـة مصنفات في الأصول والفقه والفلسفة ، كما ان له ديوان شعر ، نظمـه في الأغراض الوطنية والاجتماعية وقد طبع باسم (ديوان الجزائـري) وله في الشعر ايضاً (حل الطلاسم) وهو مطبـوع ، رد فيـه علـى (طلاسم) ايليا أبي ماضي . توفي الشـيخ الجزائـري فـي الثـالث والعشرين من نيسان عام ١٩٥٩ [١].

---

[١] تنظر ترجمة الجزائري في (شعراء الغربيّ) لعليّ الخاقاني ٧ / ٣٥٠ النجف ١٩٥٥ وكتاب (نقد الاقتراحات المصرية في تيسير العلوم العربيـة) : (محمـد الجواد الجزائري) ٦ ، ٧ . ط ٢ ، ١٩٧٥ ، دار التراث الاسلاميّ .

(٢) تيسير علوم العربية في عصر الجزائري

بدأت في أواخر الثلاثينيات من هذا القرن ، وفي عـــام ١٩٣٧ على وجه التحديد حركة توخت تيسير علوم العربية ، ولاســـيما علـم النحو ، وكان إبراهيم مصطفى رائد هذه الحركة ، وفاتح بابها في كتابه الذائع الصيت (إحياء النحو) الذي نقد فيه النحو التقليـــدي ، ووضـــع اسساً جديدة لنحو جديد ، رأى انه اقدر على تفسير نظام الجملة العربية والكشف عن وظائف المفردات فيها ، وما اتخذت هذه الوظـــائف مـــن مظاهر إعرابية ، ظهرت على أواخر الكلمات في الجملة وتمثلت فيمـــا اصطلح عليه بالضمة والكسرة والفتحة .

لقد احدث كتاب إبراهيم مصطفى هذا ضجة واسعة ، فتناولـــه بالنقد مؤيداً او معارضاً غير واحد من الباحثين ، وكان من أصدائـــه ان الفت وزارة المعارف المصرية عام ١٩٣٨ لجنة من طه حسين واحمـد أمين وإبراهيم مصطفى وعلي الجارم ومحمد أبي بكر إبراهيم وعبـــد المجيد الشافعيّ ، للنظر في تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغـــة ، وقد قدمت اللجنة اقتراحاتها بهذا الشان ، ويمكن إجمالها فيما يأتي مـــن هذا البحث [٢].

(٣) اقتراحات لجنة وزارة المعارف المصرية

(١) وجوب الاستغناء عن الإعراب التقديري في مثـــل (الفتـــى) و (الداعي) و (كتابي) ، وكذلك الاستغناء عن الإعراب المحلـــي في الأسماء المبنية والجمل .

---

[٢] في حركة تجديد النحو وتيسيره في العصر الحديث (د. نعمة رحيم العـزاوي) ٧٦ وما بعدها . دار الشؤون الثقافية ــ بغداد .

(٢) إلغاء التمييز بين علامات الإعراب الأصلية والفرعية وعد كل منهما في موضعه اصلاً ، فليس فيها علامات نائبة عن أخرى .

وقد قسمت اللجنة الأسماء المعربة على أقسام سبعة تبعاً للعلامات التي تظهر على آخر كل منها :

أ. اسم تظهر فيه الحركات الثلاث وهو اكثر الأسماء .

ب. اسم تظهر فيه الحركات الثلاث مع مدها وهو الأسماء الخمسة .

ج. اسم تظهر فيه حركتان ضم وفتح وهو الممنوع من الصرف .

د. اسم تظهر فيه حركتان ضم وكسر وهو الجمع بالألف والتاء .

هـ . اسم تظهر فيه حركة واحدة وهي الفتح ، وهو المنقوص .

و. اسم تظهر فيه واو ونون او ياء ونون وهو المثنى .

ز. اسم تظهر فيه واو ونون أو ياء ونون وهو المجموع بهما .

(٣) تسمية ركني الجملة بـ (الموضوع) و (المحمول) وجمع أبواب الفاعل ونائب الفاعل والمبتدأ واسم كان واسم ان في باب (الموضوع) ، وجمع أبواب خبر المبتدأ وخبر كان وخبر ان في باب واحد هو(المحمول) . وذكرت اللجنة ان الموضوع مضموم دائماً إلا أن يلي (إن) أو إحدى أخواتها فيفتح والمحمول ـ ويكون اسماً ـ يضم الا ان يكون بعد كان او إحدى أخواتها فيفتح ، ويفتح ايضاً حين يكون ظرفاً ، ويكون فعلاً او مع حرف من حروف الإضافة (او الجر) او جملة ، ويكتفى في إعرابه ببيان انه محمول . والترتيب بين الموضوع والمحمول لا يلزم صورة معينة من التقديم والتأخير ، ويغلب ان يتأخر الموضوع اذا كان المحمول فعلاً في مثل (قام زيد) . وكذلك اذا كان الموضوع نكرة في (فوق المكتبة كتاب) ، وينبغي دائماً المطابقة بين

الموضوع والمحمول في التذكير والتأنيث . اما في العدد فإذا كان المحمول متاخراً لحقته علامة العدد موافقة للموضوع مثل (الرجال قاموا) ، واذا كان المحمول متقدماً لم تلحقه مثل (قام الرجال) . وعلامات العدد في المحمول هي واو الجماعة كما في المثال السابق ، ونون الإناث في مثل (الطالبات انصرفن) ، وألف التثنية للإناث والذكور مثل (هما قاما) و (هما قامتا) ، وكذلك تاء الواحدة في مثل (هند قامت) . وقضت اللجنة بان الضمائر في الأمثلة السابقة إنما هي إشارات للعدد ، كما قال المازنيّ ، لا ضمائر . ولم تعرض اللجنة لباب (كاد وأخواتها) ، وعرضت لباب (ظن) ورأت رده إلى باب المفعول به .

(٤) إلغاء ضمائر الرفع المستترة جوازاً أو وجوباً في الماضي والأمر والمضارع ، مع عد أحرف المضارعة إشارات إلى الموضوع أغنت عنه ، أما الضمائر البارزة المتصلة فان كانت للغائب فهي ــ اتباعاً للمازنيّ ــ إشارات للعدد لا للضمائر ، أما في حالتي التكلم والخطاب فهي موضوع والفعل قبلها محمول ، وإذا ذكر معها ضمير منفصل ــ قمتم انتم ــ فهو تقوية .

(٥) عدم تقدير المتعلق العام للظرف والجار والمجرور حين يكون محمولاً وعد الظرف او الجار والمجرور نفسه هو المحمول .

(٦) رأت اللجنة طلباً للاختصار والتيسير ضم عدد من الأبواب تحت اسم واحد ، فضمت المفاعيل الخمسة والحال والتمييز وكل ما يذكر في الجملة غير الموضوع والمحمول تحت اسم (التكملة) ، ثم عادوا وجعلوا للتكملة اغراضاً بحسب تلك الأنواع التي يدرسها النحو التقليدي كلاً على حدة .

(٧) وضعت اللجنة مصطلح (أساليب) لتجمع تحته مجموعة من التراكيب وصفتها بانها أنواع من العبارات تعب النحاة في تخريجها وإعرابها على قواعدهم مثل (التعجب) و (التحذير) و (الأغراء) . ورأت اللجنة أن تدرس هذه على انها أساليب يبين معناها واستعمالها ويقاس عليها . اما إعرابها فسهل:(ما احسن) : صيغة تعجب ، والاسم بعدها متعجب منه مفتوح . (أحسِنْ) : صيغة تعجب ايضاً والاسم بعدها مكسور مع حرف الإضافة ، وان توجه العناية في درس هذه الأساليب الى طرق الاستعمال لا الى تحليل الصيغ وفلسفة تخريجها .

(٨) رأت اللجنة ــ بشأن علم الصرف ــ أن اكثر مسائله من بحوث فقه اللغة التي لا يحتاج اليها البادئ ، بل لا يصل اليها فهمه كالإعلال والإبدال والقلب وتنقل الكلمة في موازين مختلفة حتى تصل الى هيئتها في النطق . وقد رأت اللجنة ان تخفف عن التلميذ عناء هذا كله ويؤخر درسه الى محله في معاهده المتخصصة باللغة وفقهها وتاريخها . واقتصرت على الأبواب من تصريف الفعل وصوغ مشتقاته وتثنية الاسم وجمعه على ان يعلم التلميذ الصيغ المختارة بالأمثلة الكثيرة ، وألا يكلف معرفة شيء مما يراه الصرفيون في أصول الكلمات وتقلبها في الهيئات المختلفة [٣].

(٩) واما البلاغة فقد رأت اللجنة بشأنها ان الأمم الحديثة قد عدلت عنها في تعليم لغاتها وآدابها عدولاً تاماً ، وان اللجنة لم تعدل عنها ولم تطلب إلغاءها وانما ردتها الى دراسة الأدب ، وجعلتها وسيلة

---

[٣] نقد الاقتراحات المصرية في تيسير العلوم العربية : ١٧٢ .

من وسائله ، وألغت منها ما لا صلة بينه وبين الحيـــاة الأدبيـــة ، وزادت عليها ابواباً بحثها النقاد القدماء في اجمال ، وفصل فيـــها المحدثون[٤].

(٤) المنحى العام لنقد الجزائري للمقترحات

حين قدمـــت لجنة وزارة المعـــارف المصرية اقتراحاتها هـــذه ، ((شاعت الوزارة المصرية تعميم هذا القرار وتوزيعه على الحكومـــات العربية لاخذ رأي علمائها ، واصحاب الشان فيه ، وانتدبت الحكومـــة العراقية العلامة محمد الجواد آل الشيخ احمد الجزائري الاسديّ للنظـــر الى هذا المشروع الخطير ، واعطاء الرأي فيه)) [٥].

وفيما يلي نص كتاب وزارة معارف العـــراق المـــؤرخ فـــي ٢٦ / ٧ / ١٩٣٨ :

((الى حضرة الأستاذ الشيخ محمد الجواد الجزائري المحترم :

بعد التحية : نرسل لكم بطيه نسخة من التقرير الذي رفعته لجنة النظر في تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة المؤلفة بقـــرار مـــن وزارة المعارف المصرية ، والذي وجه الى هذه الوزارة لابداء رأيـــها فيه ، لما لهذا الموضوع من علاقة كبيرة بمعاهد التعليم فـــي الأقطـــار العربية كافة .

ولما كانت هذه الفكرة الجليلة ترمي الى تيسير قواعد اللغة العربية على المتعلمين ، وإزالة المتاعب القائمة في سبيل تعليمها ، لذلـــك يرجـــى

---

[٤] نفسه : ١٦٣ ، ١٦٤

[٥] نفسه : ٨ .

إفادتها بما ترونه في التقرير المذكــور فــي الحســنات والمحــاذير ، وموافاتنا برأيكم في الموضوع . تفضلوا بقبول فائق الاحترام)) .

وقد وقع الكتاب مدير التدريس والتربية . وغني عن البيــان ان تحكيم وزارة المعارف العراقية يومئذٍ الشيخ الجزائــري ، فــي هــذا الموضوع الخطير ، يدل على رفعة مكانة الشيخ في علــوم العربيــة ، ورسوخ قدميه في تراثنا اللغوي والنحويّ . والذي يتأمل نقد الجزائـري لاقتراحات لجنة وزارة المعارف المصرية الذي طبع مرتيــن بعنــوان (نقد الاقتراحات المصرية في تيسير العلوم العربية) ، مرة في حيــاة المؤلف ، وأخرى بعد وفاته عام ١٩٧٥ ، يجد ان المنحى العــام لــهذا النقد يتجلى في النقاط الآتية :

(١) الربط بين علوم العربية وقضية الحفاظ على اللغة من جهة وبينها وبين فهم القران الكريم من جهة أخرى ، فتيسير علوم العربية فــي رأي الشيخ الجزائري ((شذوذ عن الصواب وهدم لكيانها))[٦] أي اللغة .

(٢) الاعتقاد بان علوم العربية ، ولاسيما النحو ، هي (صَنْعَة) قائمة على أصول راسخة ، ومعتصمة بحدود ومعالم مكينة ، لا ســبيل الى إعادة النظر فيها ، او الاقتراب منــها بتحويــر او تغيــير ، فأصولها اصح الأصول ، وأسسها أقوم الأسس ، وان إســقاط أي اصل من أصول هذه الصناعة ، تقويض للأهداف التــي توخيــت منها ، وتفويت على طالبها ضالته .

---

[٦] نقد الاقتراحات المصرية في تيسير العلوم العربية : ١٦

(٣) الاعتقاد بان دراسة هذه العلوم ولاسيما البلاغة ، بكامل جزئياتها وعلى الصورة التي ورثناها عن السلف ، من شانه ان يغرس في نفوس الدارسين ملكة البيان ، ويجري العربية على ألسنتهم وأقلامهم بليغة مشرقة ومعنى ذلك انه كان يرى ان دراسة علم البيان ((من حيث انه علم والوقوف على مسائله في بحوثه ، من دون أي مسامحة في أي خصوصية من شخصيتها))[٧] هو السبيل الى تحصيل ((ملكة البليغ العارف بموارد التعقيد المعنوي فيجتنبها))[٨]. والمدرك ((أنواع الخطاب ، ومواقع البلاغة)) [٩]. ولعل عبارة الشيخ الجزائري الآتية تدل بوضوح على اعتقاده بان دراسة البلاغة تورث النفوس ملكتها . قال الجزائري : ((ان بحوث فن البيان ... لها قوة ذاتية تفيد دراستها من حيث انها علم معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة ، في وضوح الدلالة عليه ، وتبعث اليه ملكة يقتدر بها على تمييز الكلام السالم من التعقيد المعنوي عن (كذا) غيره ويتسنى له إذ ذاك الاحتراز عن التعقيد ، ويكون قد حصل معرفة ناحية من فصاحة الكلام وبلاغته)) [١٠].

(٤) الاعتقاد بان النحو في صورته القديمة التي وضعها القدماء ، اسهل من النحو الجديد الذي اقترحته لجنة وزارة المعارف المصرية ، ومما يمثل رأي الجزائري هذا ما ذهب إليه من رفضه

---

[٧] نفسه : ٢٠ .

[٨] نفسه .

[٩] نقد الاقتراحات المصرية في تيسر العلوم العربية .

[١٠] نفسه : ٢١ .

اقتراح اللجنة إلغاء الإعراب التقديري في الكلمات التي لا تظهر عليها الحركات كالاسم المبني والاسم المقصور والاسم المنقوص في حالتي الرفع والجر ، اذ قال : ((فاللجنة المقترحة إلغاء الإعراب التقديري يلزمها ان تؤسس اصلاً جديداً في النحو يكفل بيان أنواع الكلمات المقدر إعرابها ، وتمييزها عن (كذا)[11]غيرها وبيان أحكامها المختصة بها ، وهذا مزيد عناء على المعلم والمتعلم))[12] .

(٥) مخالفته لجنة وزارة المعارف المصرية في فهم طبيعة بعض المفردات العربية ، ، وقد تجلى ذلك في موقف الجزائري مما ذهبت اليه اللجنة حين رأت ان الواو في حالة رفع بعض الأسماء الخمسة (أبو واخو وحمو) هي ضمة ممطولة ، وان هذه الواو هي علامة الإعراب لا نائبة عن الضمة . لقد ذهب الجزائري الى ان الواو في (أبو واخو وحمو) هي حرف من حروف كل كلمة ، لا علامة إعراب ملحقة بها ، واما الألف والياء فيها فهما بدلان من الواو . واستدل على ذلك بان هذه الواو تثبت في التثنية ، اذ يقال (أبوان واخوان وحموان) ، كما ثبتت في الجمع في قول بعض العرب (ابون واخون وحمون) ، وان الجمهور يرى ان إعراب الأسماء الخمسة يكون بالحركات المقدرة على الحروف ، في حين ان الاقلين يقولون ان إعرابها بالحروف .

---

[11] الاصوب (من) .

[12] نفسه : ٤١

وواضح ان اللجنة ـ شانها في ذلك شان غيرها من النحـاة ـ كانت ترى ان استعمال الأسماء الخمسة في حالـة النقـص كقولـهم : (جاء اخُك) و (هذا حَمُك) هو الأصل لاستعمالها في حالـة التمـام (جاء أخوك) و (هذا حموك) ، ومن هنا عدت هذه الأسماء معربـة بالحركات المشبعة .

وقد أشار الجزائريّ الى ان عد الحروف في الأسماء الخمسـة حركات ممطولة في حالات الواو في الرفع والألف في النصب واليـاء في الجر غير سديد ، ذلك لان الحركات اذا مطلت فبلغت حد الحـروف عدمت كونها حركات ، او خرجت عن حدودها ، وصارت حروفـاً لا حركات . ثم نبه الجزائريّ ايضاً على ان الاسـمين (فـو) و (ذو) سيبقى كل منهما على حرف واحد ، إذا ارتأت اللجنة ان حروف المـد فيهما هي حركات إعرابية مشبعة ، وليس في العربيـة مـن الأسـماء المعربة ما هو نظير ذلك .

(٦) ومما اتسم به نقد الشـيخ الجزائـري اقتراحـات لجنـة وزارة المعارف المصرية ، بيان المواطن التي جانبت اللجنة فيها الدقـة في تعبيراتها النحوية . ومما يمثل ذلك اعتراضه على ما جعلتـه اللجنة قسماً رابعاً من أقسام الاسم المعرب وهو (اسم تظهر فيـه حركتان ضم وكسر وهو الجمع بألف وتاء) . لقد علق الجزائـري على ذلك بقوله : (والصواب تقييدهما ـ أي الألـف والتـاء ـ بالمزيدتين ، لان الجمع بالألف والتاء غير المزيدتين نحو (قضاة) و (غزاة) يجري على الأصل ، ويستوفي الحركـات الثـلاث ،

ويدخل إذ ذاك في القسم الأول من الأسماء المعربة)[١٣] وهو المتمثل في الاسم الذي تظهر فيه الحركات الثلاث ، وهو اكثر الأسماء .

ومن المواطن التي جانبت اللجنة فيها الدقة قولها : ((جعل النحاة لحركات الإعراب القاباً ولحركات البناء القاباً)) . فعلق الجزائريّ على ذلك بما رآه من ان هذا الصنيع هو رأي القليل من النحاة ، واما نسبته إليهم جميعهم فشذوذ عن الصواب [١٤].

ومن اوجه عدم دقة اللجنة في تعابيرها النحوية ما جاء في تقريرها[١٥]: ((وعلى هذا (فمحمدٌ) مرفوع و (قبلُ) مضموم و (محمداً) منصوب و (الآنَ) مفتوح)) من غير ان تدخل هذه الأسماء في تراكيب يتضح فيها إعرابها على الوجوه التي أشارت اليها . فعقّب الجزائريّ على ذلك قائلاً : ((ان قول اللجنة (محمدٌ) مرفوع و (قبْل) مضموم و (محمداً) منصوب و (الآن) مفتوح) غير متّجه لان هذه الألفاظ المذكورة مفردات ــ أي لم تجعل في تراكيب ــ والمشهور بين النحاة ان الألفاظ قبل التراكيب لا معربة ولا مبنية))[١٦]. ثم قال : ((فالتعبير الذي يتجه به تفريع هذه الأمثلة على ما تقدمها ، ان تضع اللجنة هذه الألفاظ في تراكيب تامة ، موافقة

---

[١٣] نقد الاقتراحات المصرية في تيسير العلوم العربية : ٥٠ .

[١٤] نفسه : ٥٣ .

[١٥] نفسه : ٥٣ .

[١٦] نفسه : ٥٥ ، ٥٦ .

لإعرابها وبنائها كان تقول : محمد من قولك (فاز محمدٌ) وعلى هـذا القياس تكون بقية الأمثلة))[١٧] .

(٧) إظهار قصور اقتراحات لجنة وزارة المعارف المصرية عن شمول جميع صور التراكيب العربية ، فقد أغفلت هذه الاقتراحات ــ في رأي الجزائريّ ــ انماطاً من الجمل استدركها الشيخ في نقده . من ذلك ما قررته اللجنة في موضوع ترتيب ركني الجملة اللذين سمتهما (الموضوع والمحمول) من ان (الموضوع) يغلب تأخره اذا كان نكرة او اذا كان المحمول فعلاً . لقد اظهر الجزائريّ ان (الموضوع) قد يتقدم في صور كثيرة من الكلام العربي على الرغم من انه نكرة ، ذكرها النحاة ، وليس في مصلحة المتعلم ان تزويها اللجنة عنه ، بدعوى ما قصدته من التيسير ، ومن هذه الصور ما ذكره ابن مالك في قوله[١٨]:

وقد يفيد المبتدأ منكراً مجرداً عن كل ما قد ذُكرا

نحو (امرؤ انفع لي من امرأه) و (سيف أوفى للفتى من منسأه)

وقوله في ألفيته ايضاً[١٩]:

ولا يجوز الابتدا بالنكره ما لم تفد كـ (عند زيد نمره)

و (هل فتى فيكم) و (ما خل لنا) و (رجل من الكرام عندنا)

و (رغبة في الخير خير) و (عمل برّ يزين) وليقس ما لم يقل

---

(١٧) نقد الاقتراحات المصرية في تيسير العلوم العربية : ٥٦ .

(١٨) نفسه : ٩٠ وينظر مصدره .

(١٩) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : ١ / ٢١٥ ، ٢١٦ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط ١٤

وبعد ان أورد الجزائريّ صوراً من الكلام العربي يبتدأ فيها بالنكرة قال : ((كان الحريّ باللجنة ان تذكر هذه الصور ليستفيدها المتعلم من معلمه ، ويكون بذلك متحرزاً عن الخطأ في الكلام ، وعارفاً شيئاً من صناعة النحو ، يدله على ناحية كبرى من اللغة العربية))[٢٠].

وإذا كان الشيخ الجزائريّ قد أصاب في استدراكه على اللجنة انماطاً من الجمل يزخر بها كلام العرب ، منظومه ومنثوره ، فانه لم يصب حين طالب اللجنة بسرد بعض التراكيب غير الشائعة في كلام العرب ، او غير المألوفة في مخاطباتهم ، واما في عصرنا الحاضر فانها تعد من الغريب الذي تخلت عنه العربية ، وهجره الناطقون بها . من ذلك ما قررته اللجنة في موضوع (المطابقة بين الموضوع والمحمول) من ان الموضوع اذا كان مؤنثاً كان في المحمول علامة تأنيث . وما قررته اللجنة هو الذي تجري عليه العربية القديمة ، ولا تكاد تخرج عنه الا في حالات نادرة ، عدها النحاة من الوجوه الجائزة في الكلام ، واما العربية المعاصرة فقد التزمت تأنيث المحمول للموضوع ، وربما استنكرت الإخلال به ، او الخروج عنه .

اما الشيخ الجزائريّ فقد اخذ على اللجنة إغفال هذا النادر من ترك المطابقة بين الموضوع المؤنث وما يحمل عليه ، وسرد في نقده أمثلة لما تركت فيه المطابقة من تلك الحالات التي يكون فيها الموضوع مجازي التأنيث ، فلا يؤنث له المحمول من نحو قوله تعالى : (فمن جاءه موعظة من ربه) [٢١]وقولهم : (نظر العينان) ، او الحالات

---

(٢٠) نقد الاقتراحات المصرية في تيسير العلوم العربية : ٩١ .

(٢١) سورة البقرة : آية ٧٥ .

التي يكون فيها الموضوع حقيقيّ التأنيث ، منفصلاً عن العامل بفاصل ، كقولهم : (حضر القاضي اليوم امرأة) ، وغير ذلك ، ثم قال الجزائريّ :

((فإذا عرفت هذه المواضيع المؤنثة التي لا تجب مطابقة محمولاتها لها في التأنيث عرفت خطأ اللجنة في تقريرها الأصل الذي ارتأته من وجوب إلحاق علامة التأنيث بالمحمول اذا كان الموضوع مؤنثاً . وحريّ بها ان تسلك طريقة النحاة المرسومة ، وتخص مسألتها بالموارد التي خصصتها صناعة النحو ، فتكون بذلك قد خدمت لغة العرب من ناحية صحة تراكيب الكلام ، ببيان أصولها الثابتة من طريق التتبع والسماع ، وأفادت المتعلم الفائدة التي يطلبها متعلم النحو))[٢٢].

والحق ان اللجنة لا تجهل الحالات التي يكون فيها الموضوع مؤنثاً ، ثم يجوز عدم تأنيث المحمول له ، ولكنها تعمدت إغفالها ، تخفيفاً عن المتعلمين ، ومجاراةً للغة العصر التي جرت على المطابقة بين (الموضوع) المؤنث وما يحمل عليه من فعل وغيره . ومن المفيد ان أشير هنا الى ان المطابقة بين الموضوع المؤنث (الفاعل) والمحمول (الفعل) قد حذفت من مناهج التعليم المتوسط والإعدادي منذ سنوات طويلة .

(٨) تخطئة لجنة وزارة المعارف المصرية في فهم بعض مقولات القدماء ، ويتجلى ذلك في ردّ الشيخ الجزائريّ ما ذهبت اليه اللجنة من جعل الألف والواو والنون في نحو (الرجلان قاما) و (الرجال قاموا) و (النساء قمن) علامات تدل على عدد الفاعلين وليست بضمائر ، ثم

---

[٢٢] نقد الاقتراحات المصرية في تيسير العلوم العربية : ١٠١

قررت انها تأخذ في ذلك برأي المازنيّ (القائل انها علامات لا ضمائر))[٢٣].

لقد عقب الجزائريّ على ذلك قائلاً : ان ((المازنيّ ارتأى ان الفاعل ضمير مستتر في الفعل في موارد الألف والواو والنون ..... فقال انها علامات لا ضمائر ولو لم يرَ ذلك لما وسعه ان يرتئيها علامات))[٢٤].

(٩) إظهار قصور بعض آراء اللجنة عن تمثيل جميع أحكام الكلام العربي ، والقوانين الضابطة له ، فما ذهبت إليه مثلاً من تقليل الاصطلاحات بجمع أبواب الفاعل والمبتدأ واسم كان واسم ان في باب الموضوع وجمع أبواب خبر المبتدأ وخبر كان وخبر إن في باب المحمول ((لا يكفل لصناعة النحو ــ في رأي الجزائريّ ــ الوصول الى غايتها ، لان كل باب من الأبواب التي جمعت في باب الموضوع أو المحمول له أحكام تخصه ، يعرف بها الكلام الصحيح ويتميز عن (كذا) غيره .. لان العام وان شمل الخاص لا يعرب عن خصوصيته ولا يوصلنا حكمه الى حكمه . وحريّ باللجنة متابعة النحاة في رسم الأبواب للموضوعات وتحديدها بحدودها الخاصة التي تدور عليها أحكامها الخاصة ، ليقف المعلم في بيانها موقف النحويّ ، ويوقف المتعلم اذ ذاك على جانب عظيم من معرفة لغة العرب وصناعتها)) [٢٥].

---

[٢٣] نقد الاقتراحات المصرية في تيسير العلوم العربية : ١٦٩ .

[٢٤] نفسه : ١٠٤ .

[٢٥] نفسه : ١٠٨ ، ١٠٩

(١٠) إظهار قصور اللجنة عن إدراك دلالات التراكيب ، وقد تمثل ذلك في رد الجزائريِ ما ذهبت إليه اللجنة من إلغاء فكرة استتار الضمير في الفعل في نحو قولهم : (زيد قام) فالفعل (قام) في رأي اللجنة محمول ، ولا ضمير فيه ، وليس بجملة كما يعده النحاة ، وهو مثل (قام زيد) .

لقد عقب الجزائريِ على هذا الرأي بقوله : ((إذا قصد المتكلم بكلامه إفادة المخاطبين النسبة ، ألقى الكلام مجرداً عن (كذا) أدوات التوكيد ، وعن كل ما يدل عليه ، وقدم محموله على موضوعه ، كقولك : (قام خالد) لمن لا يعرف انه قائم ...... وإذا قصد به إفادة النسبة لمنكرها أكدها ، وافادها بنحو خاص من الكلام ، وطور خصوصيته اطواراً على حساب مراتب إنكارها ، وافاد بكل خصوصية مرتبة خاصة من الإنكار ، فإذا قصد إفادة نسبة القيام الى خالد لمنكرها أول مراتب الإنكار أخر المحمول في كلامه ، وقال : (خالد قام) او (قائم) فهذا النحو الخاص من الكلام يدل بخصوصية على أول مراتب التأكيد الملائم لاول مراتب الإنكار))[٢٦]. وقال : ((فليس من الصواب ما ترتئيه اللجنة من مساواة مثل (خالد قام) لمثل (قام خالد) في خلو الفعل من الضمير المستتر لان ذلك إهمال لخصوصيات التراكيب ، وتعطيل لها في سبيل إفادة المعاني المتداولة بينهم وتضييع لما يفيده السماع في ذلك السبيل ، وخروج عن حكمة الوضع))[٢٧] .

---

[٢٦] نقد الاقتراحات المصرية في تيسير العلوم العربية : ١٢٠ .

[٢٧] نفسه : ١٢١ .

(١١) إظهار ان بعض آراء اللجنة تفوّت على المتعلم ان يمتحن صدق صناعة النحو ، وشمولها لجميع صور الكلام العربي ، وقد تجلى ذلك في ردّ الشيخ الجزائري رأي اللجنة الذاهب الى إلغاء الإعراب التقليدي لصيغتي التعجب (ما أحسنه) و (احسِنْ به) ، وعدّ هاتين الصيغتين من الأساليب التي يهتم ببيان معناها ووصف طريقة استعمالها على الوجه الذي تلفظ به .

لقد علق الجزائريّ على ذلك قائلاً : ((ان الفصول المرسومة في متون النحو بين أصول يلزم اتباعها في نظم التراكيب العربية ، وبين أساليب من الكلام تذكر لفائدة التمرين وبيان صدق الأصول النحوية عليها ، كفصل (نعم وبئس) وفصل (التعجب) وفصل (التحذير) وفصل (الإغراء) وغير ذلك ، وقد اختار النحاة فيما يفيد التمرين أساليب من الكلام يمكن فيها الاعتماد على الفكر في تعيين الأصل النحوي المندرج فيه ، لينشط المتعلم وتتأكد فائدة التمرين))[٢٨]. ثم قال : ((فلو لم نتبع في بحث أمثال هذه الفصول طريقة النحاة من توجه العناية الى شمول القاعدة النحوية لأساليبها ، واقتصرنا في البحث عنها على ما ترتئيه اللجنة من توجه العناية في درسها الى بيان المعنى وطرق الاستعمال من دون تعرض لتحليل الصيغ وتخريجها على حساب القواعد النحوية ، فاتنا ما يهمنا من فائدة التمرين وتنشيط المتعلم على استحضار الأصول النحوية في مواردها))[٢٩].

---

[٢٨] نفسه : ١٤٠ ، ١٤١

[٢٩] نفسه : ١٤١ .

(٥) مآخذ على نقد الجزائريّ

لقد كشف الشيخ الجزائريّ في نقده عن عالم بالنحو العربي في صورته التقليدية ، متضلع من دقائقها وجزئياتها ، كما تجلت في هذا النقد صورة الشيخ الجزائريّ المحافظ على هذا النحو ، الراغب في نقله الى المتعلمين ، في كل عصر ، دون مسامحة في أي اصل من أصوله او إخلال بشيء من رسومه ، مهما كلفهم ذلك من جهد ، ومهما لقوا في سبيله من عنت او نصب .

واذا كان الشيخ الجزائريّ على هذه الدرجة من إتقان النحو التقليدي والإحاطة بدقائقه وتفاصيله وبهذا المستوى من الشغف به ، والحرص عليه ، فمن الطبيعيّ جداً الا يجد في عمل لجنة وزارة المعارف المصرية ، غير شذوذ عن الصواب ، وهدم لكيان اللغة ، لان ذلك العمل دعا الى إسقاط كثير من رسوم ذلك النحو ، من اجل تيسيره وتخفيف عناء متعلميه .

لقد انطوى نقد الجزائريّ لمقترحات لجنة وزارة المعارف المصرية على ما يمثل موقفه المحافظ هذا . وهو موقف املى عليه ان يشتط على اللجنة ويتصيد المآخذ على آرائها ، وسنوضح فيما يأتي مآخذنا على نقد الجزائريّ :

(١) لم يفرق الجزائريّ بين (اللغة) و (علوم اللغة) ، وفاته ان يدرك أن اللغة مجموعة من الحقائق اللسانية التي ورثناها عن العرب ، والتي حرصت الأجيال على التزامها في كلامها المتمثل في المنظوم والمنثور ، واما علوم اللغة فهي القوانين والأنظمة التي اجتهد العلماء في استنباطها من كلام العرب ، ورأوا انها تفسر ذلك الكلام ، وتكشف

عما اعتقدوا انه الأسباب التي تقف وراء مجيئه على الصور التي جاء بها .

وكان ساطع الحصريّ قد أشار الى الفرق بين اللغة وعلومها او قواعدها وأكد ان اللغة يضعها المجتمع ، في حين ان القواعد ، او ما يعرف بعلوم اللغة عامة ((تتولد من الأبحاث التي يقوم بها العلماء ، وتتبدل بتبدل النظريات التي يضعها هؤلاء))[٣٠] .

ومن هنا فقد وهم الشيخ الجزائريّ حين رأى في نقده ان تيسير علوم اللغة معناه هدم لكيانها ، وان لعلوم اللغة هذه نفس قدسية اللغة ، فكما لا يجوز لاحد ان يمس جوهر اللغة وخصائصها بتغيير أو تبديل ، كذلك لا يجوز له ان يتناول علومها بنقد او إصلاح . ويبدو ان الجزائريّ لم يكن الوحيد الذي يهم هذا الوهم ، بل شاركه فيه عدد كبير من العلماء في عصره في العراق وغيره ، فهاجموا محاولات التيسير ، ولم تسلم من هجومهم حتى تلك المحاولات الجادة المخلصة كمحاولة إبراهيم مصطفى ومحاولة لجنة وزارة المعارف المصرية ، وكان ساطع الحصريّ ممن ردّ على هؤلاء العلماء الساخطين على محاولات التيسير ، المدفوعين الى ذلك بغيرتهم على اللغة ، ففرق ـ كما تقدم ـ بين (اللغة) و (علومها) او (قواعدها) ، وقال : ((انني لا اعترض على من يقول بوجوب التمسك بخصائص اللغة على علاتها ، غير أني أقول في الوقت نفسه ان قواعد اللغة المدونة في الكتب لا تدخل في نطاق خصائص اللغة ، فمهما تطرفنا في الأخذ بمبدأ التمسك

---

[٣٠] آراء وأحاديث في اللغة والأدب (ساطع الحصري) : ٨٥ : ط ١ ، بيروت ١٩٥٨ .

بخصائص اللغة على علاتها ، ومهما استرسلنا في الدفاع عن نظرية المحافظة على تلك الخصائص بدون تبديل وتحوير ، يجب ان نسلم في الوقت نفسه بأن ذلك لا يستلزم بوجه من الوجوه التمسك بقواعد اللغة على أشكالها الحالية ، فيجب ان نتذكر على الدوام ان هذه القواعد من وضع علماء اللغة الأقدمين ، وهي تمثل بطبيعة الحال طرق تفكيرهم في مسائل اللغة ، وأساليب استنباطهم لقواعدهم ، لذلك لا يجوز لنا ان نقبلها بدون مناقشة وتفكير ، وتصحيحها وفقاً للطرق المنطقية المتبعة في الأبحاث العلمية بوجه عام))[٣١].

(٢) لم يفرق الجزائريّ بين ما يسمى (نحو اللسان) و (نحو الفكر) وهما ضربان متباعدان من النحو ، فنحو اللسان هو الذي يخضع له المتكلم في نشاطه اللغويّ ، او هو النحو الذي يراعيه المرء اذا قرأ او تكلم او كتب ، وقد يسمى حيناً بالنحو العمليّ او التطبيقيّ او الوظيفيّ ، ولكن تسميته بنحو اللسان يضيق من دائرته ، ويجعله مقصوراً على ما يقيم اللسان باللغة ، ويعصم القلم من الخطأ بها ، او الانحراف عنها[٣٢].

واما نحو الفكر فهو لا يعني باللسان ، ولا يتجه اليه بضربٍ من التقويم والتصحيح ، وانما يخاطب العقل ، ويحاول إقناعه بصحة الفروض التي أقامها النحاة ، ومضوا يلتمسون لها الأدلة ، ويقيمون عليها الحجج[٣٣].

ونحن لا ننكر ان الفروض التي صاغتها عقول النحاة القدماء ، فأدقّت صياغتها ، وأبدعت في البرهنة عليها ، حتى أصبحت قبلة العصور

---

[٣١] آراء وأحاديث في اللغة والأدب : ٨٥ ، ٨٦ .

[٣٢] ينظر مقالي بعنوان (نحو اللسان ونحو الفكر) المنشور في قسمين في جريدة الجمهورية العراقية يومي ١١ / ٦ / ١٩٨٨ و ١٢ / ٧ / ١٩٨٨ .

[٣٣] نفسه .

جميعاً ، وموضع إعجاب الأجيال ، لا نزال نحس ان لها سحراً لا يقاوم ونجد في نفوسنا اكباراً لمن وراءها من جهابذة واعلام . ولعل هذا الشعور هو مصدر ما تلقى الفروض الجديدة من إعراض عنها ، وتقليل لقيمتها ، مع انها قد تكون أهدى سبيلاً الى فهم اللغة ، وأقوم نتائج في دراسة ظواهرها .

لقد كان الشيخ الجزائريّ ممن يؤمنون بان النحو (صناعة) يخاطب بها عقل المتعلم فيدرب على استيعاب فروض النحاة ، والاقتناع بالأدلة التي أقامها النحاة على صحة تلك الفروض ، ولم يكن يرى ان النحو وسيلة يصان بها لسان المتعلم وقلمه من الخطأ، او الانحراف عن سنن كلام العرب .

وقد افصح الجزائريّ عن نظرته هذه الى النحو في مواطن كثيرة من نقده لاقتراحات لجنة وزارة المعارف المصرية ومنها قوله : ((ان الفصول المرسومة في متون النحو بين أصول يلزم اتباعها في نظم التراكيب العربية ، وبين (كذا) [٣٤] أساليب من الكلام تذكر لفائدة التمرين ، وبيان صدق الأصول النحوية عليها ، كفصل (نعم وبئس) و فصل (التعجب) و فصل (الإغراء) وفصل (التحذير) وغير ذلك . وقد اختار النحاة فيما يفيد التمرين أساليب من الكلام يمكن فيها الاعتماد على الفكر في تعيين الأصل النحويّ المندرجة فيه ، لينشط المتعلم ، وتتأكد فائدة التمرين))[٣٥].

---

[٣٤] حذف (بين) الثانية .

[٣٥] نقد الاقتراحات المصرية في تيسير العلوم العربية : ١٤٠ ، ١٤١ .

وواضح من كلام الجزائريّ هذا انه يرى ان النحو تمرين للعقل على استحضار الأصل النحوي ومدى تمثيل الجملة العربية له ، وليس تدريباً لسانياً لاقامة نطق الطالب بالجملة على الوجه الذي نطق به العرب . وكانت هذه النظرة أهم نقطة خلاف بينه وبين لجنة وزارة المعارف المصرية ، او قل بينه وبين دعاة التيسير عامة . وقد تجلت لنا نقطة الخلاف هذه في نقد الجزائريّ عامة ، وفي موقفه خاصة مما سمته اللجنة بـ (الأساليب) التي جمعت فيها أبواب (التعجب) و (المدح والذم) و (الإغراء) و (التحذير) .

(٣) لم يفرق الجزائريّ بين ما يسمى (النحو التعليمي) الذي يقدم للمبتدئين في دراسة هذا العلم في مراحل التعليم العام ، والنحو الذي يقدم للمتخصصين بهذه المادة ، الساعين الى التبحر فيها ، والوقوف على جليلها ودقيقها ، سهلها وعويصها . وهذا ما دفع الشيخ الجزائريّ الى ردّ بعض مقترحات لجنة وزارة المعارف المصرية ، لعدم شمولها وجوهاً نحوية ، أغفلتها اللجنة عامدةً ، لأنها تعلو أفهام الطلبة في مرحلتي التعليم المتوسط والإعداديّ ، ولعل خير ما يوضح هذه المآخذ على نقد الجزائريّ ، هو موقفه من إلغاء اللجنة الإعراب التقديريّ في مثل (الفتى) و (القاضي) و (غلامي) فرأى الجزائريّ ان هذه الحالات لا تمثل جميع المواطن التي يلجا فيها الى الإعراب التقديريّ ، ولذا استدرك على اللجنة قائلاً : ((اقتصرت اللجنة في الإعراب التقديريّ على مثال المقصور والمنقوص والمضاف الى ياء المتكلم من غير إيماء الى المواضيع التي يقدّر فيها الإعراب ، وظاهر ذلك اختصاص الإعراب التقديريّ بهذه الأمور ، وليس هذا من الصواب لوجوده في الأنواع الآتية :

(أ) المُسكّن للإدغام نحو قوله تعالى[٣٦]: (وتـــرى النـــاس ســكارى) بإدغام أحد المثلين بالآخر على بعض القراءات .

(ب) المحكي بـــ (مَنْ) نحو قولك : (مَنْ زيداً) لمن قال : (رأيـــت زيداً) ووجه تقدير إعرابه اشتغال محله بحركة الحكاية .

(ج) المُسكّن الآخر للوقف نحو (جاء خالد) بسكون الدال .

(د) المُسكّن الآخر للتخفيف نحو قوله تعالى[٣٧] : (فتوبوا الى بارئكم) على قراءة من سكن الهمز .

(هـــ) المُتْبَع نحو (الحمدِ للـــه) بكسر الدال اتباعاً لكسرة لام الله[٣٨].

وواضح ان ما استدركه الجزائريّ هنا من الحالات التـي تقـدر فيـها الحركات ليس من (النحو التعليمي) وانما هي مما يمكـن ان يقـدم للمتخصصين بالنحو في الدراسات الجامعية . ومما يصلح مثـلاً لعـدم تفريق الجزائريّ بين (المادة اللغوية التعليمية) والمادة اللغوية التــي توضع بين أيدي المتخصصين ، رفض الجزائريّ ما ذهبت اليه لجنـــة وزارة المعارف المصرية ، من تأجيل دراسة (الإعلال) و(الإدغام) و (الإبدال) ، او ما سمته تقلب الكلمات في الهيئات المختلفة الى مـــا بعد مرحلتي الدراسة المتوسطة والإعدادية ، والاكتفاء من موضوعـات (علم الصرف) في هاتيـن المرحلتين بالأبــواب القياســية للأفعـال وصياغة المشتقات منها وتثنية الاسم وجمعه .

لقد علق الجزائريّ على ذلــك قائلاً : ((ان المتعلم إذا اقتصر على دراسة تقرير اللجنة ، ودرس الأبواب القياسية للأفعال ، وعرف أنـــها

---

(٣٦) الحج : ٢ .

(٣٧) البقرة : ٥٤ .

(٣٨) نقد الاقتراحات المصرية في تيسير العلوم العربية : ٣٢ ، ٣٣ .

ستة من طريق ما يختاره المعلم من الأمثلة الكثيرة ، ورأى من طريق السماع الكثير من أمثال الأجوف نحو (قال يقول) و (باع يبيع) ، وامثال المضعف نحو (ردّ يردّ) وامثال الناقص نحو (بغى يبغي) و (طغى يطغى) وتفهم عن طريق الحس ان هذه الأمثال مغايرة للأبواب الستة في الهيئة ، شكك في عدد أبواب الفعل الجارية في القياس ، واشكل عليه أمر حصرها ، وكان في عناء من الفكر في ضبط الأبواب القياسية للأفعال وفي تطبيق الأبواب الستة على أمثال الأجوف والمضاعف والناقص من الأفعال ، ولا يسعه ان يعد هذه الأمثال من الشواذ على أصول صناعة الصرف لكثرتها في اللغة العربية))[٣٩].

أرايت ؟ ان الشيخ يدعونا الى تعليم الصغار في الدراسة المتوسطة ان (قال) اصلها (قَوَل) و (باع) اصلها (بَيَع) و (رمى) اصلها (رَمَيَ) و (دعا) اصلها (دَعَو) ، وحسبك بهذا دليلاً على انه لا يفرق بين نحو المتعلمين ونحو المتخصصين .

(٤) ومما نأخذ على نقد الجزائريّ انه لم يكن على حق حين نسب التناقض الى بعض آراء لجنة وزارة المعارف المصرية . وسأكتفي هنا بمثال واحد هو ما ذهبت اليه اللجنة من ان (المحمول) قد يكون اسماً فيضم الا اذا وقع مع (كان) او إحدى أخواتها . فعلق الجزائريّ على ذلك بأنه يتناقض مع مجموعة من الأسماء التي تكون في موقع (المسند) او (المحمول) ولكنها لا تضم ، بل تكون مبنية كأسماء الإشارة والأسماء الموصولة و (أحد عشر) وأخواتها والأعلام المؤنثة على وزن (فَعالِ) كقَطامِ .

---

[٣٩] نقد الاقتراحات المصرية في تيسير العلوم العربية : ١٥٢ .

لقد فات الشيخ ان لجنة وزارة المعارف المصرية لم تغب عنـها الأسماء التي ذكرها وانما جعلتها في طائفة المبنيات التي لا تظهر عليها علامات الإعراب ، وانما تلزم حركتها التي هـــي عليـــها ، ويكتفـــى بإعرابها بان يقال عن كل منها انه (محمول) لا تظهر عليه الضمـة . ومثال ذلك قولنا (الفائزُ هذا) اذ يقال في إعرابه :

الفائز : موضوع مضموم .

هذا : محمول مبني (أي لا تظهر عليه الحركات) .

وإذا كان الأمر كذلك فأين التناقض في رأي اللجنة هذا ؟

خاتمة

اما بعد فلم يكن الشيخ الجزائريّ بدعاً من كثير ممـــن درســـوا النحو التقليديّ في عصره ، فرأوا فيه الصورة المثالية التي ليس بإمكان أحد ان ينقصها او يزيد عليها ، ولذا حين استشارته وزارة المعـــــارف العراقية بشان اقتراحات لجنة وزارة المعارف المصرية الراميـــة الـــى تيسير هذا النحو ، وتخليصه مما عقده ، ووعر سبيل دارسيه ، لم يجـد في عمل اللجنة غير شذوذ عن الصواب ، وهدم لكيان اللغة . وليـــس الشيخ بملوم على ذلك ، فبيئة النجف العلمية تختلف عن بيئة القـــاهرة يومئذٍ ، تلك البيئة التي عجت بالتغيير ، واصطبغت مناحي المعرفة فيها بالجديد . ولا بد من الإشارة هنا الى ان الجديد الذي ظهر في بعـــض مناحي المعرفة في مصر يومذاك كان بفضل احتكاك المصريين المبكر بالغرب ، واطلاعهم على مناهج القوم في التفكير . واما الجديد الـــذي

ظهر على الدرس اللغوي في مصر على يدي إبراهيم مصطفى فكـــان جديداً أصيلاً ، اهتدى اليه هذا العالم الذي لم يعبر البحر الى أوربـــا ، ولم يطلع على الفكر اللغوي الغربي ، اهتدى اليه بفضل عقل مستنير ، وحس لغوي مرهف ، ولكنه ان فاته التأثر في تجديده بمناهج الغربييــن فقد حظي بتشجيع زملائه الذين درسوا في الغرب ، وفي مقدمتهم طـــه حسين . اما التجديد الذي طرأ على الدرس اللغوي في مصـــر نتيجـة للتأثر بالغربيين فقد حدث في الأربعينيـات ، بعـد عـودة المبعوثيــن المصريين الى أوربا لدراسة اللغة هناك .

أهل الحديث والرأي العام في العراق في العصر العباسي الأول
(التوافق والخصومة)

د. ناهضة مطر حسن المياح

باحث اقدم / المجمع العلمي

الملخص

تناول البحث اثر أهل الحديث في توجيه الرأي العام في العصر العباسي الأول ، إذ تنوعت اتجاهاته بين المؤيد لاهل الحديث وهم الأغلبية والمخاصم لهم ، فضلاً عن ذلك فقد تنوعت اتجاهات السلطة السياسية التي تعبر عن رؤية الخلفاء العباسيين لما يشكله ظهور أهل الحديث كسلطة مؤثرة في الرأي العام .

التمهيـــد

ابرز ما نلمسه في المجتمع العراقي في مختلف الحقب التاريخية هي تلك السلطة التي يتمتع بها أهل الحديث في المجتمع ، اعني سلطتهم على الشعب أو عامة الناس وعلى السلطة السياسية ، على الرغم من ان اغلبهم لم يتسلموا مناصب في الدولة أو حتى لم يحاولوا أن يتقربوا لـــها رغبة منهم في الابتعاد عن إمكانية تأثيرها في مواقفهم التي كانت فـــي اغلبها تناقض أو تخالف آراء السلطة إذ يبدو أن سلطة أهل الحديث هذه إنما جاءت من خلال اتباع العامة لهم واقتناعهم ، بآرائـــهم وأفكـــارهم وذلك يتأتى من خلال كونهم (المثل) الذي يقتدى به لالتزامهم ما ورد من أحاديث وافعال عن الرسول (ﷺ) والسلف الصالح فـــي مختلـــف مجالات الحياة حتى وصفوا بأنهم " ورثة الأنبياء ".

جاء البحث ليؤكد تلك السلطة التي يتمتع بها أهل الحديـــث فـــي المجتمع العراقي في العصر العباسي الأول والتي تمكنوا مـــن خلالـــها توجيه الرأي العام وتهيئته لمواجهة التحديات الفكرية التي حاولت النيـل من الإسلام في صميم مبادئه ولاسيما تلك التي تتعلق بحديث الرســـول (ﷺ) معتقدين ان دورهم لم يكن تجاوزه بسهولة أمام أية سلطة مـــهما كان نوعها (استبدادية أو شورى .... الخ) وسنفصل في مبحث لاحق دور الفقهاء في المجتمع العراقي .

أولاً ــ مصطلح أهل الحديث

اختلفت الآراء في تحديد مصطلح أهل الحديث (أصحاب الحديث ، المحدثون) وبداية تميزه ودلالته على فئة من العلماء ، ويعود سبب الاختلاف كما يبدو الى الاختلاط بين الحديث والفقه ، إذ أن معظم العلماء كانوا يجمعون بين رواية الحديث من جهة واستنباط الأحكام الفقهية من جهة أخرى ولاسيما في القرن الأول ومطلع القرن الثاني الهجريين[1] الا انه منذ منتصف القرن الثاني ظهر التمايز بين (أهل الحديث ، المحدثين ، أصحاب الحديث) و (الفقهاء) من جهة دراستهم للحديث ، فانصرف أهل الحديث الى حفظ الحديث بأسانيده ومتونه وطرقه والتثبت من صحته ، وان كان بعضهم قد تمعن في النظر في الناسخ والمنسوخ والتواتر والآحاد التي عُدت من وظيفة الفقهاء وان تعلقت بالحديث ، في حين انصرف الفقهاء نحو استنباط الأحكام وتقعيد القواعد وهذا متصل بالحياة ومشكلات الناس واحتياجاتهم[2] ، هذا الاستقلال والتميز في عمل كل منهما هو الذي اكسبهم سمات خاصة في طريقة التفكير وبأسلوب الحياة ومكانتهم في المجتمع فاصبح أهل الحديث كتلة خاصة تمكنت من فرض آرائها على أهل الفقه ولاسيما في

---

(1) مدخلي ، ربيع هادي ، مكانة أهل الحديث ومآثرهم وآثارهم الحميدة في الدين ، مجلة الجامعة الإسلامية ، ع ٥٩ ، س ١٥ (السعودية ، ١٤٠٣) ص ٥٥ ينظر كذلك : ناهضة مطر حسن ، أهل الحديث في العراق ودورهم في الحركة الفكرية في العراق في العصر العباسي الأول ، أطروحة دكتوراه (جامعة بغداد ، كلية الآداب ، ٢٠٠٣) ص ١٠ .

(2) ابن الجوزي ، عبد الرحمن (ت ٥٩٧ هـ) مناقب الإمام احمد بن حنبل / ط ١ (دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٧٣) ص ٢٠٨ ، بشار عواد معروف ، أبو حنيفة ، بحث نشر في موسوعة الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت ، عمان ، ١٩٩٣) ص ٣١٢ .

الاستدلال بالحديث بأقسامه المختلفة وتكوين اتجاه محدد فيما يخص الرأي والقياس قياساً بالحديث [٣] حتى عَدّ احمد بن حنبل " صاحب الحديث من يستعمل الحديث "[٤].

ثانياً ــ مكانتهم

يبدو أن استيعاب أهل الحديث لاوضاع المجتمع وقدرتهم على كسب طبقات مختلفة في المجتمع ولاسيما العامة الذين تعاملوا وتحدثوا معهم على وفق عقليتهم البسيطة ، التي تتقبل الأشياء على علاتها ، إذ أن مجرد ربطها بالله ورسوله يكسبها قيمة وأهمية ، قد جعلهم قدوة في المجتمع يقلدهم الناس في أمور كثيرة ومثلاً يحتذى به ولاسيما انهم كانوا يتسمون بالتواضع والعلم والزهد [٥] وساهموا بدرجة كبيرة في مساندة الفقراء فوقفوا الى جانبهم وأنفقوا عليهم الأموال [٦] لهذا عدهم الناس مثلاً يقتدون بها ، ويقلدونها ويفخرون بها .

---

[٣] عبد المجيد محمود ، المدرسة الفقهية للمحدثين (مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٧٢) ص ١٧ .

[٤] ابن الجوزي ، مناقب الإمام احمد ، ص ٢٠٨ .

[٥] الخطيب البغدادي ، احمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ) ، تاريخ بغداد ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، ط ١ (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٧) ج ٥ ، ص ١٧٨ ، ٢٦٣٢ احمد بن حنبل .

[٦] ينظر المزي ، جمال الدين ابو الحجاج يوسف (ت ٧٤٢ هـ) تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، تحقيق احمد علي وحسن احمد اغا (دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٤) ج ١٦ ، ص ٤٥١ ، ٥٩٦٠ علي بن عبد الله .

يبدو أن قدرة أهل الحديث على توجيه الناس الذين يصفهم الخليفة المأمون : " السواد الأعظم " [٧] آثار إعجاب الكثير ، ومنهم الجاحظ الذي عَبر عن مدى صعوبة هذه المهمة بقوله : " ليس في الأرض من عمل أكد لأهله من سياسة العوام "[٨] ويعتقد ان السبب في نجاحهم هو القدرة التي امتلكوها في إثارة عاطفة الناس الدينية من خلال رواية تلك الأحاديث في التشبيه ورؤية الله تعالى .. ونزول الوحي ..... الخ .

كما شارك أهل الحديث الناس في أفراحهم وزيارة مرضاهم فرجل الحديث نجده أما في " في مسجد او حضور جنازة او عيادة مريض[٩] أو مع " أهل الدين والعلم " [١٠].

حاول أهل الحديث تحقيق المصالحة بين الفرق الإسلامية من اجل تخفيف غلو البعض منها [١١] كما توجهت أنظارهم الى معالجة ما كان يعانيه المجتمع من الفساد والظلم في أوقات متفرقة [١٢].

---

[٧] الطبري ، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم (دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٦) ج ٨ ، ص ٦٣١ .

[٨] الجاحظ ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) الحيوان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط ٢ (دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٩) ج ٤ ، ص ٢٠٦ .

[٩] ابن الجوزي ، مناقب الإمام احمد بن حنبل ، ص ٣٧٠ .

[١٠] ابو نعيم الاصبهاني ، احمد بن عبد الله (ت ٤٣٠ هـ) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ط ١ (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٨) ، ج ٩ ، ص ١٨٤ ، ٤٤٥ .

[١١] الخطيب البغدادي ، شرف أصحاب الحديث ، تحقيق محمد سعيد أوغلي (كلية الإلهيات ، انقرة ، ١٩٧١) ص ١٢٠ .

[١٢] محمد جابر عبد العال ، حركات الشيعة المتطرفين واثرهم في الحياة الاجتماعية والأدبية لمدن العراق أبان العصر العباسي الأول (مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٥٤) ص ٣٢٤ .

توضح هذه التوجهات المكانة البارزة للحديث واهله في الحياة العامة [١٣] ما أدى الى ازدياد شعبيتهم بين الناس ، حتى ان البعض كان يقلد رجل الحديث في سلوكه ، قيامه وقعوده ولباسه [١٤] .

مهدت عوامل كثيرة لجعل أهل الحديث ، في تماس مستمر مع الناس ، إذ كان اغلبهم من أهل الحرف ، متصلين بالمجتمع منهم من كان حائكاً [١٥] أو تاجراً [١٦] أو طحاناً [١٧] أو يبيع الثياب[١٨] أو من لزم السوق[١٩] وكان لذلك أثره الكبير في تولد الشعور بالانتماء لكل من أهل الحديث والعامة بعضهم البعض .

وعزز مكانة أهل الحديث بين الناس ، نظرة العامة لهم على انهم الأقدر على فهم النص القرآني والحديث النبوي والتعامل معه على وفق هذا الفهم ، مما منحهم مكانة دينية وفكرية وسياسية واجتماعية بين الناس وعلى مستوى السلطة السياسية الحاكمة آنذاك ، وان كان الأمر أثار انتقاد مناوئيهم من أصحاب العقائد الكلامية التي تعظّم من شأن العقل ومنهجه ومنطقه ولاسيما المعتزلة ، لكن ظل العنصر الحاسم في

---

[١٣] الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٨ ، ص ٦٣١ .

[١٤] الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج ٩ ، ص ١٧٢ ، ٤٧٦٣

[١٥] المزي ، تهذيب الكمال ، ج ١٦ ، ص ١٣٥ ، ٥٦٧٣ محمد بن بشار بندار .

[١٦] ابن حجر ، شهاب الدين احمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) تهذيب التهذيب ، ط ١ (دائرة المعارف النظامية ، حيدر أباد ، الدكن ، ١٣٢٥) ج ٩ ، ص ٢٦٦ ، ٤٤٢ محمد بن عبد الله الازدي الغامدي .

[١٧] الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج ٨ ، ص ٢٩١ ، ٤٣٩١ خالد بن عبد الله الواسطي .

[١٨] المزي ، تهذيب الكمال ، ص ١٣ / ص ١٠١ ، ٤٥٤٨ عفان بن مسلم

[١٩] م . ن ، ج ١٢ / ص ١٥٠ ، ٤٠٨٧ عبد الوهاب بن عطاء الخفاف .

جانب أهل الحديث ومثل سلطتهم المطلقة وهو الحديث النبوي ، إذ يبدو انهم عرفوا مديات هذه السلطة وقوتها الفكرية والدينية مما ولد عندهم الاستمرارية على الرغم من كل الظروف التي مروا بها .

ثالثاً ـ دورهم في الحياة الاجتماعية والعامة

تنوعت جهود أهل الحديث وتعددت أنشطتهم ، وانصبت تحديداً في خدمة المجتمع وبنائه والحفاظ على الدين الإسلامي وعدّوا ذلك مسؤوليتهم بالدرجة الأولى[٢٠] ولاسيما انهم واجهوا تحديات مختلفة كان مصدرها الغلاة والزنادقة والشعوبية الذين اتجهوا الى الدس والتشكيك وتحديدا في الحديث النبوي من اجل تشويه العقيدة ومبادئ الإسلام تمهيدا لضربه [٢١] . فضلاً عن ذلك فقد كان لأهل الحديث مواقف من الفقهاء واهل الكلام والقصاص سلباً وايجاباً .

---

[٢٠] ينظر السلفي ، أبو طاهر (ت ٥٧٦ هـ) المشيخة البغدادية ، تحقيق فاضل محمد الكبيسي ، رسالة ماجستير (معهد التاريخ العربي ، بغداد ، ١٩٩٦) ج ٦ ص ٢٣٨ محمد بن خازم ؛ الكيلاني ، شمس الدين ، مفاهيم حقوق الإنسان في المذاهب الإسلامية ، بحث ضمن كتاب حقوق الإنسان في الفكر العربي ، ط ١(مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٢) ص ٢٨

[٢١] أبو زهرة ، أبو حنيفة حياته وعصره ، آراؤه وفقهه ، ط ٢ (دار الفكر العربي القاهرة / ١٩٤٧) ص ١٤٨ .

١. التصدي للزنادقة والشعوبية

يُشير كُل من الجاحظ[٢٢] وابن قُتيبة[٢٣] إلى أن الشُعوبية ، توجهت نحو الإسلام من خلال الطعن بالحديث النبوي الشريف والتشكيك فيه ، يقول الجاحظ ان ذلك جاء " عن طريق الشعوبية ، فإذا ابغض شيئاً ابغض أهله .. حتى ينسلخ من الإسلام "[٢٤] وقد " يظهر الشعوبي ظرفه بتكذيب الأخبار وتهجين من نقل الآثار "[٢٥] ثم يتابع الجاحظ في وصف تحامل الزنادقة على أهل الحديث قائلاً : " فان نعت له الحسن استثقله .. وان وصف له الشعبي استحمقه .. وان قيل ابن جبير استجهله "[٢٦].

يرى ابن قتيبة ان الشعوبية " تدفع العرب عن كل فضيلة وتلحق بها كل رذيلة وتغلو في القول وتسرف في الذم " [٢٧] لذلك وجدت لها تأييداً من " السفلة والحشوة "[٢٨].

كان للسلطة العباسية من هذه الحركات اتجاهان الأول منهما

---

(٢٢) الحيوان ، ج ٧ ص ٢٢٠

(٢٣) عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) كتاب العرب او الرد على الشعوبية ضمن رسائل البلغاء ، تصنيف محمد كرد علي ، ط ٤ (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ، ١٩٥٤) ص ٣٤٤ .

(٢٤) الحيوان ، ج ٧ / ص ٢٢٠ .

(٢٥) الجاحظ ، ذم أخلاق الكتاب وهو ضمن كتاب ثلاث رسائل ، نشره يوشع فنكل ط ٢ (المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٨٢ هـ) ج ٢ / ص ١٩٢ .

(٢٦) م . ن ، ج ٢ / ص ١٩٣ .

(٢٧) كتاب العرب أو الرد على الشعوبية ، ص ٣٤٤ .

(٢٨) م . ن ، ص ٣٤٥ .

متشدد محارب لها وتمثل في مطاردتهم وقتلهم [٢٩] والموقف الثاني متسامح [٣٠] من اجل دعم سياستهم ولاسيما مع الراوندية وبعض الزنادقة [٣١].

أدرك أهل الحديث خطر هذه الحركات فعملوا على تعريف الرأي العام بهذه الجماعات ، التي كانت تعبر عن نفسها بأشكال مختلفة منها التهتك والاستهتار [٣٢] فشريك بن عبد الله يحدد علامات الزنادقة بـ " شربهم القهوات واتخاذهم القينات وتركهم الجماعات " [٣٣] ، ويبقى لاهل الحديث مفاهيمهم الخاصة في تحديد من يستحق إطلاق الزندقة عليه فقد يكون عند البعض منهم القائلين بخلق القرآن [٣٤] او

---

[٢٩] الأصفهاني ، ابو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ) الأغاني (دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٠) ج ١٢ / ص ٨١ .

[٣٠] ينظر الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٨ / ص ٨٦ .

[٣١] م.ن ، ج ٧ / ص ٥٠٧ ، الدوري ، قحطان عبد الرحمن ، الحركات الهدامة في الإسلام (دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٨٩) ص ٤٧ .

[٣٢] احمد أمين ، ضحى الإسلام ، ط ١٠(دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٣٥) ج ١ / ص ١٤٦ .

[٣٣] ابن كثير ، إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ) البداية والنهاية في التاريخ (مطبعة السعادة ، مصر ، د . ت) ج ١٠ / ص ١٥٣

[٣٤] ابو داود ، سليمان بن الاشعث السجستاني (ت ٢٧٥ هـ) ملحق في الجهمية منشور ضمن كتاب عقائد السلف ، نشره علي سامي النشار وعمار جمعة طالبي (منشأة المعارف الإسكندرية ، ١٩٧٠) ص ١٠٨

الذين يكذبون بالرؤية [٣٥] أو الكذابين في الحديث [٣٦] . وشمل الأمـــر عند احمد بن حنبل ، الذين ينتقدون أهل الحديث [٣٧] يرى شارل بلا ان " الزندقة أصبحت تطلق على جميع أنواع الإلحاد او المواقف التي تثير الارتياب " [٣٨].

واجه أهل الحديث الزنادقة والشعوبية من خلال جهودهم الكبيرة في جمع الحديث ودراسته لمعرفة الأحاديث الصحيحة من الموضوعـــة فضلاً عن وضع قواعد لجرح الرواة وتعديلهم كما وضعوا المدونـــات والمؤلفات التي ذكروا فيها آراءهم في الكثير مـــن المســائل الفقهيــة والاعتقادية فضلاً عن اهتمامهم باللغة العربية والأنساب والتـــاريخ ... الخ [٣٩].

---

[٣٥] أبو اليمن العليمي ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٩٢٨ هـ) المنهج الاحمد في تراجـم أصحاب الإمام احمد ، تحقيق رياض عبد الحميد . ط ١ (دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٧) ج ٢ / ص ٦٩ . ٢١٨ .

[٣٦] ابو يعلى ، ابو الحسين محمد (ت ٥٢٧ هـ) طبقات الحنابلة ، وقف علـــى طبعـة محمد حامد الفقي (مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٥٢) ج ١ ، ص ٩٥ . ٩٧ .

[٣٧] الحاكم النيسابوري ، محمد بن عبد الله (ت ٤٠٥ هـ) معرفة علوم الحديث ، نشـــره السيد معظم حسين ، ط ٣ (دار الآفاق ، بيروت ١٩٧٩) ص ٤ .

[٣٨] الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ، ترجمة إبراهيم الكيلاني (دار اليقظة العربيـــة للتأليف والترجمة والنشر . دمشق ، ١٩٦١) ص ٣٠٤ .

[٣٩] مدخلي ، فضـــل اهـــل الحديـــث ، مجلـــة الجامعـــة الإســـلامية . ع ١٠ ، س ١٥ (السعودية ، ١٤٠٣ هـ) ص ٢٣ .

دفع هذا الدور الكبير لاهل الحديث عبد الله بن المبارك الحنظلي الى القول " الدين لاهل الحديث " [٤٠] ويقول الشافعي " لولا المحابر لخطبت الزنادقة على المنابر "[٤١] .

٢ ـ موقف أهل الحديث من أهل الفكر :

أ ـ الفقهاء

ينبغي ان نشير الى موقف أهل الحديث من جماعتين بالغت النصوص في ذكر الخصومات التي حدثت بينهم ، الأول منهما الموقف من الفقهاء ، الذي يبدو انه كان مقتصراً في البداية على فقهاء أهل الرأي ثم اصبح عاماً بينهم وبين عامة الفقهاء فيما بعد [٤٢] ويعود السبب لاختلاف وجهات نظر الفريقين في مقدار الاعتماد على الحديث النبوي في إصدار الأحكام والقضايا إذ اعتمد فقهاء أهل الرأي على الجدل والقياس الى جانب الحديث [٤٣] أما أهل الحديث فقد تركز اهتمامهم الأول على جمع الحديث ونقله وذلك لم يمنع بعضهم من الإفتاء إذ برز فقهاء أهل الحديث ممن جمعوا الحديث والفقه واعتمدوا في ذلك على نصوص القرآن والسُّنة وما ورد عن الصحابة والتابعين

---

[٤٠] الذهبي ، محمد بن احمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ) المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال ، تحقيق محب الدين الخطيب (دار الفتح ، القاهرة ، ١٣٧٤) ص ٤٨٠ .

[٤١] المزي ، تهذيب الكمال ، ج ٣ / ص ٣٩٥ ، ٩٢٣ الشافعي .

[٤٢] عبد المجيد محمود ، المدرسة الفقهية للمحدثين ، ص ٩٢ .

[٤٣] م . ن ، ص ٩٣ .

هؤلاء قد يتوقفون في الفتيا إذا لم يجدوا نصا بقولـــهم (لا ادري)[٤٤] وبعضهم مثل احمد بن حنبـل كـان يفضـل الحديـث المرسـل والضعيف على القياس [٤٥] واصبح لهؤلاء مواقف مختلفة من الـرأي واستخدامه [٤٦].

تأرجح موقف أهل الحديث من الرأي في القرن الثاني الـهجري والأخذ به فمنهم من روى الحديث والفقه على أبي حنيفة واصحابه مثل هشيم بن بشير[٤٧] ووكيع الجراح ويحيى بن سعيد القطان [٤٨] ويزيد بن هارون[٤٩] وفي هذا الصدد يصرح عبد الله بن المبارك : " خذوا مـن الرأي ما يفسر لكم الحديث "[٥٠] يقول يحيى بن سعيد القطان : " ربمـا رأينا الشيء من رأي أبي حنيفة فاستحسناه فقلنا بـه " [٥١]. والبعـض

---

[٤٤] ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر (ت ٧٥٢ هـ) أعـلام الموقعيـن عـن رب العالمين ، قدم له طه عبد الرؤوف (دار الجيل ، بـيروت ، ١٩٧٣) ج ٣ / ص ١٣٦ ؛ النبهان محمد فاروق ، المدخل للتشريع الإسلامي نشأته أدواره التاريخية مستقبله (وكالـة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٧٧) ص ١٥١ .

[٤٥] ابن قيم الجوزية ، أعلام الموقعين ، ج ٣ / ص ١٣٦ .

[٤٦] ابن حنبل ، احمد بن محمد الإمام (ت ٢٤١ هـ) العلل ومعرفـة الرجـال ، نشـره طلعت قوج وإسماعيل جراح اوغلي (كلية الإلهيات ، أنقـرة ، ١٩٦٣) ج ١ ص ٢٥١ ، ١٦٢٣ .

[٤٧] المزي ، تهذيب الكمال ، ج ١٩ / ص ٢٨٧ ، ٧١٨٩ .

[٤٨] م . ن ، ج ١٩ / ص ٣٩١ ، ٧٢٨٩ .

[٤٩] م . ن ، ج ٢٠ / ص ٣٨٦ ، ٨٦٥٥ .

[٥٠] القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (ت ٥٤٤ هـ) الالماع في أصـول السماع ، ط ١ (المكتبة العتيقة ، تونس ١٩٧٠) ص ٣٧ .

[٥١] يحيى بن معين (ت ٢٣٣ هـ) التاريخ ، تحقيق احمد محمـد نـور سـيف ، ط ١ (مركز البحث العلمي واحياء التراث الإسلامي ، السـعودية ١٩٧٩) ج ٢ / ص ٦٠٧ ، ٢٥٣ .

الآخر تتشدد في الأخذ به [٥٢] ولا سيما بعد ظهور مذهب أهل الحديث واكتمال بنائه [٥٣] فقد حذر عبد الرحمن بن مهدي من " الجلوس الى أهل الرأي "[٥٤] وبلغت شدة نعيم بن حماد بن معاوية انه كان " يضع الحديث في ثلب أبي حنيفة " [٥٥] وتأرجح موقف احمد بن حنبل من أهل الرأي إذ تذكر النصوص انه اخذ عن يعقوب بن إبراهيم القاضي وهو من أصحاب أبي حنيفة [٥٦] يقول " كانت اقضيتنا أصحاب الحديث في أيدي أصحاب أبي حنيفة ما تنزع حتى رأينا الشافعي "[٥٧] ، في حين تذكر نصوص أخرى ذمة للرأي واهله ولاسيما انه عد " الدين بالآثار وليس بالرأي [٥٨] وقوله " ما كان يضع الشخص عند أصحاب الحديث إلا النظر في الرأي " [٥٩] وقوله " هذه الحيل التي وضعها أبو حنيفة

---

[٥٢] الكوثري ، محمد زاهد ، حسن التقاضي في سيرة الإمام ابي يوسف القاضي (دار الأنوار للطباعة والنشر ، مصر ، ١٩٤٨) ص ١٢ ، بشار عواد معروف ، أبو حنيفة بحث في موسوعة الحضارة الإسلامية ، ص ٩٣ .

[٥٣] عبد المجيد محمود ، المدرسة الفقهية للمحدثين ، ص ١٠٩ .

[٥٤] الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق محب الدين العمروي ، ط ١ (دار الفكر ، بيروت ١٩٧٧) ج ٨ / ص ١٣٠ ، ١٣٧٠

[٥٥] الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، ط ٣ (حيدر آباد ، الدكن ، ١٩٥٥) ج ٢ ص ٤١٩ ، ٤٢٤

[٥٦] الكوثري ، حسن التقاضي ، ص ٢٨ .

[٥٧] ابن أبي حاتم الرازي ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٣٢٧ هـ) آداب الشافعي ومناقبه تحقيق عبد الغني عبد الخالق (مطبعة السعادة ، مصر ١٩٥٣) ص ٥٥

[٥٨] الخطيب البغدادي ، الجامع لاخلاق الراوي واداب السامع ، تحقيق محمود الطحان (مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٩٨٣) ج ٢ / ص ١٧٤ .

[٥٩] المزي ، تهذيب الكمال ، ج ١٦ / ص ٤٥٥ ، ٥٩٦١ .

واصحابه عمدوا الى السنن فاحتالوا في نقضها " [٦٠] واستقر هذا الرأي بعد تكامل ظهور مذهب أهل الحديث الذي اصبح مرتبطا بـأحمد بـن حنبل واصحابه لذلك نلاحظ شبه اتفاق بين أهل الحديث على اختـلاف طبقاتهم من مدرسة الرأي وما تقول به [٦١].

ذكر ابن عبد البر أن سبب هذا الموقف اتجاه أبي حنيفة " لـورده كثيرا من أخبار الآحاد " [٦٢] ، ويرى ابن الأثير انه " كـان يضـرب بالأمثال لحديث رسول الله (ﷺ) حتى أفتى بنحو مئتي مسألة خـالف فيها الحديث " [٦٣] ويعتقد الدكتور عبد المجيد محمود ان سبب ذلك هـو العجز الذي واجهه أهل الحديث عن الوقوف بوجه أهل الرأي [٦٤] .

أدى موقف أهل الحديث هذا الى إسقاط حديث من عرف بالرأي واشتهر به [٦٥] فقيل عن محمد بن عبد الله الأنصاري (ت ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م) " لم يكن من فرسان الحديث لانه غلب عليه الرأي " [٦٦] يعلق الدكتور بشار عواد معروف على ذلـك قـائلا " فـي الحديـث عـن

---

[٦٠] أبو يعلى ، طبقات ، ج ٢ / ص ١٥١ .

[٦١] أبو عمر يوسف (ت ٤٦٣ هـ) الانتقاء في فضائل الأئمة الفقهاء (مكتبة القدسـي ، القاهرة ، ١٩٣٢) ص ١٤٩ .

[٦٢] م . ن ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩ احمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج ٢ / ص ١٩٤ .

[٦٣] الاتجاهات الفقهية للمحدثين ، ص ٦٩

[٦٤] ينظر الخطيب البغدادي ، شرف أصحاب الحديث ، تحقيق محمد سعيد اوغلي (كليـة الإلهيات ، انقرة ١٩٧١) ، ص ٧ ، ٩ .

[٦٥] الخطيب البغدادي ، تاريخ بغـداد ، ج ١٣ / ص ٣١٦ ، ٧٢٨٧ ، نـوح بـن دراج النخعي ؛ المزي ، تهذيب الكمال ، ج ١٦ / ص ٤٥٢ ، ٥٩٦١ ، محمـد بـن عبـد الله الأنصاري .

[٦٦] الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، ج ١ / ص ٣٧١ ، ٣٦٦ .

الصراعات بين أهل الحديث والرأي ينبغي ان نتمثل الجو العام الـــذي كان سائداً والظروف التي قيلت فيها هذه الآراء " [٦٧] .

ب ــ أهل الكلام وجدلية الصراع في مسألة خلق القرآن :

لاهل الحديث من أهل الكلام مواقف اذ نجد ان أهل الحديـــث على خصومة مع هؤلاء [٦٨] ولاسيما المعتزلة في مسائل عـــدة منـــها الصفات والتوحيد ، القضاء والقـــدر ، الوعـــد والوعيـــد والنبـــوة والإمامة [٦٩] وان كان ابتداء القول ان أهل الحديث استخدموا مصطلـــح أهل الكلام تحديداً على المعتزلة [٧٠] ، اذ يبدو من كل الروايات التـــي

---

[٦٧] مقدمته الذي ذكرها في تحقيقه لكتاب الخطيب البغدادي ، تاريخ مدينة السلام وأخبـــار محدثيها وذكر قطانها العلماء من غير أهلها ووارديها ، ط ١ (دار الغـــرب الإســـلامي ، بيروت ، ٢٠٠١) ج ١ / ص ١١٧ .

[٦٨] يرى بعض الباحثين ان تبلور الفرق الإسلامية وجدالها في مسائل مختلفة ومنها العقدية كان لاسباب سياسية أدت في النهاية الى الجدل الديني واتخاذ آراء وعقائد خالفت بعضـــها للبعض الآخر كما خالفت ما عليه أهل الحديث ، ويبدو ان عوامل مختلفة دعت الى اتخـــاذ هذه الآراء فضلاً عن السياسية ، ومنها العوامل الخارجية المتمثلة بالأفكار والمعتقدات التي وجدها المسلمين في المناطق التي فتحوها ومنها الداخلية والتي تتعلق بالأفكـــار والمســـائل التي يحملها النص المقدس (سواء في القران والحديث) ، يبدو ان بداية ظهور هذه الفـــرق بصورة واضحة منذ نهاية القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني الهجري . ينظر ابـــن تيمية ، احمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨ هـــ) الرسالة التدمرية (المطابع الأهلية ، الرياض د. ت) ص ٧٤ ؛ الكبيسي ، خليل إبراهيم ، المرجئة نشاتها عقائدهـــا فرقـــها وموقفـــها السياسي ، رسالة ماجستير (كلية الآداب ، جامعة بغداد ١٩٧٥) ص ١٥ ، زهدي جـــار الله ، المعتزلة (مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٤٧) ص ٢ .

[٦٩] ابن العبري غريغوريوس ابي الفرج الملطي (ت ٦٨٥ هـــ) تاريخ مختصـــر الدول (المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٨٩٠) ص ١٦٤ .

[٧٠] ابن الجوزي ، مناقب الإمام احمد بن حنبل ، ص ١٥٥ .

الهجري التي تمثلت فيما عرف بمسألة خلق القران التي عدها ابن الطقطقي من " اختراعات المأمون " [٧٦] .

والذي يبدو من دوافع هذه المسالة وأهدافها أنها تنطوي على مدلولات سياسية اكثر مما هي عقدية او غيرها ، إذ كانت رغبة المأمون الذي أراد أشغال الناس بهذه المسالة فكتب الى البلاد في " امتحان الناس " [٧٧] فصارت حديث خاصتهم وعامتهم ولاسيما بعد ان برزت كتلة أهل الحديث ككتلة لها أهداف سياسية في عهد الخليفة المأمون وهذا ما يفسر إصراره وما بعده المعتصم على شهّر الذين يقولون بخلق القران في مجلس يحضره " الفقهاء ومشايخ أهل الحديث " [٧٨] فضلاً عن الانتقادات الكثيرة التي وجهت إليهم من المأمون فوصفهم بالجهل وحب الرئاسة ... الخ [٧٩] .

ج ـ القصاص

ترجع جذور القصص الى حقبة ما قبل الإسلام واستمر وجودها بعد انتشاره بصبغة دينية جديدة تعتمد على ذكر آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول (ﷺ) وأخبار السلف الصالح ، وهذا كما يبدو كان

---

[٧٦] محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩ هـ) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (دار صادر ، بيروت ، د. ت) ص ٢٠٦ .

[٧٧] ينظر الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٩ / ص ٦٣١ .

[٧٨] م . ن

[٧٩] ابن طيفور ، احمد بن طاهر الكاتب (ت ٢٨٠ هـ) ، بغداد في تاريخ الخلافة العباسية ، (مكتبة المثنى ، بغداد و دار المعارف ، بيروت ، ١٩٦٨) . ص ١٨٨ .

له دور كبير في إثارة انتباه الرأي العام الى هذه المجالس ولاسيما انها ارتبطت بالوعظ والتذكير [٨٠].

اتخذ أهل الحديث من القصاص موقفين الأول منهما إنكار حديثهم وعدوا مجالسهم " بدعة " [٨١] إذ يبدو أن تولي بعض القصاص اعمالاً للسلطة كالقضاء مثلاً [٨٢] فضلاً عن رواية اغلبهم للأحاديث المنكرة والغريبة والزيادة في الحديث والتهويل والمبالغة وقد يلتجئون الى الكذب والوضع [٨٣] مما أثار انتقادات أهل الحديث لهم لذلك اصطلحوا على تسمية مجالس القصص الأولى أي قبل الفتنة بمجالس الذكر تمييزاً لها من مجالس القصص بعد الفتنة [٨٤] ، يقول أيوب بن أبي تميمة السختياني (ت ١٣١ هـ / ٧٤٨ م) : " ما افسد على الناس حديثهم الا القصاص " [٨٥] ويقول شعبة بن الحجاج لرجل سأله عن حديث : " اذهب فأنا لا نحدث القصاص .. يأخذون الحديث منا شبراً فيجعلونها ذراعاً " [٨٦] وحذر عبد الرحمن بن مهدي من حضور

---

[٨٠] مقدمة تحقيق قاسم السامرائي لكتاب ابن الجوزي ، القصاص والمذكرين ، ط ١ (دار أمية للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٩٨٣) ص ١٨ ــ ١٩ .

[٨١] السيوطي ، جلال الدين بن ابو بكر عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ) ، تحذير الخواص من اكاذيب القصاص ، تحقيق محمد بن لطفي الصباغ (المكتب الإسلامي بيروت ، ١٩٨٤) ص ١٨٢ .

[٨٢] جمال محمد داود جودة ، القصص والقصاص في صدر الإسلام ، مجلة دراسات تاريخية ع ٣٣ و ٣٤ ، س ١٠ (جامعة دمشق ، ١٩٨٩) ص ١٢٦ .

[٨٣] الخطيب البغدادي ، الجامع لاخلاق الراوي ، ج ٢ / ص ١٦٦ ، ابن الجوزي القصاص والمذكرين ، ص ١٦٢ ، السيوطي ، تحذير الخواص ، ص ٤٨ .

[٨٤] جمال محمد داود جودة ، القصص والقصاص في صدر الإسلام ، ص ١٢٦ .

[٨٥] الخطيب البغدادي ، الجامع لاخلاق الراوي ، ج ٢ / ص ١٦٤ ، ١٤٩٩ .

[٨٦] م . ن ، ج ٢ / ١٦٤ ، ١٥٠٠ .

مجالس القصاص [٨٧] ولاسيما بعد ان تولى هذه المهمة كما يقول ابن الجوزي : " الجهال من الناس " [٨٨] الذين ابتغوا الوصول الى ما في أيدي الناس من أموال [٨٩] يرى شارل بلا ان تولي الطبقات الدنيا لهذه المهمة سبب في إسباغ هذه الكراهية على القصاص ومجالسهم [٩٠] .

يظهر موقف أهل الحديث من هؤلاء وذلك من خلال إسقاط حديثهم فقد قيل عن النضر بن إسماعيل بن حازم (ت ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م) : " لا يدري ما يحدث به ... كان قاص " [٩١] وقيل عن وهب بن وهب : " قاص كذاب خبيث " [٩٢] على انه لا بد من القول ان ما ذكرناه ليس حالة عامة ، فعلى الرغم من وصف حديث صالح بن بشير بن وداع المري (ت ١٧٢ او ١٧٦ هـ / ٧٨٨ او ٧٩٢ م) بالضعف أن البعض من أهل الحديث كسفيان بن سعيد وعبد الرحمن بن مهدي كانا يحضران مجلسه ويستمعان اليه ، إذ يبدو ان كلامه كان مؤثراً مما دعا سفيان بن سعيد الى القول : " ليس بقاص .. هذا نذير قوم " [٩٣] .

---

[٨٧] ابن الجوزي ، القصاص والمذكرين ، ص ١٨٢ .

[٨٨] الخطيب البغدادي ، الجامع لاخلاق الراوي ، ج ٢ / ص ١٦٧ ، ابن الجوزي ، القصاص والمذكرين ، ص ١٤٥ .

[٨٩] م . ن ، ص ١٨٤ .

[٩٠] الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ، ص ١٦٦ .

[٩١] المزي ، تهذيب الكمال ، ج ١٩ / ص ٧٧ ، ٧٠١٠ .

[٩٢] الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج ١٣ / ص ٤٥٦ ، ٧٣٢٣ .

[٩٣] ابن الجوزي ، القصاص والمذكرين ، ص ١٣١ .

اما الموقف الثاني : فهو حضور مجالس القصاص والمذكرين والسماع لهم [٩٤] ولاسيما انه قد وضعت شروط كثيرة لمن يتصدى لهذه المهمة منها ان يكون " حافظاً لحديث رسول الله (ﷺ) عارفاً به .. وأخبار السلف ... الخ [٩٥] .

عقد بعض أهل الحديث الثقات مجالس القصص منهم قتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٧ هـ / ٣٧٥ م) [٩٦] وثابت بن مسلم البناني (ت ١٢٣ هـ / ٧٤٠ م) [٩٧] وعمر بن ذر بن عبد الله (ت ١٥٣ هـ / ٧٧٠ م) [٩٨] .

يعلق احمد بن حنبل على مهمة القصاص ودورهم في توعية الناس وتقديم النصح لهم قائلاً : " ما أحوج الناس الى قاص صدوق "[٩٩].

رابعاً – موقفهم من السلطة واثره في توجيه الرأي العام

ولي العباسيون الخلافة على أساس إحياء سنة النبي (ﷺ) وليس واضحاً لدينا هل كان تبنيهم هذا الشعار ناجماً عن تراث جد الأسرة عبد الله بن عباس ، وكثرة تلاميذه واحتمال تشكيلهم حاشية حببت للأسرة هذا الشعار أو انه استخلاص لما يشكله أهل الحديث من

---

[٩٤] ابن حنبل ، العلل ومعرفة الرجال ، ج ١ / ص ٩١ ، ٢٣١ ، ابن الجوزي ، القصاص والمذكرين ، ص ١٨٤ .

[٩٥] م . ن ، ص ٧٩ و ص ١٩١ .

[٩٦] ابن الجوزي ، القصاص والمذكرين ، ص ١٢٧ .

[٩٧] م . ن ، ص ١٢٧ .

[٩٨] الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٦ / ص ٥٢٥ ، ٩٩٢ .

[٩٩] ابن الجوزي ، القصاص والمذكرين ، ص ٥٧ .

مكانة تعد الأكثر تحريكاً للمجتمع ، لهذا من المتوقع ان مجيئهم للسلطة يعطي أهل الحديث مكانة خاصة ، كانت السلطة الجديدة تحتاج اليها لتستقر وتثبت مشروعيتها ، فاغدقوا الأموال عليهم كما أوكلوا لبعضهم وظائف في الدولة ، وقربوهم في مجالسهم كما سنذكر لاحقاً [١٠٠] وهذه كانت فحوى دعوة ابن المقفع للخليفة المنصور من اجل كسب : " أهل الفقه والسنّة والسير " [١٠١] وذلك ما يؤدي الى تحقيق الاستقرار وكسب تأييد الناس للسلطة [١٠٢].

تباينت المواقف التي اتخذها أهل الحديث من السلطة اذ نجد ثلاثة مواقف رئيسة تقود هذا الوضع :

الأول ــ وقف بجانب السلطة ودعمها وأعطاها الشرعية التامة بوجه خصومها ولاسيما انهم سعوا في الحفاظ على وحدة الأمة والجماعة التي جعلوها مصدر السلطات لذلك استجاب بعضهم لدعوة بعض الخلفاء العباسيين وتشجيعهم ولاسيما بعد بناء بغداد [١٠٣] .

فقد سعى الخليفة أبو العباس السفاح الى كسب تأييد العلماء [١٠٤] ووجه الخليفة المنصور دعوته لعلماء الحجاز [١٠٥] واحضر

---

[١٠٠] فاروق عمر فوزي ، العباسيون الأوائل ، ج ٢ / ص ١٠٨ .

[١٠١] عبد الله (ت ١٤٢ هــ) رسالة في الصحابة منشورة ضمن كتاب رسائل البلغاء تصنيف محمد كرد علي ، ط ٤ (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٤) ص ١٣٣ .

[١٠٢] فاروق عمر فوزي م . س ، ج ٢ / ص ١٠٤ .

[١٠٣] الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج ٩ / ص ٣٠٦ ، ٤٨٤٥ صالح بن بشير البصري .

[١٠٤] جب ، هاملتون ، دراسات في حضارة الإسلام ، ترجمة إحسان عباس واخرين (دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٤) ص ١٣ .

سفيان بن سعيد [١٠٦] وشريك بن عبد الله[١٠٧] الى بغداد .

واحضر الخليفة المهدي محمد بن عبد الرحمن بن ابي ذئب[١٠٨] واستقدم الخليفة الرشيد وكيع بن الجراح [١٠٩] وسفيان بن عيينة [١١٠] وجمع الخليفة المأمون الشعراء والقراء والفقهاء واهل الحديث واهل الكلام في مجلسه [١١١] ودعم الخليفة المتوكل موقفهم : " بإطلاق .. من كان في السجون وكساهم [١١٢] ومن المؤكد ان اغلب هؤلاء كانوا من أهل الحديث والفقه لذلك سعى الى إقناع احمد بن حنبل [١١٣] واسحاق بن بهلول بن حسان (ت ٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م) للحضور الى سامراء [١١٤].

نتيجة لجهود الخلفاء العباسيين هذه فقد اصبح : " في بغداد من العلم ما لم يكن مثله في الحجاز والبصرة "[١١٥] .

---

[١٠٥] ابن تيمية ، مجموع فتاوي ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم (مكتبة المعارف ، الرباط ، د. ت) ج ٢٠ / ص ٣٠٧ .

[١٠٦] الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٧ / ص ١٨٥ ، ١٠٨٣ .

[١٠٧] م . ن ، ج ١ / ص ٤٨٥ ، ١٢٠٧ .

[١٠٨] ابن دحية ، ابو الخطاب عمر (ت ٦٣٣ هـ) النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس تصحيح عباس العزاوي (مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٤٦) ص ٣١ .

[١٠٩] الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، ج ١ / ص ٣٠٦ ، ٢٨٤ .

[١١٠] ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٠ / ص ٢٠٣ .

[١١١] الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٨ / ص ٦٣٧ .

[١١٢] اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب بن جعفر (ت ٢٨٤ هـ) تاريخ (دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٩٦٠) ج ٢ ، ص ٢١٩ .

[١١٣] ابن الجوزي ، مناقب الامام احمد بن حنبل ، ص ٣٦٦ .

[١١٤] الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، ج ٢ ، ص ٥١٨ ، ٥٣٥ .

[١١٥] ابن تيمية ، مجموع فتاوي ، ج ٢٠ / ص ٣١٩ .

قدم بعض أهل الحديث الى الخلفاء ، أما طلباً للحضوة ، منهم محمد بن مطرف (ت ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م) [116] وإسماعيل بن عياش (ت ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م) [117] او لقضاء حاجتهم اذ توجه شعبة بن الحجاج الى الخليفة المنصور بسبب حبس أخيه ، فرحب به وقضى حاجته [118] .

ويصف الازدي قدوم : " اغلب أهل العلم – على الخليفة الرشيد وتهنئته بالخلافة "[119] .

واستمراراً مع موقف الخليفة الرشيد نجد ان الخليفة المأمون يقبل وساطة المبارك بن فضالة (ت ١٦٥ هـ / ٧٨١ م) في أمر إبراهيم بن المهدي بقوله : " عفوت عنه " [120].

أثار دعم الخلفاء العباسيين لاهل الحديث ومحاولة كسبهم ، إعجاب بعضهم فقد عبر محمد بن خازم التميمي الضرير عن تقديره وإعجابه بالخليفة الرشيد الذي تواضع وصب الماء على يديه ، قائلاً له : " يا أمير المؤمنين ان تواضعك في شرفك لا شرف من شرفك "[121].

---

[116] الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، ج١ / ص ٢٤٢ ، ٢٢٩ .

[117] المزي ، تهذيب الكمال ، ج ٢ / ص ٢١١ ، ٤٦٦ .

[118] الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج ٩ / ص ٢٥٥ ، ٤٨٣٠ .

[119] يزيد بن محمد بن اياس (ت ٣٣٤ هـ) تاريخ الموصل ، تحقيق علي حبيبة (دار التحرير ، القاهرة ، ١٩٦٧) ص ٢٤١ .

[120] الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج ٦ / ص ١٤٣ ، ٣١٨٥ ، ابراهيم بن المهدي .

[121] ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٢٣١ .

ولما قدم إسحاق بن ابي إسرائيل (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م) على الخليفة المتوكل قال : " يا أمير المؤمنين حدثنا ... عن الحسن انه قال : المصافحة تزيد في المودة ، فمد المتوكل يده حتى صافحه [١٢٢] .

والثاني ــ وقف من السلطة محذراً منها معارضاً ، اذ عد افضل الجهاد " كلمة حق عند سلطان جائر "[١٢٣] اذ يبدو ان مكانة أهل الحديث في المجتمع ودورهم في احتواء الجمهور أثار توجس الخلفاء الذين اخذوا يوجهون لهم الأسئلة التي يتبين منها مدى قبولهم لحكم العباسيون وسياستهم الدينية .

اتخذ الموقف المعارض صيغاً مختلفة منها الكلام والانتقاد او الوعظ والإرشاد وقد يصل الى السخط والتذمر احياناً كتعبيرهم عن تبنيهم لحركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولاسيما ان بعضهم لم يكن راضياً عن الخلفاء العباسيين سواء في أسلوبهم في الحكم او تصرفاتهم التي يبدو أنها لا تتماشى مع الشريعة الإسلامية وتبديدهم لاموال المسلمين وانصرافهم الى الشعراء والكتاب وإغداقهم الأموال عليهم [١٢٤] فقد سال الخليفة المنصور محمد بن عبد الرحمن بن ابي ذئب عن رأيه بعدالته فاجابه : " انك لجائر .. تستعمل الظلمة وتدع

---

[١٢٢] الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج ٦ / ص ٣٥٥ ، ٣٣٨٣ ، اسحق بن اسرئيل .

[١٢٣] ابن ماجة ، محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٣ هـ) سنن ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٧٥) ج ٢ ، ص ١٣٢٩ ، ٤٠١١ ، الفتن، أبو داود ، سنن ، مراجعة محمد محي الدين عبد الحميد (مطبعة مصطفى محمد ، القاهرة ، ١٩٥٣) ج ٤ / ص ١٢٤ ، ٤٣٤٤ ، الملاحم .

[١٢٤] الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٨ / ص٣٦ .

أهل الخير "[١٢٥] ، وفي رواية أخرى قال له : " اشهد انك أخذت هـذا المال من غير حقه وجعلته في غير أهله "[١٢٦] وانتقد سفيان بن سعيد الخليفة المهدي لانه " انفق بيوت الأموال على حجه .." [١٢٧] ويظهر ان انتقاد أهل الحديث لحكم العباسيين بلغ ذروته في عهد المأمون اذ عـابوا الدولة وسياستها الدينية .

استمراراً للنهج الذي انتهجه أهل الحديث من القيام بواجبات الدين ، مرضاة لله تعالى ، اذ نذروا أنفسهم للحق والجهر به ، فكتبوا ، وواجهوا الخلفاء وولاة الأمر وحذروهم من مغبة الظلم والجور فيقول سفيان بن سعيد للخليفة المهدي : " ما عملت فيما علمت فاعظك فيما جهلت " [١٢٨] كما وجه كلماته الجريئة الى الخليفة لما عبر لـه عن عجزه عن إيصال الحقوق الى أهلها قائلاً : " تقر بدينك وتلـزم بيتك وتترك الأمر كله الى من يقدر ذلك "[١٢٩] ودخل هشيم بن بشير على الخليفة الرشيد فوعظه وخوفه [١٣٠]. كما وعظ علي بـن الجعـد (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م) الخليفة المأمون بحديث الرسول (ﷺ) لما رأى قيام الحاضرين له عند دخوله المجلس قائلاً : " أجللت أمير المؤمنين

---

[١٢٥] الغزالي ، محمد بن محمد (ت ٥٠٥ هـ) إحياء علوم الدين (مطبعة محمد علي صبيح ، مصر د. ت) ج ٢ / ص ٣٤٢ .

[١٢٦] ابن أبي حاتم الرازي ، آداب الشافعي ومناقبه ، ص ٤٧ .

[١٢٧] ابو نعيم الاصبهاني ، حلية الأولياء ، ج٦ / ص ٣٧٧ ، ٣٨٧ سفيان الثوري

[١٢٨] ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ج ٤ / ص ١١٣ ، ١٩٩ .

[١٢٩] م. ن

[١٣٠] المزي ، تهذيب الكمال ، ج ١٩ / ص ٢٨٧ ، ٧١٨٩ .

للحديث الذي نأثره عن النبي (ﷺ) " من احب ان يتمثل له الرجـــال قياماً فليتبوأ مقعده من النار " [١٣١].

اتخذ بعض أهل الحديث مواقف متشددة إزاء أحـــداث معينــة ولاسيما انهم تولوا مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي عُدت أمراً واجباً على سائر المسلمين كل بحسب استطاعته من اجل تطبيـــق مبادئ الإسلام واستمرار العمل بها ، قال تعالى " **ولتكـــن منكـــم أمـــة يدعون الى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** " [١٣٢] كمـــا جاءت أحاديث الرسول مؤكدة ذلك " من رأى منـــكم منـــكراً فليغيـــره بيده ..... " [١٣٣] يبدو ان إلحاح أهل الحديث على هذا الأمر أدى الـــى إثارة الخلفاء العباسيين وشهد العصر العباسي الأول الكثير من المحـــن والأذى الذي الحق بأهل الحديث حتى وصف عصر الخليفة المنصـــور بأنه عهد المحنة إذ " آذى خلقاً من العلماء .. ممن خـــرج .. او أمـــر بالخروج " [١٣٤].

اصبح خطر أهل الحديث واضحاً في القرن الثاني الـــهجري ، يتمثل من خلال مشاركة اغلبهم في ثورة محمد بن عبد الله بن حسن في مكة وأخيه إبراهيم في البصرة سنة (١٤٥ هـــ / ٧٦٢ م) التي وقـف

---

[١٣١] الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج ١١ / ص ٣٦٠ ، ٦٢١٥ .

[١٣٢] سورة آل عمران ، الآية ٣ .

[١٣٣] مسلم بن حجاج القشيري (ت ٢٦١ هـــ) ، الصحيح بشرح النووي تحقيق عبـــد الله احمد (مطبعة الشعب ، القاهرة ، ١٩٣٥) ج١ / ص ٢٢٥ ، حديث ٧٤ ؛ ابـــن ماجـــة ، سنن ، ج ٢ / ص ١٣٢٧ ، ٤٠٠٤ ، الفتن ، ابـــو داود ، ســـنن ، ج ٤ / ١٢٣ ، ٤٣٤٠ ، الملاحم .

[١٣٤] السيوطي ، تاريخ الخلفـــاء ، تحقيـــق محمـــد محـــي الديـــن عبـــد الحميـــد ، ط١ (مطبعة السعادة ، مصر ١٩٥٢) . ص ٢٦١ .

الى جانبها الكثير من الفقهاء واهل الحديث من الزيدية الذين يصفهم الطبري " من أهل البصائر .. من الفقهاء واهل العلم " [١٣٥] فضلاً عن تأييد المعتزلة له [١٣٦] وعبر حماد بن زيد عن رأيه بتأييد أهل الحديث في البصرة قائلاً : " وما كان بالبصرة أحد إلا وقد تغير أيام إبراهيم "[١٣٧] وممن وقف الى جانبه مسعر بن كدام (ت ١٥٥ هـ / ٧٧١ م) [١٣٨] وشعبة بن الحجاج [١٣٩] وهشيم بن بشير (ت ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م) [١٤٠] وعباد بن العوام (ت ١٨٥ هـ / ٨٠١ م)[١٤١] وعيسى بن يونس (ت ١٨٧ هـ / ٨٠٣ م)[١٤٢] وإسحاق بن يوسف (ت ١٩٥ هـ / ٨١٠ م) [١٤٣] ومعاذ بن معاذ بن نصر (ت ١٩٦ هـ / ٨١١ م) [١٤٤] ويزيد بن هارون (ت ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م) [١٤٥] في حين اتخذ بعضهم الحياد واعتزال المشاركة في

---

[١٣٥] الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٧ / ص ٦٣٤ .

[١٣٦] اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ / ص ٣٧٧ ، عبد الرحمن سالم ، التاريخ السياسي للمعتزلة حتى نهاية القرن الثالث الهجري (دار الثقافة والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٨٩) ص ١٨٤ .

[١٣٧] الازدي ، تاريخ الموصل ، ص ١٨٩ .

[١٣٨] الاصبهاني ، مقاتل الطالبيين ، تحقيق السيد احمد صقر (دار إحياء الكتب ، القاهرة ، ١٩٤٩) ص ٣٦٦ .

[١٣٩] الازدي ، تاريخ الموصل ، ص ١٨٨ .

[١٤٠] المزي ، تهذيب الكمال ، ج ١٩ / ص ٢٨٧ ، ٧١٨٩ .

[١٤١] الاصبهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص ٣٥٩ .

[١٤٢] م . ن

[١٤٣] م . ن

[١٤٤] م . ن

[١٤٥] الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٦ / ص ٤١٧ ، ٩٣٧ .

الثورة ومنــهم عبــد الله بــن عون بــن ارطبان (ت ١٥٠ هــــ / ٧٦٧ م)[١٤٦] وسعيد بن أبي عروبة [١٤٧] وهشام بــن أبــي عبــد الله الدستوائي (ت ١٥٣ هــ / ٧٧٠ م) [١٤٨] .

كان لخروج إبراهيم بن عبد الله في "باخمرا " [١٤٩] وتكتل أهـل الحديث ووقوفهم الى جانبه ، مما دفع الخلفاء العباسـيين الـى تجنـب معارضة أهل الحديث وما يؤديه ذلك من إثارة الفتن واختلاف الناس .

توضحت مشاركة أهل الحديث في معالجة الاضطرابات التـي شهدتها بغداد أبان الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون [١٥٠]وسـيطرة الشطار والعيارين على بغداد يقول الطبري " ان فساق الحربية والشطار الذين كانوا ببغداد والكرخ آذوا الناس أذى شديداً واظهروا الفسق وقطع الطريق [١٥١] ويعقب ابن كثير قائلاً : " والناس في بغداد فـي أهويـة مختلفة وقتال وحريق وسرقات وساعت بغداد فلم يبق فيها أحد يرد على أحد كما هي عادة الفتن " [١٥٢] مما دفع أهل الحديث الى تولـي زمـام الأمور فظهرت حركة المطوعة عام (٢٠١ هــ / ٨١٦ م) التي نادت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [١٥٣] والعمل ضمن نطاق " الكتاب

---

[١٤٦] م.ن ، ج ٦ ، ص ٥١٦ ، ٩٧٨ .

[١٤٧] م.ن ، ج ٦ ، ص ٤١٧ ، ٩٣٧

[١٤٨] م.ن ، ج ٦ ، ص ٤١٧ ، ٩٣٧ .

[١٤٩] الازدي ، تاريخ الموصل ، ص ١٨٩ .

[١٥٠] الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٨ / ص ٥٥١ .

[١٥١] م . ن ، ج ٨ / ص ٥٥١ .

[١٥٢] ابو الفدا ، عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢ هــ) المختصر في أخبـار البشـر ، ط١ (المطبعة الحسينية ، مصر د. ت) ج ٢ / ص ٢٢ .

[١٥٣] البداية والنهاية ، ج ١٠ / ص ٢٣٩ .

والسنة " [١٥٤] وهم كما وصفهم الطبري " صلحاء كل ربض " [١٥٥]
يبدو أن المأمون توجس خيفة من هذه الحركة لذلك طلب من قادتها عند دخوله بغداد بـ " ترك الأمر بالمعروف .. لان الناس قد اجتمعوا على أمام " [١٥٦] ويبدو انه قد تشدد في ذلك إذ أمر بإحضار الفضل بن دكين لانه استمر في عصيانه لأمره بترك الأمر بالمعروف [١٥٧] كما احضر الحسن بن الصباح (ت ٢٤٩ هـ / ٨٦٣ م) بالتهمة نفسها فسأله قائلاً " أتأمر بالمعروف ؟ فاجابه : لا ولكني انهى عن المنكر " فضربه خمس درر [١٥٨] .

ان تولي بعض أهل الحديث لمهمة الأمر بالمعروف حالة ليست جديدة ، فقد تولاها فضلاً عمن ذكرناهم محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب[١٥٩] وهاشم بن القاسم (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م) [١٦٠] وغيرهم[١٦١] .

لم تنجح السلطة العباسية في احتواء كل أهل الحديث ولاسيما وانهم انتقدوا سياستها في المجالات المختلفة ، مما ولد حركة معارضة ضد السلطة ويظهر ذلك من خلال مشاركتهم في ثورة إبراهيم بن عبد الله ، التي كما يبدو منها انهم لم يظهروا ككتلة واسعة الحضور في

---

[١٥٤] ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٠ / ص ٢٤٠ .
[١٥٥] الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٨ / ص ٥٥٢ .
[١٥٦] م . ن ، ج ٨ / ص ٥٥١ .
[١٥٧] الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج ٧ / ص ٣٤٢ ، ٣٨٤٦ الحسن بن الصباح .
[١٥٨] م . ن ، ج ٧ / ص ٣٤٠ ، ٣٨٤٥ .
[١٥٩] م . ن ، ج ١٤ / ص ٦٦ ، ٧٤٠٦ .
[١٦٠] المزي ، تهذيب الكمال ، ج ١٩ / ص ٢١٤ ، ٧١٣٤ .
[١٦١] الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، ج ١ / ص ٢٦٠ ، ٢٤٦ خالد بن عبد الله .

الحدث السياسي ، بل تمثلت بأفراد قلائل على خلاف ما كان الموقف من محنة خلق القران على أيام المأمون ، إذ نجد أهل الحديث وقفوا ككتلة سياسية دينية لها حضورها البارز والمؤثر في الأحداث ، نجم عنه ظهور أيديولوجيات عقدية متميزة كما ذكرنا ولاسيما انهم واجهوا تحدياً من المعتزلة المخالفين لهم عقدياً ومن يسندهم من السلطة ، حاول الجاحظ المعتزلي ان يسفه معارضة أهل الحديث للسلطة بقوله : " انهم مضطرون الى المنازعة بعد ان فقدوا السلطة وتعرضوا للقمع [١٦٢].

الثالث ــ من تورع عن السير في ركاب السلطة واثروا الاعتزال لان ذلك من وجهة نظرهم يعرض الدين للخطر [١٦٣] ودعموا وجهة نظرهم ببعض الأحاديث عن الرسول (ﷺ) " من أتى أبواب السلطان افتتن "[١٦٤] وعن ابي هريرة عن الرسول (ﷺ) " ما ازداد أحد من السلطان دنوا الا ازداد من الله بعدا " [١٦٥] يعقب الماوردي قائلاً : " فربما زلت أقدام العلماء في ذلك فضلوا " [١٦٦] وابن عبد البر بقوله : " من اعظم ما يخشى على من يدخل على الملوك الظلمة ، أن يصدقهم

---

[١٦٢] رسائل ، ج١ / ص ٢٨٨ .

[١٦٣] ابن الحاج ، محمد بن محمد العبدري (ت ٧٣٧ هـ) المدخل (المطبعة المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٩) ج ١ / ص ٧١ .

[١٦٤] الترمذي ، محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩ هـ) الجامع ، ط ١ (دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧) ، ج ٤ ، ص ٤٥٤ ، ٢٢٥٦ ، الفتن .

[١٦٥] ابن حنبل ، المسند ، شرحه ووضع فهارسه احمد محمد شاكر (دار المعارف القاهرة / ١٩٥٦) ج ٢ ، ص ٣٧١ ، ٤٤١ .

[١٦٦] أدب الدنيا والدين ، تحقيق مصطفى السقا ، ط ٣ (مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٥٥) ص ٧٥ .

بكذبهم ويعنيهم على ظلمهم " [١٦٧] ويرى الغزالي ان هذا اسلم المواقف : " تعتزلهم فلا تراهم ولا يرونك " [١٦٨] يضيف ابن الجوزي قائلاً : " ليس على العالم أضر من الدخول على السلاطين فانه يحسن للعالم الدنيا ويهون عليه المنكر " [١٦٩] .

عبر اغلب أهل الحديث عن رغبتهم في اعتزال السلطة والتفرغ للعلم دراسة وتمحيصاً ، قال عبد الله بن إدريس للخليفة الرشيد : " لا اصلح " [١٧٠] واحتج وكيع بن الجراح قائلاً : " انه شيخ كبير وإحدى عينيه ذاهبة والأخرى ضعيفة " [١٧١] .

تولى القلة من أهل الحديث الوظائف مثلاً القضاء [١٧٢] أو ولاية المظالم [١٧٣] وخزانة الكسوة أو الصدقات [١٧٤] ، وهناك البعض الآخر

---

[١٦٧] ابن عبد البر ، جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله (ادراة الطباعة المنيرية ، مصر ، د. ت) ج ١ / ص ٢١٧ .

[١٦٨] إحياء علوم الدين ، ج ٢ / ص ١٤٠ .

[١٦٩] صيد الخاطر ضبط النص محمد الغزالي (مطبعة السعادة ، مصر ، د. ت) ص ٤٠٣ .

[١٧٠] الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، ج ١ / ص ٢٨٣ ، ٢٦٢ .

[١٧١] المزي ، تهذيب الكمال ، ج ١٩ / ص ٣٩١ ، ٧٢٨٩ .

[١٧٢] م . ن ، ج ٨ / ص ٢٤ ، ٢٤٨٤ سليمان بن حرب ، ج ١ / ص ١١٤ ، ١٢ احمد بن بديل بن قريش .

[١٧٣] الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج١٠ / ص ٢٢٢ ، ٥٣٥٦ عبد الرحمن بن ثوبان ج ٦ ، ص ١١٢ ، ٣١٤٤ ابراهيم بن عثمان ابو شيبة ج ٦ / ص ١٤٩ ، ٣١٨٧ إبراهيم بن محمد ابو اسحق التميمي ، ج ٧ / ص ٤٤٠ ، ٤٠٠٠ ، الحسن بن موسى الأشيب ، ج ٢ / ص ١٢٧ ، ٤١١ إسماعيل بن ابراهيم الاسدي .

[١٧٤] المزي ، تهذيب الكمال ، ج ٢ / ص ٢١١ ، ٤٦٦ إسماعيل بن عياش العنسي .

أبو ذر الغفاري (رضي الله عنه)
جدلية الذات والمجتمع

الدكتور خليل إبراهيم جاسم
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
جامعـــة الموصل

الملخص

يحاول البحث الكشف عن أبعاد شخصية الصحـــابي أبـــي ذر الغفاري (رضي الله عنه) ، تلك الشخصية التي اتسمت بنزوعها نحـو التوحيد قبل الإسلام ، ونجم عن ذلك إسلامه المبكر ، وصدامـــه مـع المشركين في مكة المكرمة ، ثم عودته الى قبيلته غفار لنشر الإســـلام فيها . وبعد عودته الى المدينة المنورة حيث توطدت معالم الإســـلام ، بدأت صحبته للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، تلك الصحبـــة التـي جعلت منه شخصية إسلامية صلبة ، امتلكت مقومات الإيمان مقرونـــة بسلوكه الحياتي الذي شكل جدلية ذاته المتمثلة فـــي اسـتيعاب دروس صحبة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وفي عهد الخلافة الراشـــدة انطلقت جدلية ابي ذر الاجتماعية التي حاول من خلالها توطيد معـــالم المجتمع الإسلامي حتى وفاته سنة (٣٢ هـــ ـ ٦٥٢ م) .

المقدمة :

تشتمل دراسة سيرة أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه) على جانب من الأهمية في التاريخ الإسلامي ، وذلك لان شخصيته اتسمت بأبعاد حيوية وفاعلة جعلت منه موضع نقاشات مطولة بهدف معرفة طبيعة آرائه ، ومضامين سلوكه العملي ، وما نجم عنها لتشكل بمجموعها صورة أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه) في المستويين الإيماني والتاريخي على حد سواء .

تضمنت الدراسة ثلاثة محاور في محاولة التوصل الى فهم طبيعة شخصية ابي ذر (رضي الله عنه) ، اذ تناول المبحث الأول ، تتبع أولى المعلومات الواردة في المصادر التاريخية الإسلامية عن سيرته ، تلك السيرة التي يمكن الارتكاز عليها لرسم مجريات أدواره اللاحقة ، ولعل تكوينه القبلي في غفار جعله يبحث عن آفاق دينية جديدة غير ما هو سائد في الأعراف الدينية آنذاك . ومن هنا ، فقد تتبع المحور وقائع انتقاله من قبيلة غفار الى مكة المكرمة في الوقت الذي كانت فيه الدعوة الإسلامية في طورها المبكر ، إذ حصل أول صدام بينه وبين المشركين في الحرم المبارك ، وعقب ذلك ، اللقاء الأول مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، واعلان إسلامه بأعلى صوته بين المشركين الذين الحقوا به أذى كبيراً ، وعند ذلك ، أمره الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالعودة الى قبيلته غفار لنشر الإسلام فيها ، ومن هنا تختفي شخصية أبي ذر (رضي الله عنه) ولم تظهر إلا بعد توطيد الإسلام في المدينة المنورة .

وتضمن المحور الثاني ، أبي ذر (رضي الله عنه) في صحبة الرسول (صلى الله عليه وسلم) تلك الصحبة التي جعلت منه شخصية صلبة ، امتلكت مقومات الإيمان مقرونة بسلوكه الحياتي والاجتماعي . فنجم عن ذلك نزوع ابي ذر (رضي الله عنه) بسمته الحدية في التعامل مع بعض الصحابة (رضي الله عنهم) ، مما جعله احياناً موضع نقد من الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما يتعرض ابو ذر (رضي الله عنه) ملحقاً الأذى بسيدنا بلال الحبشي (رضي الله عنه) حينما يعيره بسواد لونه . وفي مقابل ذلك كان موضع ثناء الرسول (صلى الله عليه وسلم) لزهده في الدنيا ، ومصاحبته الرسول (صلى الله عليه وسلم) بطريقة من يريد ان يستوعب كل الدروس التي تلقاها الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وتناول المحور الثالث ، وقائع سيرة أبي ذر (رضي الله عنه) في عهد الخلافة الراشدة ، اذ بدا أبو ذر (رضي الله عنه) بتطبيق ما تعلمه من الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمتمثل بالدعوة الى الزهد في الدنيا ، ولكنه ليس زهد العاكفين والمنعزلين عن المجتمع ، بل تحقيق الزهد من خلال توزيع الأموال على الفقراء والمساكين المستحقين لها ، ومن هنا كانت النقاشات المطولة بين ابي ذر وأمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضي الله عنهما) في هذا الموضوع الحيوي ، تلك النقاشات التي لم تخرج عن إطار الاحترام المتبادل ، وطاعة أبي ذر لأمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضي الله عنهما) ، فهي في كل الأحوال وجهات نظر انطلقت من التشريع الإسلامي . وانتهت سيرة أبي ذر (رضي الله عنه) في استئذانه عثمان بن عفان (رضي الله عنه) في الذهاب الى منطقة الربذة في شماليّ المدينة

المنورة باتجاه بلاد الشام ، حيث يعيش هناك وحده سنتين (٣٠ – ٣٢ هـ / ٦٥٠ – ٦٥٢ م) ليموت وحيداً بعد ان تقوم بتكفينه عصبة من المؤمنين (رضي الله عنهم) وهم في طريقهم الى المدينة المنورة ، ويأخذون عياله إذ يضمهم عثمان بن عفان (رضي الله عنه) الى عياله بعد ان يترحم على أبي ذر (رضي الله عنه) .

المحور الأول : سيرة أبو ذر واسلامه

وردت آراء تاريخية في ضبط اسم أبي ذر (رضي الله عنه) منها ، أبو ذر جندب بن جنادة بن قيس بن عمرو بن مليل بن صعير بن حرام بن غفار ، ونسبه الى قبيلة غفار ، فعرف بابي ذر الغفاري . ومفاد الآراء الأخرى ، ان اسمه برير بن عبد الله وبرير بن عشرقة ، وبرير بن جندب ، وبرير بن عبد ، وجندب بن السكن ، وجندب بن سفيان بن جنادة بن عبيد بن الواقفة بن حرام بن غفار ، والراجع في ضبط اسم أبي ذر (رضي الله عنه) كما جاء في الرأي الأول الذي يتوافق مع شيوع ذلك الاسم الذي عرف به ، أبو ذر جندب بن جنادة بن قيس الغفاري [١].

ولد أبو ذر في قبيلة غفار العربية التي كانت مضاربها على الطريق التجاري من مكة المكرمة باتجاه بلاد الشام ، ولم نعثر على تاريخ محدد لولادته . أما سماته الجسدية فقد اتسم بطول القامة مع

---

[١] ابن سعد ، محمد (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م) الطبقات الكبرى ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ٤ / ٢١٩ . ينظر ، عبد الرحمن بدوي : تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني ، الكويت ، ١٩٧٨ ، ص ١٣٩ .

نحافة واضحة في جسمه وبشرة سمراء [٢] . وكانت حياة ابي ذر في قبيلة غار قائمة على الصراع من اجل تحقيق أسباب الحياة المعيشية ، ولذلك كان يقطع الطريق مع أبناء قبيلته على القوافل المتوجهة الى بلاد الشام والعائدة منها ، بل ان قبيلة غفار كانت لا تتورع عن فعل ذلك حتى بالأشهر الحرم (ذي القعدة ، وذي الحجة ، والمحرم ، ورجب) وهي الأشهر التي تعارف العرب على تحريم القتال فيها ، ولم تكن الصورة بعيدة عن فهم أبي ذر الذي رأى فيها تعبيراً عن رفضه للواقع الاقتصادي آنذاك ، فلا بد من اخذ أموال الأغنياء ليس لتحقيق مآرب شخصية ، وانما لتوزيعها على أبناء القبيلة [٣] .

وتنبغي الإشارة الى ان الحالة التي مارسها أبو ذر الغفاري في قطع الطريق التجاري كانت تقابلها سمة عربية أصيلة ذات مضمون أخلاقي رفيع تمثلت بالكرم والضيافة ، وهو حق لا ينزل عنه الإنسان العربي ، لانه يشكل الإطار الاجتماعي والأخلاقي للعرب في العصر الجاهلي ، فإذا كانت أخلاق المجتمع قائمة على الشح والبخل وكراهية الضيافة ، فسيموت الكثير ، ومن هنا يعد إكرام الضيف شرفاً يعتز به الإنسان العربي ، الذي كان يحرص على إيقاد النار في الأعالي

---

[٢] ابن الأثير ، عز الدين علي بن محمد (ت : ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) أسد الغابة في معرفة الصحابة ، القاهرة (د : ت) ، ١ / ٣٧٥ .

[٣] صالح احمد العلي : محاضرات في تاريخ العرب ، الموصل ١٩٨١ ، ص ١٦٠ – ١٦١ .

لاستقبال ضيوفه [٤] ، وهذه الأخلاق الاجتماعية لم تكن غائبة عن ذهن ابي ذر الغفاري الذي استوعب المثل والأعراف العربية .

غادر أبو ذر الغفاري قبيلته على اثر غائلة معيشية ألمت به وبأسرته المكونة من أمه رملة بنت الوقيعة وأخيه أنيس ، وتوجهوا الى أقاربهم في منطقة نجد ، ووصف أبو ذر تلك المعاناة ((أصابتنا السنة فحملت أمي وأخي أنيس الى اصهار لنا بأعلى نجد ، فلما حللنا بهم أكرمونا ، فمشى رجل من الحي الى خالي ، فقال : ان أنيس يخالفك الى اهلك ، فحز في قلبه ، فانصرفت من رعي الإبل فوجدته يبكي ، فقلت : ما بكاؤك يا خال . فاعلمني الخبر ، فقلت : حجز الله من ذلك ، انا نعاف الفاحشة ، وان كان الزمان قد أخل بنا ، فاحتملت أخي وامي حتى نزلنا بحضرة مكة))[٥].

امتازت شخصية أبي ذر الغفاري قبل إسلامه بالنزوع نحو التوحيد في الوقت الذي كانت فيه ظاهرة الشرك بالله تعالى شائعةً في معتقدات العرب الدينية في الجاهلية ، وظهر ذلك جلياً من خلال عزوفه عن عبادة الأوثان والأصنام ، ويبدو ان نزوعه نحو التوحيد له صلة (بالأحناف) ، وهو الذي تمسكوا بديانة النبي إبراهيم (عليه السلام) وقوامها التوحيد والتسليم لله تبارك وتعالى ، وكانوا قلة في شبه الجزيرة

---

[٤] هاشم يحيى الملاح : الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام ، الموصل ، ١٩٩٤ ص ٣١ – ٣٢ .

[٥] أبو نعيم ، احمد بن عبد الله الاصبهاني (ت : ٤٣٠ هـ / ١٠٣٩ م) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، بيروت (د : ت) ، ١ / ١٥٧ .

العربية [٦]. وبناء على ذلك فان معرفة ابي ذر بعقائدهم امر ليس ببعيد ولاسيما أن أساس عقيدتهم كان قائماً على نبذ عبادة الأوثان والأصنام . ويوضح أبو ذر نزوعه للتوحيد في ضوء حوار مع ابن أخيه بقوله ((صليت يا ابن أخي قبل ان ألقى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بثلاث سنين قلت : لمن ؟ قال : لله ، قلت : فأين كانت قبلتك ؟ قال : أتوجه حيث يوجهني ربي))[٧].

وفي ضوء هذا الحوار ، يتضح مدى نضج شخصية أبي ذر على المستوى الديني ، ذلك النضج الذي يكمن في رؤيته لحتمية زوال الإنسان ، فكان لا بد من البحث عن اليقين ، وكذلك المصير الذي سيؤول إليه بعد موته . كل ذلك ، كان في ذهن أبي ذو إشكالية تنتظر حلاً ليس من البشر ، بل من الله تبارك وتعالى ، ولا بد ان يكون ذلك ببعثة رسول كريم يهدي الى الطريق القويم في عبادة الإنسان لخالقه عز وجل .

تزامن وصول أبي ذر الى أطراف مكة المكرمة في الوقت الذي بدأ فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) الدعوة سراً الى الإسلام ، وهناك سمع أبو ذر بالرجل الذي يقول انه يتلقى وحياً من السماء ، ويدعو الى عقيدة التوحيد ، فارسل أخاه انيساً ليتحقق من الأمر ، وقال له ((اركب الى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم انه نبي يأتيه الخبر من السماء ، واسمع قوله ، ثم ائتني))[٨].

---

[٦] المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين (ت : ٣٤٦ – ٩٧٤ م) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ٢ / ٦١ .

[٧] ابو نعيم : حلية الأولياء ، ١ / ١٥٧

[٨] ابن سعد : الطبقات ، ٤ / ٢٢٠ .

ويظهر في النص تساؤل عن عدم ذهاب ابي ذر بنفسه لمقابلة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولعل السبب يكمن في الحذر من ذاته والمتمثل بالاندفاع نحو التصديق في الوقت الذي وصل فيه نزوعه نحو التوحيد الى أقصى مداه . ومن ناحية أخرى ، فان أخاه انيساً كان يمتلك معرفة بالكهانة ، وبأساليب الكهان وسجعهم وبيان لغتهم ، فجعل من أخيه وسيلة للتحقق من صدق النبوة ، فعندما عاد أنيس من رحلته ، سأله أبو ذر ((ما صنعت ؟ قال : لقيت رجلاً بمكة على دينك ، يزعم أن الله قد أرسله ، قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون شاعر وكاهن وساحر ، ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على إقراء الشعر فما يلتئم على لسان أحد بعدي انه شعر ، والله انه لصادق وانهم لكاذبون)) [٩].

وعندما وصل أبو ذر الى مكة المكرمة ، سال رجلاً عن مكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلاً ((أين هذا الذي تدعونه بالصابئ))[١٠]، ففزع الرجل لشيوع أمر الدعوة الجديدة التي أراد المشركون ان يقبروها في مهدها حتى بلغ خبرها الى من هم خارج مكة المكرمة ، ويصف أبو ذر ما جرى بعد السؤال ، إذ قال : ((فمال عليَّ أهل الوادي بكل مدرة وعظم ، فخررت مغشياً عليّ ... فأتيت

---

[٩] ابن عبد البر ، أبو عمر يوسف ابن عبد الله (ت : ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، القاهرة ، (د : ت) ، ٤ / ١١٢ ، ينظر ، ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين احمد بن علي (ت : ٤٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) الإصابة في تمييز الصحابة ، بيروت (د : ت) ، ١ / ٤٠ .

[١٠] أبو نعيم : حلية الأولياء ، ١ / ١٥٧ .

زمزم فغسلت عني الدماء وشربت من مائها))[11] . ويتضح من ذلك مدى مكابدته في الوصول الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، واستعداده للتضحية في سبيل تحقيق اليقين الديني الذي كان يبحث عنه دوماً .

ويصف أبو ذر اللقاء مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله : ((جاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى استلم الحجر ، وطاف بالبيت هو وصاحبه ، ثم صلى فلما قضى صلاته ، قلت : السلام عليك يا رسول الله ، فقال : وعليك السلام ورحمة الله ، ثم قال : من أنت ؟ قلت : من غفار ... فكنت أول من حياه بتحية الإسلام))[12]. وعقب هذا اللقاء ، ذهب أبو ذر مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى منزل أبي بكر (رضي الله عنه) واكل من زبيب الطائف ، اذ قال ((وكان ذلك أول طعام أكلته بها ، ثم أتيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : انه قد وجهت لي ارض ذات نخل ، ولا أراها الا يثرب ، فهل أنت مبلغ عني قومك عسى الله ان ينفعهم بك ويأجرك فيهم))[13].

---

[11] الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير (ت : ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) تاريخ الرسل والملوك ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ٢ / ١٥ ، ينظر علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، الإسكندرية ، ١٩٦٤ ، ٣ / ١٠٢ .

[12] السمهودي ، نور الدين علي بن احمد (ت : ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) وفاء الوفا بأخبار المصطفى ، بيروت ، ١ / ١٣١ . ابن الديبع ، عبد الرحمن بن علي الشيباني (ت : ٩٤٤ هـ / ١٥٣٧ م) تيسير الوصول الى جامع الأصول من حديث الرسول ، القاهرة (د : ت) ، ٢ / ٣٦ .

[13] ابن الأثير : أسد الغابة ، ١ / ٣٥٧ .

ولم يشا أبو ذر (رضي الله عنه) أن يغادر مكة المكرمة سـراً دون ان يتحدى المشركين في ذلك الوقت التـي كـانت فيـه الدعـوة الإسلامية في بواكيرها ، فقال للرسول (صلـى الله عليـه وسـلم) : ((والذي نفسي بيده لاصرخن بها بين ظهرانيهم ، فخرج حتـى أتـى المسجد ، فنادى بأعلى صوته : اشهد أن لا اله إلا الله وان محمداً عبـده ورسوله ، فقام المشركون بضربه حتى أضجعوه ، واتى العباس ابـن عبد المطلب عم الرسول (صلى الله عليه وسلم) فاكب عليه ، وقـال : ويلكم ألستم تعلمون انه من غفار ؟ وان طريق تجارتكم الـى الشـام ؟ فانقذه منهم)) [١٤].

غادر أبو ذر (رضي الله عنه) مكة المكرمة عائداً الى أمـه وأخيه ، موضحاً مجريات الأمر بقوله ((فأتيـت انيسـاً فقـال : مـا صنعت ؟ قال : قلت : صنعت أني قد أسلمت وصدقـت ، قـال : قـد أسلمت وصدقت ، فأتينا أمنا فقالت : فاني قد أسلمت وصدقت ، فسافرنا حتى أتينا قومنا غفاراً ، فاسلم نصفهم)) [١٥].

---

[١٤] أبو نعيم : حلية الأولياء ، ١ / ١٥٩ .

[١٥] الطوسي ، ابو نصر السراج (ت : ٣٨٧ هـ / ٩٨٨ م) اللمع ، القـاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٨٦ .

المحور الثاني : بناء الذات الإيمانية في صحبة الرسول (صلى الله عليه وسلم)

مكث أبو ذر (رضي الله عنه) في قبيلته غفار امتثالاً لامر الرسول (صلى الله عليه وسلم) زمنا طويلاً استغرق الأوقات التي هاجر الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيها الى المدينة المنورة ، ودخوله المعارك ضد المشركين ، وما نجم عنه من توطيد معالم دول الإسلام ، وعندها ظهر أبو ذر الغفاري (رضي الله عنه) في المدينة المنورة حيث صحبه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وليبدأ أبو ذر الغفاري ببناء ذاته الإيمانية ، إذ اصبح لأبي ذر مكانة خاصة عند الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذ ((كان رسول الله يبتدئ أبا ذر إذا حضر ، ويفتقده إذا غاب)) [١٦]. وقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) موجهاً حديثه الشريف الى الصحابة (رضي الله عنهم) : (من يلقاني على الحال التي أفارقه عليها ؟ قال أبو ذر : أنا يا رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام صدقت ، ثم التفت الى الصحابة فقال : ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة اصدق ولا أوفى من أبي ذر ، من سر أن ينتظر الى زهد عيسى بن مريم

---

[١٦] السهيلي ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت : ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م) كتاب الروض الآنف ، القاهرة (د : ت) ١ / ٢١٤ ، ينظر ، ابن سيد الناس ، محمد عبد الله (ت : ٧٣٤ هـ / ١٣٣٣ م) عيون الأثر في فنون المغازي والسير بيروت ، ١٩٨٦ ، ١ / ٩٦ .

فلينظر الى أبي ذر)) [١٧].

ان اختيار الرسول (صلى الله عليه وسلم) التشبيه بالنبي عيسى بن مريم (عليه السلام) له دلالته ، وذلك ان زهد النبي عيسى (عليه السلام) كان زهداً شمولياً في الدنيا ضمن أبعاد أخلاقية رفيعة ، وكذلك اتسمت ذات أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه) بتلك الخصلة الزهدية التي عاهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان يلقاه يوم القيامة وهو محافظ عليها ، إذ صرح بذلك بقوله : (أنا أقربكم مجلساً من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة ، فاني سمعته يقول : ان أقربكم مني مجلساً يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيئته يوم تركته فيها وانه والله ما منكم من احدٍ إلا وقد تشبث بشيء منها غيري))[١٨] . ويشكل إصرار أبي ذر (رضي الله عنه) على تحقيق ذاته كما استلهمها من حبه للرسول (صلى الله عليه وسلم) بعداً فاعلاً في ترصين ذاته الإيمانية ، ومرتكزاً في التعامل مع الآخرين .

وتتضح ذات أبي ذر (رضي الله عنه) الإيمانية في ميدان الجهاد في سبيل الله تعالى ، ففي سنة (٩ هـ / ٦٣٠ م) جهز الرسول (صلى الله عليه وسلم) جيشاً موجهاً الى تبوك في شماليّ شبه الجزيرة العربية لمواجهة الروم البيزنطيين ، وعندما خرج جيش المسلمين في المدينة المنورة ، لم يكن أبو ذر ضمن الجيش فتفقده

---

[١٧] البخاري ، محمد بن إسماعيل (ت : ٢٥٦ هـ / ٤٦٩ م) صحيح البخاري ، بيروت ، ١٩٨١ ، ٤ / ٢٢٤ ، ابن حنبل ، احمد بن محمد (ت : ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ م) المسند ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ١ / ١٢١ ، الترمذي ، محمد بن عيسى (ت : ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) ، سنن الترمذي ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ٢ / ١١٣ .

[١٨] ابن عبد البر : الاستيعاب ، ٤ / ٦٤ .

من الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان يوليه الإمارة على إحدى الجهات ، فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : ((يا أبا ذر انك ضعيف ، وأنها أمانة ، وأنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذي عليه فيها أني احب لك ما احب لنفسي ، لا تأمرن على اثنين ، ولا تولين مال اليتيم))[٢١]. وفي هذه الوصية حكمة نبوية شريفة ، لان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يعرف طبيعة أبي ذر (رضي الله عنه) وابعاد ذاته الحدية في التعامل مع الآخرين ، اذ سأله الرسول (صلى الله عليه وسلم) : ((كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يستأثرون بالفيء ، ويجيب أبو ذر : والذي بعثك بالحق ، افري بسيفي حتى الحق بك ، فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك ؟ اصبر حتى تلقاني)) [٢٢].

وتوافقا مع التكوين الذاتي لأبي ذر (رضي الله عنه) فقد أوصاه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بوصية قوامها ((إذا بلغ البناء سلعاً فاخرج ، واشار بيده الى جهة الشام))[٢٣].

شكلت توجهات الرسول (صلى الله عليه وسلم) أسساً حيوية تتوافق مع ذات ابي ذر (رضي الله عنه) الحدية ، فعندما اختلف أبو ذر مع بلال الحبشي (رضي الله عنه) ، قال له ابو ذر (رضي الله عنه) : ((يا ابن السوداء)) [٢٤].

---

[٢١] أبو نعيم : حلية الأولياء ، ١ / ١٦٩ ، ينظر ، عدنان علي رضا : لقاء المؤمنين ، الرياض ، ص ٣٢٢ .

[٢٢] ابن حنبل : المسند ، ١ / ١٢٤ .

[٢٣] أبو نعيم : حلية الأولياء ، ١ / ١٧٠ .

[٢٤] المسعودي : مروج الذهب ، ٢ / ٣٣٩ .

وعندما علم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بذلك غضب وصاح ((طف الصاع ! طف الصاع))[٢٥] أي تجاوز الأمر كل حد ، فلم يعد السكوت عليه ، ثم يعلن الرسول (صلى الله عليه وسلم) في مواجهة ابي ذر (رضي الله عنه) : ((ليس لابن البيضاء فضل على ابن السوداء)) [٢٦].

ويدرك أبو ذر (رضي الله عنه) مدى غضب الرسول (صلى الله عليه وسلم) فسرعان ما وضع أبو ذر (رضي الله عنه) وجهه على الأرض طالباً من بلال الحبشي (رضي الله عنه) ان يطأ خده بنعله [٢٧].

ان هذا السلوك الذي اتسم به أبو ذر (رضي الله عنه) جعل الرسول (صلى الله عنه وسلم) أن يضعه في إطار بنائه الذاتي القائم على مواجهة الآخرين ، ومن هنا حرص أبو ذر (رضي الله عنه) على تلقي الدروس والوصايا من الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، قال أبو ذر (رضي الله عنه) : ((قلت : يا رسول الله أوصني ، قال : أوصيك بتقوى الله ، فانه راس الأمر كله ، قلت : يا رسول الله زدني ، قال عليك بتلاوة القران ، فانه نورك في الأرض ، وذكر لك في السماء ، قلت : يا رسول الله زدني ، قال : إياك وكثرة الضحك ، فانه يميت القلب ، ويذهب بنور الوجه ، قلت : يا رسول الله زدني ، قال : عليك بالصمت إلا في خير ، فانه مطردة للشيطان عنك وعون

---

[٢٥] نفس المصدر والجزء والصفحة .

[٢٦] نفس المصدر ، ٢ / ٣٤٠ .

[٢٧] نفس المصدر والجزء والصفحة ، ينظر محمد عمارة ، فجر اليقظة القومية ، القاهرة (د: ت) ، ص ٩٠ .

لك على أمر دينك ، قلت : يا رسول الله زدني ، قال : احب المساكين وجالسهم ، قلت : يا رسول الله زدني ، قال : انظر الى من تحتك ولا تنظر الى من فوقك ، فانه اجدر ان لا تزدري نعمة الله عندك ، قلت : يا رسول الله زدني ، قال : صل قرابتك وان قطعوك ، قلت : يا رسول الله زدني ، قال :لا تخف في الله لومة لائم ، قلت : يا رسول الله زدني قال :قل الحق وان كان مراً ، قلت : يا رسول الله زدني ، قال : ردك عن الناس ما تعرف عن نفسك ، ولا تجد عليهم فيما يأتي وكفى عيباً ان تعرف من الناس ما تجهل عن نفسك ، أو تجد عليهم فيما يأتي ، وضرب بيده على صدري ، وقال : يا أبا ذر ، لا عقل كالتدبير ، ولا ورع كالكف ، ولا حسب كحسن الخلق))[٢٨].

لقد سأل أبو ذر (رضي الله عنه) سيدنا محمدا (صلى الله عليه وسلم) الأمور التي يعتمد عليها في بناء ذاته الإيمانية ، وبناء مرتسم سلوكي قوامه الموازنة بين متطلبات الحياة الدنيا ، والاستعداد للآخرة مما أدى الى تكوين أيماني لذات أبي ذر (رضي الله عنه) .

المحور الثالث : جدلية أبي ذر (رضي الله عنه) الاجتماعية

بهدف معرفة دور أبي ذر (رضي الله عنه) في عهد الخلافة الراشدة ، لا بد من إعطاء صورة تاريخية موجزة للتحولات الاقتصادية والاجتماعية لصلتها بسيرة أبي ذر ومواقفه منها . ففي خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) (١٣ ــ ٢٤ هــ / ٦٣٤ ــ ٦٤٤ م)

---

[٢٨] أبو نعيم : حلية الأولياء ١ / ١٦٨ – ١٦٩ .

امتدت الفتوحات العربية الإسلامية لتشمل العراق ، والشام ، ومصر وتوابعها الإدارية ، ونتيجة لذلك وصلت أموال الفيء إلى حد الثروات الطائلة ، ووزعها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) على وفق نظام العطاء الذي اعتمده وفقاً للسابقة في الإسلام ، ولكن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أدرك مخاطر الثروات والأموال ، وفي نفس الوقت حرص على إيجاد موارد لبيت مال المسلمين لصرف رواتب الجند المجاهدين في سبيل الله تعالى [٢٩] ، وعلى وفق ذلك اتخذت الإجراءات الآتية :

١. منع المسلمين الفاتحين من امتلاك الأراضي الزراعية المفتوحة في مصر والشام والعراق ، وقرر جعل ملكيتها عامة لبيت مال المسلمين ، يفلحها سكان البلاد الأصليون ، ويصرف خراجها في مصالح المسلمين ومنه عطاء الجند وغيرها .
٢. منع كبار الصحابة من التفرق بالأمصار المفتوحة والاستقرار فيها حتى يمنع اشتغالهم بجمع المال ، وتكوين العصبيات ، وكلما كان قدر الصحابي عالياً ، ومركزه في الإسلام سامياً ، كان عمر (رضي الله عنه) عليه اشد ، وأوضح ذلك لعبد الله بن عباس (رضي الله عنه) في هذا الشان بقوله ((اني رأيت رسول الله

---

[٢٩] البلاذري ، أبو الحسن احمد بن يحيى (ت : ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) فتوح البلدان ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٤٤ ، ابن سلام ، أبو عبيد القاسم (ت : ٢٢٤ هـ / ٨٣٨ م) ، كتاب الأموال ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ١٢٤ ، ابن عبد الحكم عبد الرحمن بن عبد الله (ت : ٢٥٧ هـ م ٨٧٠ م) فتوح مصر وأخبارها ، ليدن ١٩٣٠ ، ص ٨٨ ، عبد العزيز الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ٥٥ – ٥٦ .

(صلى الله عليه وسلم) أستعمل الناس وترككم ، والله ما ادري اصرفكم عن العمل ورفعكم عنه ، وانتم أهل لذلك ، ام خشي ان تعاونوا لمكانكم منه فيقع العتاب عليكم ، ولا بد من عتاب)) [٣٠].

٣. اخذ عمر (رضي الله عنه) على نفسه وعلى غيره بحياة التقشف فاشتد على عماله وولاته شدة معروفة في محاسبتهم ، وكان نموذجاً في الزهد ، ففي رحلته الى الحج انفق ستة عشر ديناراً ، ومع ذلك يقول لابنه عبد الله ((لقد أسرفنا في نفقتنا في سفرنا هذا))[٣١].

ان الشدة التي اعتمد عليها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لم تستمر في خلافة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وذلك ان عثمان (رضي الله عنه) كان ليناً رقيقاً فلذلك ، انتشر الكثير من الصحابة في الأمصار من الذين استبقاهم عمر (رضي الله عنه) في المدينة المنورة واستطاع بعض الصحابة الحصول على اقطاعات زراعية ، وتزامن مع ذلك تغير العمال والولاة الذين كانوا يخشون شدة عمر (رضي الله عنه) مما جعل المسلمين يشعرون بشيء من الضيق من إدارتهم في الأمصار [٣٢].

وانعكست هذه التطورات الإدارية على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لدى عدد كبير من الصحابة والولاة والعمال ، ويصف جمال الدين الأفغاني تلك المتغيرات بقوله ((في زمن قصير من خلافة عثمان (رضي الله عنه) تغيرت الحالة الروحية في الأمة تغيراً

---

[٣٠] أبو يوسف ، القاضي يعقوب بن إبراهيم ، (ت : ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م) كتاب الخراج ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٤٣ .

[٣١] المسعودي ، مروج الذهب ، ٢ / ٣٤٣ .

[٣٢] نفس المصدر ، ٢ / ٣٥١ – ٣٥٢ .

محسوساً ، واشد ما كان منها ظهوراً في سيرة العمـــال ، والأمـــراء ، وذوي القربى من الخلافة ، وأرباب الثروة ، بصورة صار يمكن معـــها الحس بوجود طبقة تدعى (أمراء) وطبقة (أشراف) وأخـــرى أهـــل ثراء باذخ ، وانفصل عن تلك الطبقات : طبقة العمال وابناء المجـاهدين ومن كان على شاكلتهم من أرباب الحمية والسابقة في تأســيس الملــك الإسلامي وفتوحاته ، ونشر الدعوة ، وصار يعوزهم المال الذي يتطلبه طراز الحياة ، والذي أحدثته الحضارة الإسلامية ، اذ كانوا مـــع كـــل حريتهم وسعيهم وراء تدارك معاشهم لا يستطيعون اللحاق بالمنتمين الى العمال ورجال الدولة ، وقد فشت العزة والأثرة والاستطالة ، وتوافـرت مهيئات الترف في حاشية الأمراء وأهل عصبيتهم ، وفي العمال ، فنتج من مجموعة تلك المظاهر التي أحدثها وجود الطبقات المتمـــيزة مـــن طبقات العاملين والفقراء من المسلمين ، تكون طبقة أخـــذت تتحســس بشيء من الظلم ، وتتحفز للمطالبة بحقهم المكتسب من موارد الفـــيء ، ومن سيرتي الخليفة الأول والثـــاني ، أبـــي بكر وعمر (رضـــي الله عنهما) ، وكان أول من تنبه لهذا الخطر الذي يتهدد الملـــك والدولـــة الإسلامية الصحابي الجليل أبو ذر الغفاريِ))[٣٣].

لقد ذهب الأفغاني بعيداً فـــي تحليلـــه للأوضـــاع الاقتصاديـــة والاجتماعية في خلافة عثمان (رضي الله عنه) ، فمفـــهوم الطبقيـــة مرفوض في وقائع التاريخ الإسلامي ، كما يفهم من طرحـــه ان قـــوام الخلافة الراشدة يرتكـــز على المناحرات بين الصحـــابة (رضـــي الله عنهم) فضلاً عن اعتماده على منظور حديث في تحليل الوقائع فلا بـــد

---

[٣٣] الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٢١ – ١٢٢

من الرجوع الى زمن الخلافة عثمان بن عفـان (رضـي الله عنـه) لمعرفة إشكالية التطورات التي حصلت فعلاً ، ولكن بإطـار إسـلامي متوازن . لقد كان طبيعياً ان يحصل اختلاف في الآراء وتبـاين فـي وجهات النظر في مسالة الخيارات المالية بين كبار الصحابة وكثير من المسلمين وكان منطقياً بل ضرورياً ان تؤدي تلك التغيرات الاجتماعيـة الى اختلاف وتباين في الزوايا التي ينظر منها المجتمع الى الأمـور ، وبناء على ذلك ، كانت البداية عندما حذر أبي ذر الصحابة (رضي الله عنهم) من تكديس الثروات ، ويقول لهم : (والله ما من أحدٍ إلا وقـد نشب فيها بشيء غيري))[٣٤]. وكان ايضاً دائم التحذير والانذار للذيـن يجمعون الأموال ويستنفذون أنفسهم في سبيل جمعها ، فيذكر لهم قـول الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن المكثرين من المال وكيـف ((ان الاكثرين هم الاقلون يوم القيامة))[٣٥]. ورفعـت بعض الأخـبار الـى عثمان بن عفان (رضي الله عنه) عما يقوم به ابي ذر من مواجهـة الأغنياء فنصح عثمان (رضي الله عنه) أبا ذر الغفاري بالكف عـن ذلك ، تحاشياً للإثارة والاختلاف ، إلا ان أبا ذر المعـروف بسـلوكه الحدي في التشخيص ، استمر في الحديث في المجالس ، يروي فيـها أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذات صلة بخطـورة جمـع الأموال والإفتاء بين الناس ، فوقف رجل على أبي ذر فقال له : ((ألـم ينهك أمير المؤمنين عن الفتيا ؟ فقال له أبـي ذر : والله لـو وضعتـم الصمصامة (السيف) على هذه (واشار الى حلقه) علـى ان اتـرك

---

[٣٤] أبو نعيم : حلية أولياء ، ١ / ١٦٢

[٣٥] ابن سعد : الطبقات ، ٤ / ٢٢١ .

كلمة سمعتها من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . لانفذتها ، قبل ان يكون ذلك))[٣٦].

ولم تقتصر أحاديث أبي ذر (رضي الله عنه) بعيداً عن حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضي الله عنه) بل في مجلسه كذلك ، فكثيراً ما كانت تثار تلك النقاشات في مجلس عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ، حول مسائل إنفاق المال ، ومحورها مواقف أبي ذر (رضي الله عنه) وتنبغي الإشارة الى تلك المناقشات ليس هدفها الاختلاف أو الاحتراب ، بل لتوضيح وجهات النظر ، فكان رأي أبي ذر فرض اكثر ما هو من الزكاة في أموال الناس ، والحد من ملكيات بعض الولاة في الأمصار ، قال عثمان (رضي الله عنه) : ((ارايتم من زكى ماله ، هل فيه حق لغيره ؟ فقال كعب الأحبار (رضي الله عنه) : (لا يا أمير المؤمنين ، فدفع ابو ذر في صدر كعب ، وقال له : كذبت يا ابن اليهودية ، ثم تلا قوله تعالى :

((لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ))[٣٧]

فقال عثمان : أترون باساً ان نأخذ مالاً من بيت مال المسلمين فننفقه فيما ينوبنا من أمور ، ونعطيكموه ؟ فقال كعب : لا باس بذلك ، فرفع أبو ذر العصا ، فدفع بها في صدر كعب ، يا ابن اليهودية ما

---

[٣٦] نفس المصدر السابق ، ٤ / ٢٢٣ .

[٣٧] سورة البقرة / الآية ١٧٧ .

اجرأك على القول في ديننا ، فقال عثمان : ما اكثر أذاك لي ، غيب وجهك عني ، فخرج أبو ذر الى الشام)) [٣٨].

وعندما خرج أبو ذر (رضي الله عنه) من مجلس أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضي الله عنه) سأله الصحابة اشفاقاً عليه وعلى أمير المؤمنين ، فقال أبو ذر : ((والله لو ان عثمان صلبني على أطول خشبة لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ، ورأيت ان ذلك خير لي)) [٣٩]. إذن ، المسألة ليست احترابا ، وأنا السبب يكمن في طريقة أبي ذر (رضي الله عنه) في التعامل مع الآخرين وأسلوبه الذي لم يتغير في الطرح ولكنه لا يخرج عن تعاليم الإسلام وطاعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وخلفائه (رضي الله عنهم) فهذه الحدية في النقاش ليست مثلبة على أحد من الصحابة (رضي الله عنهم) ، ورأينا ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما سمع بكلام ابي ذر حيال بلال (رضي الله عنهما) عندها صاح عليه الصلاة والسلام ، طف الصاع ، فأبو ذر يناقش بحدة واضحة ، ولكن سرعان ما يظهر معدنه وجوهره في طاعة أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضي الله عنه) .

وعندما وصل أبو ذر الى بلاد الشام ، لم ينتظر طويلاً في الدعوة الى إنفاق الأموال على مستحقيها منذراً من يحجم عن فعل ذلك وبلاد الشام آنذاك كانت في ولاية معاوية بن أبي سفيان عليها ، وكان معاوية قد اخذ جملة إجراءات تمخض عنها إعطاء هيبة إدارية لولايته في بلاد الشام منذ خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، فعندما

---

[٣٨] المسعودي : مروج الذهب ، ٢ / ٣٤٩ .

[٣٩] نفس المصدر ، ٢ / ٣٥١ .

زار عمر (رضي الله عنه) تلك الأرجاء ((قدم الشام ، فتلقاه ابن ابي سفيان في موكب عظيم ، ونزل معاوية وسلم على عمـــر بالخلافـــة ، فمضى في سبيله ، ولم يرد عليه السلام ، فقال له عبد الرحمـــن بـــن عوف ، أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين ، فلو كلمته ؟ فالتفت عمر الـــى معاوية ، وسأله : انك لصاحب الموكب الذي أرى ؟ فقال معاوية : نعم قال عمر : ولم ويحك ؟ فاجابه معاوية : لأننا ببلاد كثرت بها جواسيس العدو ، فان لم نتخذ العدة والعدد استخف بنا وهجم علينا ، واما الحجاب فأننا نخاف من البذلة وجرأة الرعية ، وأنا بعد عاملك ، فان استنقصتني نقصت ، وان استزدتني زدت ، وان استوقفتنـــي وقفت ، قال عمـــر : (بعد ان سكت هنيهة) ما سألتك عن شيء إلا خرجت منه ، إن كنـــت صادقاً فانه رأي لبيب وان كنت كاذباً فانه خدعة أريب ، ولا آمرك ولا أنهاك))[٤٠].

وعندما وصل ابو ذر الى الشام دخل في نقـــاش كعادتـــه مـــع ومعاوية بن أبي سفيان ، إذ سأله ((يا معاوية ما يدعوك الى ان تسمي مال المسلمين مال الله ؟ قال معاوية : يرحمك الله يا أبا ذر ، السنا عباد الله والمال ماله ، والخلق خلقه ، والأمر أمره ؟ قال أبو ذر : لا تلقها ، قال معـــاوية : فاني لا أقـــول انه ليـــس لله ، ولكـــن ســـأقول مـــال المسلمين))[٤١]. وواضح أن أبا ذر أراد من نقاشه لمعاوية التحذير مـــن إنفاق الأموال في أوجهه الخاصة ، لان معنى مال المسلمين في ذهـــن ابي ذر هو ان ينفق على المسلمين وليس لأغراض أخرى . ومن هنـــا

---

[٤٠] ابن الأثير ، عز الدين علي بن محمد (ت : ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) الكامل في التاريخ ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ٣ / ٥٥ – ٥٦ .

[٤١] نفس المصدر ، ٣ / ٥٦ .

فقد ختم أبو ذر نقاشـــه بقوله ((يا معاوية لقد أغنيت الغنـــي وأفقـــرت الفقير))[42].

وانطلق أبو ذر الى المجتمع الشامي مخاطباً إياهم بقوله ((يـــا معشر المسلمين واسوا الفقراء ، بشر الذين يكنزون الذهب والفضـــة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكـــوى بـــها جباهـــهم وجنوبـــهم وظهورهم))[43]. ووجدت دعواته استجابة اجتماعيـــة ((حتـــى ولـــع الفقراء بمثل ذلك واوجبـــوه على الأغنياء ، وشكا الأغنياء ما يلقـــون منهم)) [44]. ونتيجة لذلك توعده معاوية قائلاً ((يا أبا ذر خير لـــك ان تنتهي مما أنت فيه ، قال أبو ذر : والله لا انتهي حتى توزع الأمـــوال على الناس كافة))[45]. وعلى اثر ذلك ، كتب معاوية الى عثمان بـــن عفان (رضي الله عنه) كتـــاب ضمنه مجريـــات الأمور مع أبـــي ذر (رضي الله عنه) ، وعلى اثر ذلك أمر عثمان بعودة أبي ذر (رضي الله عنه) الى المدينة المنورة [46].

وصل أبو ذر (رضي الله عنه) الى المدينة المنورة فاستضافه عثمان بن عفان (رضي الله عنه) عدة أيام ، وفي أول جولة لأبـــي ذر في المدينة لاحظ امتدادات العمران فيها ، والتقى مـــع أبـــي الـــدرداء (رضي الله عنه) وهو يبني بيتا ، فقرعه أبو ذر قائلاً ((حملت الآجر على أعناق الرجال ، قال أبو الدرداء : إنما هو بيت ابنيه ، قال أبو ذر

---

(42) المسعودي : مروج الذهب ، ٢ / ٣٤٩ .
(43) ابن سعد : الطبقات ، ٤ / ٢٢٤ .
(44) ابن الأثير : الكامل ، ٣ / ٥٧ .
(45) نفس المصدر والجزء والصفحة .
(46) المسعودي : مروج الذهب ، ٢ / ٣٤٩ .

بحدة : حملت الأجر على أعناق الرجال ، قال أبو الدرداء ، لعلك وجدت نفسك علي من ذلك ؟ يرد أبو ذر بقوة : لو أني وجدتك في عذرة أهلك ، كان أحب الي مما رايتك فيه))[٤٧]. وأبو الدرداء صحابي جليل شهد من المعارك ضد المشركين ما لم يره أبو ذر ، بل كان زاهدا في الدنيا ، وكل ما فعله انه يبني بيتا ، لانه يرى في نفسه ما يريد للآخرين ، ومن ناحية أخرى . فان أبا الدرداء هو الآخر لا يقل عن أبي ذر غضبا عندما يجد بذخا وترفا ، فقد ذهب الى عرس ((سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فلما دخل وجدهم قد غطوا الجدران بقماش اخضر ، فغضب أبي الدرداء ، وقال لعبد الله بن عمر : ما هذا يا ابن عمر ، أتسترون الجدران . فاستحيا عبد الله بن عمر وقال في خجل : غلبتنا النساء ، فقال أبو الدرداء : لم اكن أخشى عليك ان تغلبك النساء ، والله لا أكلت لك طعاما))[٤٨]. ومن هنا يتضح المفهوم الذاتي للصحابة (رضي الله عنه) لمعنى الزهد في الدنيا ما بين الاعتدال والحدية المتناهية كما يريدها أبو ذر (رضي الله عنه) .

لم يكن امتداد العمران في المدينة بعيدا عن ذهن أبي ذر (رضي الله عنه) . فقد أوصاه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بنبوءته الصادقة ، بان عليه أن يغادر المدينة إذا بلغ البناء سلعا ، ومع ذلك ، فقد حذر أبو ذر مجتمع المدينة المنورة بقوله : ((بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحب مذكار))[٤٩].

---

[٤٧] ابن سعد : الطبقات ، ٤ / ٢٢٥ .

[٤٨] أبو نعيم : حلية الأولياء ، ١ / ١٦٠ .

[٤٩] ابن الأثير : الكامل ، ٣ / ٥٨ .

لقد كانت تلك آخر التحذيرات التي أطلقها أبو ذر (رضي الله عنه) إذ عاد الى عثمان بن عفان (رضي الله عنه) لتبدأ آخر رحلة من سيرة أبي ذر (رضي الله عنه) إذ حاول عثمان ان يقنعه بان بإقامة الشرع في الأموال قائلاً ((يا أبا ذر عليَّ أن اقضي ما علي ، وان أدعو الرعية الى الاجتهاد والاقتصاد ، وما عليَّ أن أجبرهم على الزهد))[٥٠]. وتزامن حديث عثمان بن عفان لأبي ذر (رضي الله عنهما) مع جلب أكياس النقود من تركة عبد الرحمن بن عوف (رضي الله عنه) وكانت كثيرة ، فجرى حولها نقاش ، تمخض عنه تباين الآراء ما بين وجوب الزكاة التي كان يؤديها عبد الرحمن بن عوف (رضي الله عنه) وبين رأي ابي ذر ان هذه الأموال حجة على ابن عوف وليس له))[٥١].

ومن الأمور المهمة في هذا الموقف الإشارة الى ان موقف أبي ذر كان موقف المطيع فعندما تلمس أبو ذر ضيق عثمان بن عفان (رضي الله عنه) قال أبو ذر (رضي الله عنه) : ((احسبتني منهم يا أمير المؤمنين ؟ والله ما أنا منهم ، ولا ادركهم (أي حسبتني من الداعين الى الفتنة وخلع طاعتك) ، والله ما أنا منهم ، ولا اصل الى ما وصلوا إليه)) ، لو أمرتني ان اخذ بعرقوبي قتب لأخذت بها حتى أموت))[٥٢].

ويتضح من ذلك ، ان ابا ذر (رضي الله عنه) لم يكن غاضباً على عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وانما كان يسير على وفق

---

[٥٠] المسعودي : مروج الذهب ، ٢ / ٣٤٩ .

[٥١] نفس المصدر ، ٢ / ٣٥٠ .

[٥٢] ابن الأثير : الكامل ، ٣ / ٥٨ .

منهج الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخلفائه الراشدين ، فاستأذن أبو ذر (رضي الله عنه) عثمان في الخروج الى (الربذة) في شمالي المدينة في الطريق الى بلاد الشام ، فأذن له عثمان (رضي الله عنه) [٥٣].

استقر المقام بابي ذر (رضي الله عنه) في الربذة ، فبنى بالربذة مسجداً ، وقوام حياته المعيشية من عطاء أجراه عليه عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وعدد من الإبل منحها له ، ومملوكين لخدمته وعاش هناك ما بين عامي (٣٠ - ٣٢ هـ / ٦٥٠ - ٦٥٢ م) وعندما حضره الموت ، بكت امرأته واصفة ظروف وفاته فقال ابو ذر ((ما يبكيك ؟ فقالت : ابكي انه لا بد لي من تكفينك ، وليس عندي ثوب يسع لك كفناً ، فقال : لا تبكي ، فاني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض ، تشهده عصابة من المؤمنين .... فراقبي الطريق ، فانك سوف ترين ما أقول لك ، أني والله ما كذبت ولا كذبت ، فقالت : وانى ذلك فقد انقطع الحاج ؟ قال راقبي الطريق فبينما هي كذلك ، إذ هي بقوم تخب بهم رواحلهم كأنهم الرخم ، فاقبل القوم حتى وقفوا عليها ، فقالوا : مالك ؟ فقالت : امرؤ من المسلمين تكفنونه وتؤجرون فيه ، قالوا ومن هو ؟ قالت : أبي ذر ففدوه بآبائهم وأمهاتهم .... فقال أبي ذر : ابشروا فانتم النفر الذي قال فيكم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم قال : أصبحت اليوم كما ترون ، ولو ان ثوباً من ثيابي يسعني لم أكفن إلا فيه فانشدكم بالله لا يكفنني رجل كان أميراً أو عريفاً أو بريداً ، فكان القوم

---

[٥٣] المسعودي : مروج الذهب ، ٢ / ٣٥١ .

كلهم في شيء مما قال إلا فتى من الأنصار كان معـــهم ، قـــال : أنـــا صاحبه ، الثوب في عيبــتي من غــزل أمـــي ، قال أبـــو ذر : أنـــت صاحـــبي فكفني)[٥٤].

وبعد وفاته في عام (٣٢ هــ / ٦٥٢ م) دفنته تلك العصبـــة المؤمنة (رضي الله عنهم) وصلى عليه عبد الله بن مسعود (رضـــي الله عنه) ، إذ كان مع أولئك النفر الذين شهدوا موته ، وحملوا عيالــــه إلى عثمان بن عفان (رضي الله عنه) في المدينة المنورة فضمهم الى عياله وقال ((يرحم الله أبا ذر))[٥٥].

لقد تحققت نبوءة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في أبـــي ذر (رضي الله عنه) : ((يرحم الله أبا ذر ، يمشـــي وحـــده ، ويمـــوت وحده ، ويبعث يوم القيامة وحده))[٥٦].

كان أبو ذر (رضي الله عنه) نموذجاً للإنسان المســلم الـــذي استطاع أن يوحد توحيداً تكاملياً ما بين ســـلوكه العملـــي فـــي الحيـــاة والأفكار التي آمن بها والتي دعا إلى تطبيقها .

للصحبة كرامة وكرامة أبي ذر (رضي الله عنه) تجسدت فـــي صحبة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومن هنا يمكن قياس أحـــاديث أبي ذر (رضي الله عنه) عندما يبدؤها بكلمة (خليلي) ويقصد بــــها الرسول (صلى الله عليه وسلم) مما يشير الى مدى نفوذ كلمات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في روحه وقلبه بحيث شكلت نور سار الى ابو ذر هديه ، فقد كان أبو ذر يحرص على عرض دقـــائق ملازمتـــه

---

[٥٤] ابن الأثير : أسد الغابة ، ١ / ٣٥٨ .

[٥٥] نفس المصدر والجزء والصفحة .

[٥٦] ابن حجر : الإصابة ، ١ / ٨٠ .

الرسول (صلى الله عليه وسلم) تعلماً وتعليماً له ولغيره من الصحابة (رضي الله عنهم) ، قال أبو ذر ((دخلت المسجد وإذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جالس وحده فجلست إليه فقال : يا أبا ذر ان للمسجد تحية ، وان تحيته ركعتان فقم فاركعها ، قال فقمت فركعتها ثم عدت فجلست إليه ، فقلت : يا رسول الله انك أمرتني بالصلاة ، فما الصلاة ؟ قال : خير موضوع استكثر أو استقل ، قلت : يا رسول الله فأي الأعمال افضل ؟ قال : إيمان بالله عز وجل ، وجهاد في سبيله ، قلت : يا رسول الله فأي المؤمنين أكملهم أيماناً ؟ قال : أحسنهم خلقاً ، قال : قلت يا رسول الله فأي الهجرة افضل ؟ قال من هجر السيئات ، قال قلت يا رسول الله ، فأي الصلاة افضل ؟ قال : القنوت ، قال : قلت يا رسول الله فأي الجهاد افضل ؟ قال : من عقر جواده واريق دمه ، قال : قلت يا رسول الله فأي الرقاب افضل ؟ قال : أغلاها ثمناً وانفسها عند ربها ، قال : قلت يا رسول الله ، فأي الصدقة افضل ؟ قال : جهد من قل يسر الى فقير))[٥٧].

وبناء على ذلك يمكن فهم أبعاد زهد أبي ذر (رضي الله عنه) الذي اقتبسه من الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فزهده لم يكن عزوفاً عن الدنيا وادارة الظهر لمشكلاتها وأحداثها ، وانما كان زهداً عملياً ، يرفض الانغمار باللذات والترف ، لانه كان يؤمن بان الانعزال والانكفاء لا يحل المشكلات الاجتماعية ، وفي مقدمتها مشكلة توزيع الأموال التي كان يرى أن للفقراء حقوقاً فيها على الأغنياء . وهذا النزوع الذي لم يأت من فراغ إذ ((كان أبو ذر (رضي الله عنه)

---

[٥٧] أبو نعيم : حلية الأولياء ، ١ / ١٦٦ .

للرسول (صلى الله عليه وسلم) ملازماً وجليساً ، وعلى مساءلته والاقتباس منه حريصاً ، وللقيام على ما استفاد منه انيساً ، سأله عن الأصول والفروع ، وسأله عن الإيمان والإحسان ، وسأله عن رؤية ربه تعالى ، وسأله عن احب الكلام الى الله تعالى ، وسأله عن ليلة القدر أترفع مع الأنبياء أم تبقى ، وسأله عن كل شيء حتى عن مس الحصى في الصلاة))[٥٨].

الخاتمة

يتضح من دراسة سيرة أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه) ، ان هذه الشخصية اتسمت في تكوينها الأولي قبل الإسلام بنزوعها نحو التوحيد في المجال الديني واكتنف ذلك أبعاد في شخصيته منبعها انتماؤه القبلي وبكل ما يتضمنه هذا الانتماء من الأعراف والتقاليد العربية ، وفي مقدمتها الشجاعة والإقدام والعفة ، ولكن ظروف الحياة الاقتصادية ، جعلت من أبي ذر لا يخرج عن عرف القبلية بإباحة الغزو وسلب القوافل التجارية ، وكلا البعدين المتمثلين في البحث عن اليقين الديني ورؤيته لطريقة وجود الثروات بين من يملك ومن لا يملك كانا يعملان في نفسه بحدة واضحة ، وبعد لقائه الأول مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) تحول بشكل إيجابي في سيرته (رضي الله عنه) إذ عمل بعد إسلامه على نشر الدين الإسلامي في قبيلة غفار ، وظهر من خلال صحبته للرسول (صلى الله عليه وسلم) ان ابا ذر (رضي الله عنه)

---

[٥٨] نفس المصدر السابق ، ١ / ١٦٨ .

استوعب ما قاله (صلى الله عليه وسلم) ذلك الاستيعاب الذي لم يقف عند حدود التلقي بل تعداه الى التطبيق العملي ، ومن هنا فقد عاهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن ينفذ وصيته بان يقول الحق مهما كان مراً . والحقيقة فان أبا ذر (رضي الله عنه) الى جانب مكانته عند الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يتصرف بشكل جعل الرسول (صلى الله عليه وسلم) يغضب غضباً شديداً ، والرسول (صلى الله عليه وسلم) لا يغضب إلا لله تعالى ولاحظنا ذلك ، عندما عيَّر أبو ذر (رضي الله عنه) بلالاً (رضي الله عنه) بسواد لون بشرته ، قائلاً يا ابن السوداء ، مما جعل الرسول (صلى الله عليه وسلم) يصيح بأعلى صوته (طف الصاع ، طف الصاع) ، مما جعل ابا ذر (رضي الله عنه) في موقف صعب للغاية ، وخرج منه بإعطائه درساً لنفسه ولغيره بان وضع خده على الرمل طالباً من بلال (رضي الله عنه) ان يطأ رأسه بنعله حتى يتعلم أبا ذر (رضي الله عنه) كيف يحترم صحابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويدرك معنى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل .
وتصدى أبو ذر (رضي الله عنه) لمسألة توزيع الأموال والثروات بين التحذير من عواقب الآخرة ، بين الدخول في حوار حاد مع الصحابة (رضي الله عنهم) وهدفه من ذلك إشاعة الأمان الاجتماعي المرتكز على عدالة توزيع الثروات والأموال ، طالباً توزيعها ليس على وفق الزكاة فحسب ، بل توزيع كل ما يزيد على حاجة المسلم ، أنها صورة مثالية حاول أبو ذر (رضي الله عنه) ان يطبقها في المجتمع الإسلامي . وبعد أداء دوره ، نفذ ما تنبأ الرسول (صلى الله عليه

وسلم) له بوجوب مغادرته المدينة المنورة إذا بلغ العمران فيها سـلعاً على مسافة ثلاثة أميال من المدينة نفسها ، فاختار (رضي الله عنـه) الذهاب الى الربذة وتحققت نبوءة الرسول (صلى الله عليـه وسـلم) بشأنه ، يعيش وحيداً ، ويموت وحيداً ، ويبعث يوم القيامة وحيداً أمـة واحدة وحده ، إذ توفي في الربذة في عام (٣٢ هـ / ٦٥٢ م) ودفنته عصبة من المؤمنين (رضي الله عنهم) .

اشكالية العلاقة بين العيارين والشطار والسلطة البويهية

٣٣٤هـ – ٤٤٧هـ/٩٤٥–١٠٥٥م

د. موفق سالم نوري

جامعة الموصل – كلية الآداب

ملخص البحث :

تناول البحث حركة العيارين والشطار بوصفها ظاهرة اجتماعية لافتة للنظر احاطها الباحثون بقدر كبير من العناية ونعتوها بالمقاومة الشعبية المسلحة والثورة الشعبية التي تصدت للغزو البويهي، فعرض البحث لهذه الفرضية، وقد تم التوصل الى انه لم يكن للحركة اية ابعاد سياسية . وان هذه الا[illegible]ية انطلقت من قراءة ايديولوجية . وقراءة منهجية مخطئة لهذه الحركة ووقائع تاريخها . فهي لم تكن اكثر من فرز طبيعي لواقع اقتصادي سيء عانى فيه الفقراء ظروفا قاسية الى حد كبير مع عدم وجود اية محاولات جادة وحقيقية لمعالجة هذه (الاوضاع) فكان من الطبيعي ان تتولد من ذلك ردود فعل سلبية خطيرة تمثلت بحركة العيارين والشطار .

تمهيـــد :

لعل حركة العيارين والشـطار كانت من أكثر الحركـات الاجتماعيـة والظواهر التاريخية اثارة لاهتمام المعنيين قديما وحديثا . واذا كان القدامـى قد اتفقوا على نقد الحركة ونعتها باشنع النعوت . فان غالبية المحدثين راحـوا يكيلون لها الاوصاف التي تمجدها وترفع من شأنها . ومما جاء في هـــذه التوصيفات : « كانت حركة العيارين والشطار خلال حقبة الغزو البويهي حركة مناهضة للتسلط الاعجمي بسياساته ومبادئه »[1] . و « أنها تمثل ، دون شك وجها من وجوه المقاومة الشعبية للتعسف البويهي والتسـلط الاعجمي »[2] . كما انها تمثل « ثورة ضد الاسياد السياسيين وضو اسياد المال »[3] . فضـلا عن كونها تمثل (حركات ثورية عنيفة) ضد (السلطة الاجنبية) و (التغاسب الاجنبي)[4] . كما انها مثلت « ادانة لهذا العصر وثورة على فئة محددة قـدر لها في ظروف سياسية وتاريخية معينة ان تستأثر لنفسها بالسلطة او المـال او بهما معا »[5] . وان الذين تعرضوا لهجمات العيارين والشطار من اصحـاب المال هم « بطانة السلطة »[6] . وهكذا انصب تقويم الباحثين لهذه الفئة علـى انها جسدت حركة ثورية شعبية خاضت نضالا عنيفا ضد السلطة الاجنبية وضد اصحاب الاموال ، وكان لسان حال هؤلاء الباحثين يقول ان حركة العيـارين والشطار مارست نضالا قوميا وطبقيا على طريقة الكفاح الشعبي المسلح . وهو ما يحسن التوقف عنده على ضوء المعالم الاتية :

---

(١) د. فاروق عمر فوزي ، النهوض العربي في العراق ١٠٠ .
(٢) المصدر السابق ، ١٠١ .
(٣) د. عبدالعزيز الدوري ، دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، ٢٨٣ .
(٤) د. بدري محمد فهد ، العامة في بغداد ، ٢٨٦ ؛ طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية للتسلط البويهي في العراق ، ٢٩٤ .
(٥) محمد رجب النجار ، حركة الشطار والعيارين ، ٩ .
(٦) طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية للتسلط البويهي في العراق ، ٢٩٩ .

١ ـ إن جانبا من هذه التصورات بشأن الحركة استند الى قراءات مخطئة للنصوص وتحميلها ما ليس له صلة حقيقية بواقع الامر من ذلك القراءة التي قدمها احد الباحثين بشأن نص يتعلق باحداث عام (٣٦١هـ) اذ اضطربت الاوضاع في بغداد على اثر التدهور الذي اصاب منطقة الثغور مع الدولة البيزنطية ، فلحقت الخسائر الفادحة بجانب المسلمين ، فقد جاء في النص : « وفي هذه السنة وقعت في بغداد فتنة عظيمة ، واظهروا العصبية الزائدة وتحزب الناس ، وظهر العيارون واظهروا الفساد ، واخذوا اموال الناس . وكان سبب ذلك ما ذكرناه من استنفار العامة للغزاة ، فاجتمعوا وكثروا ، فتولد بينهم من اصناف البنوية ، والفتيان ، والسنة ، والشيعة ، والعيارين ، فنهبت الاموال ، وقتل الرجال ، واحرقت الدور وفي جملة ما احترق محلة الكرخ »[٧] . فجاءت القراءة على النحو الاتي : « اذ نجد تفجيرا عارما في الوسط الشعبي ، اوقع الخسائر الكبيرة في دور السلطة وممتلكاتها ، بدأ هذا الانفجار داخل الحشود الجماهيرية المتطوعة لصد هجمات الروم على الجزيرة الفراتية ، وهذا يعني ان العيارين كانوا ضمن فصائل الشعب المتطوعة للدفاع ، الا ان تحسسهم بعدم جدية السلطة البويهية في اسناد موقف الشعب والتوائها لعوق هذا الموقف الجماهيري ، حدا بهم (العيارون) لاستثمار هذا التجمع وتفجير الموقف داخليا لارهاق السلطة والاطاحة بها »[٨] .

وبشأن احداث عام (٣٦٤هـ) جاء في نص آخر : « وتغلبوا بالقوم ، واخذوا الخفائر عن الاسواق والدروب »[٩] . فجاءت القراءة على النحو الاتي : « ويبدو انهم ارادوا ان يؤكدوا وجودهم السياسي وتحديهم للسلطة البويهية فاخذوا الضرائب من الاسواق والدروب »[١٠] . ولا شك في ان مثل

---

(٧) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ٨ ، ٦١٩ .
(٨) طالب جاسم حسن ، المصدر السابق ، ٢٩٧ .
(٩) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ١٨٧ .
(١٠) طالب جاسم حسن ، المصدر السابق ، ٢٩٧ .

هذه القراءات ليست منهجية ، اغفلت الفهم الصحيح لمضامين النص الواقعية ودلالاتها الفعلية ، المستندة الى ما يعرف بالنقد الباطني الايجابي للنص فجاءت هذه القراءات اسيرة الفهم الايديولوجي للنص منكفئة على معطيات فكرية سابقة استهدفت رفع شأن الحركة الى مستوى النضال الوطني والقومي والطبقي .

ومما عزز هذا الامر الاعتماد على المنهج الانتقائي في تعاطي هذه الظاهرة التاريخية لتعزيز معطيات القراءة الايديولوجية لها . لذا ترى هؤلاء الباحثين يغفلون الاشارة الى وقائع تاريخية كثيرة تقدم فهما اخر للحركة ، ان غياب الموضوعية في مثل هذه المعالجات اسفر عن تصورات غير دقيقة بشأنها .

٢ ــ الانطلاق من وحدة تاريخ الحركة ، ذلك ان المعنيين بها ربطوا اولها بآخرها ، دون تمييز بين المراحل التي مرت بها . فقد لعبت هذه الحركة ادوارا مهمة في صراع الامين والمأمون فوقف أتباعها الى جانب الامين بوصفه يمثل الشرعية اولا وللدفاع عن مدينتهم ثانيا ، وكان ذلك في اواخر القرن الثاني للهجرة ثم وقفوا الى جانب المستعين في صراعه مع القادة الاتراك وللاسباب نفسها ، وكان ذلك في منتصف القرن الثالث للهجرة . اذ جاءت النصوص واضحة وصريحة في اشارتها الى ما بذله العيارون والشطار في كلا الموقفين ، اذ قاتلوا ببسالة الى جانب الخليفتين منافحين عن مدينتهم بغداد . اما ما حصل في القرنين الرابع والخامس للهجرة فهو امر مختلف تماما . عليه فان تقويم الحركة يجدر ان ينطلق من واقعها الفعلي في كل مرحلة وعدم احتساب بعض المراحل على بعضها الاخر ، فذلك ما يفقد التقويم مصداقيته ودقته . إن هذا التباين في طبيعة الحركة بين المرحلتين ، أي القرنين الثاني والثالث من جهة والرابع والخامس من جهة اخرى . ادركه بعض الباحثين ، بيد انه فسر ذلك على انه ناجم عن انشقاق اصاب الحركة ، فضلا عن العصابات التي استغلت

اسمها استغلالا سيئا لتحقيق مصالح نفعية انانية ضيقة[11] . غير ان هذا التفسير لا تدعمه اية نصوص او معالم من نوع ما ، ولا يصمد امام اي نقد تاريخي منهجي ، فهو لا يعدو كونه محاولة لابعاد الشبهات عن الحركة والعمل على تحسين صورتها .

٣ ـ ومن المنزلقات الخطيرة التي يقع فيها عدد من الباحثين في معالجتهم للقضايا التاريخية . انطلاقهم من روح عصرهم ومن قضاياهم الفكرية الخاصة ثم اسقاط ذلك على الماضي ، وهو ما نبه عليه كروتشه عندما قال : (التاريخ كله تاريخ معاصر) وهو أمر يلزم الباحثين التحرر من المقومات الفكرية لعصرهم عند بحثهم ظواهر الماضي التاريخية ، هذا المنزلق وقع فيه الذين كتبوا في تاريخ العيارين والشطار ، فانطلقوا من الموجة اليسارية التي سادت في الساحة العربية لاربعة عقود من الزمن منذ منتصف القرن الماضي ، وترسخت مفاهيمها في ذاكرة الباحثين ومنها : الكفاح الشعبي المسلح والنضال الوطني من اجل الاستقلال والنضال القومي من اجل الوحدة والنضال الطبقي ضد الطبقات المستغلة وغيرها . مشكلة المناخ الفكري العام والسائد ، تشربه الباحثون ثم اسقطوه على موضوعاتهم التاريخية . لهذا نلمس في اثناء كلامهم روح الفكرة المعاصرة بل مفرداتها، عليه جاء تفسير حركة العيارين والشطار على اساس مشروعيتها (الثورية) مستبعدين المشروعية (الشرعية) من تقويم الحركة . تلك المشروعية التي كانت تحكم حركة التاريخ الاسلامي ، فالفقه الاسلامي ومعطياته الفكرية هي التي شكلت المجال الفكري لحركة هذا التاريخ . وفي هذا الاطار فان البويهيين لم يكونوا اجانب ولا هم غزاة ، بل مواطنون في الدولة الاسلامية ، حملوا معاني المواطنة ودلالاتها الشرعية ، عاشوا في كنف هذه الدولة ودانوا بدينها ، ولهم حق ممارسة الفعل السياسي في اطار الحياة السياسية الاسلامية . وهم باستيلائهم على السلطة كانوا

---

(١١) د. فاروق عمر فوزي ، المصدر السابق ، ١٠٠ .

(متغلبين) وليسوا غزاة اجانب ، وهذا التقويم لا يتضمن مديحا او ثناءا على فعلهم السياسي ، بل وضعه في اطار التعريف الشرعي الصحيح لـه . لان ذلك يساعد على فهم اية افعال او ردود افعال معاصرة على الاساس الشرعي ايضا . من ذلك ان فهم اية افعال مناوئة للبويهيين على اساس وطني قومي هو فهم منحرف عن الحقيقة لا يمت للواقع بصلة .

وهذا ما يمكن قوله بشأن اصحاب الاموال ، فالفقر الذي عاش فيه قطاع من العامة لا يسوغ (شرعيا) السطو على اموال الاخرين حتى وان قصروا في اداء الحقوق الشرعية المترتبة عليهم مثل الزكاة ، وهو ما حاول احدهم من خلاله تسويغ نشاطه ، بذريعة ان التجار لم يؤدوا ما عليهم من زكاة اموالهم ، وهـم بذلك جعلوها عرضة لاصحاب الحاجة من فقراء ولصوص ، شاء ارباب الاموال أو كرهوا[١٢] . مع اننا من الناحية المبدئية لا نغفل العامل الاقتصادي الـذي اسهم بشكل فعال في ظهور هذه الحركة . المتمثل بالتباين الكبير في الثروة بين الفقراء والاغنياء ، وسوء الاوضاع المعاشية لطبقة العامة[١٣] . ثم عجز الدولة عن القيام بواجبها في اقامة الاحكام الشرعية للدين الاسلامي وبما يوفر حياة آمنة كريمة لكل مواطن[١٤] . فكانت النتيجة الطبيعية فرز مثل هذه الحركـة بكل تداعياتها السلبية ، فالمجتمع والدولة يتحملان وزر مثل هذه النتائج .

عوامل نمو الحركة وتوسع نشاطها :

مثلت حركة العيارين والشطار ظاهرة تاريخية متأصلة في الواقع الـذي ظهرت فيه ، فهي بوجهها التقليدي المعروف ظهرت منذ اواسط القرن الثانـي للهجرة . وراحت في نشاطها بين مد وجزر ، ثم شهد النصف الثاني من القـرن الرابع للهجرة توسع الحركة اجتماعيا حينما استقطبت الى داخلها فئات جديدة،

---

(١٢) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ٢/١١٦ .

(١٣) د. عبدالعزيز الدوري ، المصدر السابق ، ٢٨٢-٢٨٣ .

(١٤) د. موفق سالم نوري ، العامة والسلطة في بغداد ، ٣٦-٣٧ .

كما انها نجحت في توسيع فعالياتها الى حد كبير وهو أمر اعجز السلطات الحكومية عن مقارعتها او مواجهتها . مما يعني ان عصر التغلب البويهي (٣٣٤هـ ـ ٤٤٧هـ) شهد عوامل عديدة انتجت هذا التحول في فعاليات هذه الفئة ومن هذه العوامل :

أ ـ ضعف بنية السلطة السياسية واجهزتها :

في عام (٣٣٤هـ) خضعت الخلافة العباسية للتغلب البويهي ، والبويهيون من الديلم موطنها في جنوبي بحر قزوين . اخذت بالنمو والتوسع السياسي والعسكري حتى تمكنت من فرض نفسها قوة سياسية وعسكرية لا تقهر وترافق ظهورها مع الضعف السياسي الذي اصاب الدولة العباسية ومؤسسة الخلافة نفسها . وازاء ذلك نجح البويهيون في مد نفوذهم الى بغداد ، مما اسفر عن وضع سياسي لم تكن له سابقة مثيلة طوال اكثر من ثلاثة قرون ، وعلى الرغم من ذلك تمكنوا من فرض وجودهم السياسي والعسكري على الدولة ليصبحوا حكامها الفعليين واصبح الخليفة رهينة لاهوائهم ورغائبهم ، ووجوده رمزي ليس اكثر . ومع ان البويهيين فكروا منذ البدء بتغيير اوضاع الخلافة عن طريق اقصاء الخليفة العباسي والمجيء بخليفة علوي ، انهم عدلوا عن هذه الفكرة بعد ان اشير عليهم بخطل هذ الرأي وخطره عليهم انفسهم[١٥] . عندها فقط وافق البويهيون على ابقاء الخليفة العباسي في منصبه ، الذي بات مجردا من كل حول او قوة سياسية وليس له من دواعيهما اي شيء ، وبقي السلطان البويهي وحده صاحب النفوذ الحقيقي والسلطة الفعلية على كل المستويات ، ففقدت الخلافة هيبتها في النفوس ، ولاسيما تحت وطأة الممارسات التي قام البويهيون بها تجاه هؤلاء الخلفاء[١٦] .

(١٥) الهمذاني ، تكملة تاريخ الطبري ، ١١/٣٥٤ـ٣٥٥ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ٨/٤٥٢ .

(١٦) انظر مثلا : ابن الاثير ، الكامل ، ٨/٤٥٢ ، ٩/٧٩ ؛ ابن الكازوني ، مختصر التاريخ ، ١٧٨ ، ١٩٤ .

غير ان هؤلاء البويهيين ، وبعد قرابة الربع قرن من وجودهم في السلطة في بغداد ، بدأ الضعف يتسلل الى كيانهم وسلطانهم ، وهو امر سمح بظهور نشاط العيارين وتوسعه بدءا من عام (٣٦١هـ) كما سيتبين تباعا . وفي عام (٣٧٦هـ) أخذت دولة بني بويه بالضعف بشكل جلي لافت للنظر[١٧] . وفي عام (٤٢٦هـ) انحل امر الخلافة والسلطنة ببغداد[١٨] اذ اخذت نذر السقوط تحيق ببني بويه من كل جانب . وبين هذين التاريخين كانت عوامل الصراع قوية ، تفعل فعلها داخل مكونات السلطة البويهية ، اذ ظهر ضعف الدولة واضحا في عام (٣٦١هـ) عندما عجزت عن مواجهة الخطر البيزنطي في مناطق الثغور ، فانعكس الامر على الاوضاع في بغداد نفسها[١٩] . ومن اوجه الصراع داخل هذه السلطة ما وقع بين بختيار (عز الدولة) وحاجبه سبكتكين من جفوة ، دفعت الاخير الى التمرد بالتعاون مع الجند الاتراك[٢٠] . وكانت وفاة أي سلطان بويهي فرصة للجند والغلمان للسلب والنهب واضطراب الاحوال[٢١] بل ان هؤلاء حاولوا التدخل في نصب كبار الشخصيات البويهية[٢٢] او عزلهم، لينالهم ما نال الخلفاء على ايديهم .

ومن المظاهر الاخرى لتدهور اوضاع السلطة تلك الفتن التي ثارت من وقت لآخر بين الجند الاتراك والجند الديلم[٢٣] . وقريب من ذلك ايضا شغب هؤلاء الجند على السلطات البويهية من اجل تحصيل رواتبهم التي كانت غالبا

---

(١٧) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ٨٦/٣ .
(١٨) ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ، ٥٨/٤ .
(١٩) الهمذاني ، تكملة ، ٤٢٨/١١ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ٦١٨/٨-٦١٩
(٢٠) الهمذاني ، تكملة ٤٣٢/١١ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ١٣٤/٨ .
(٢١) انظر مثلا : ابن الجوزي ، المنتظم في اخبار الملوك والامم ، ١٤٦/٨ .
(٢٢) انظر مثلا : المصدر نفسه ، ٦٢/٨-٦٤ .
(٢٣) انظر مثلا : ابن الاثير ، الكامل ، ٤٩/٩ ، ٦٣ .

ما تتأخر عن موعدها بسبب العجز المالي الكبير ، او ان هذا الشغب كان يقع لاية اسباب سياسية اخرى . فقد تكرر هذا المشهد لمرات كثيرة[٢٤] . وكان من نتائجه ليس ضعف الاحساس بالمسؤولية تجاه المجتمع وحسب ، بل تطور الامر الى قيام اجهزة السلطة بالاعتداء على ممتلكات المجتمع في بعض الاحيان[٢٥].

وازاء هذا التطور في بنية السلطة ومكوناتها ، وجد العيارون فرصتهم لممارسة نشاطهم في اعمال السطو والسلب والنهب ، وجاء اشارات عديدة الى الصلة المباشرة بين واقع السلطة هذا والتصعيد المتنامي لفعاليات العيارين والشطار ، كما حصل في احداث عام (٣٦٤هـ)[٢٦] . واحداث عام (٣٨٩هـ)[٢٧] واحداث عام (٣٩١هـ)[٢٨] . واحداث عام (٤١٦هـ)[٢٩] . ثم احداث عام (٤١٧هـ)[٣٠] . اذ انعكس الضعف المتزايد في بنية السلطة السياسية للدولة على اجهزتها المختلفة ، ولاسيما الامنية منها ، متسببا في ارتخاء الحالة الامنية في بغداد وربما انعدامها في بعض الاحيان ، موفرا المناخ الامثل ليمارس العيارون والشطار نشاطهم المعهود .

---

(٢٤) انظر مثلا : المصدر نفسه ، ٤٥٦/٨ ، ٤١/٩ ، ١٠٠ ، ٣٦٦ ، ٤٢٣ ، ٤٤٦ ، ٥٧١ ، ٥٩٧ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٣/٨ ، ٧٨ ، ٨٩ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، احداث الاعوام (٣٨١-٤٠٠هـ) ١٢ ، ١٥ .

(٢٥) انظر مثلا : ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٦/٨ ، ١٠٨ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ١٦٨/٩ ، ٣٥٣ ، ٦٢٩ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٧٣/١١ .

(٢٦) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ٣٥٥/٦ .

(٢٧) الصابي ، تاريخ هلال بن الحسن ، ٥/٨-٦ .

(٢٨) المصدر نفسه ، ٧٦/٨ .

(٢٩) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ٢٠٤/٣ .

(٣٠) ابو الفدا ، المختصر ، ٤/٤ .

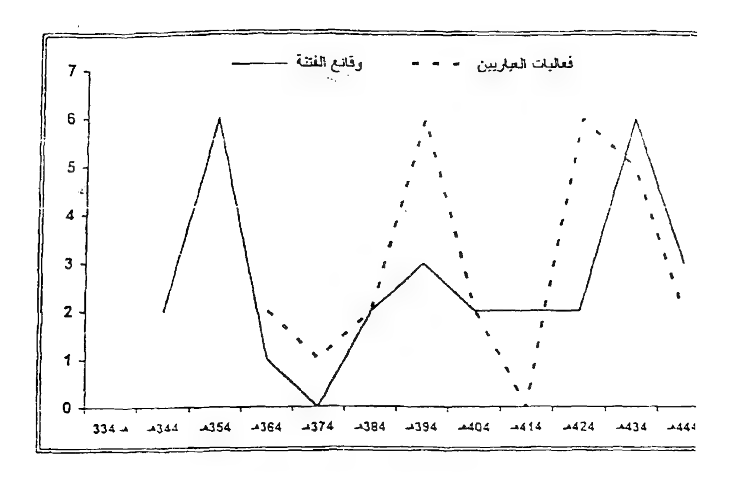
ب ـ الفتن والحروب الاهلية :

منذ السنوات الاولى لدخول البويهيين الى بغداد ، وجدت الفتنة الطائفية طريقها الى هذه المدينة التي نعمت بالامان قبل ذلك قرنين من الزمن ، فحصدت هذه الفتن اعدادا متزايدة من اهل بغداد وعامتها . ليشكل ذلك خللا فادحا في الحياة العامة للمجتمع ، خسر بسببه هذا المجتمع الكثير من ابنائه اولا ، ثم تدهور معالم الحياة المختلفة اقتصادية وامنية واجتماعية ، ليوفر ذلك المناخ الملائم ليمارس العيارون السطو والسلب والنهب . وقد اوردت المصادر اشارات عديدة الى الصلة المباشرة ايضا بين واقع الفتنة وفعاليات هذه الفئة وممارستها لنشاطها الذكور . ففي عام (٣٨١هـ) : « زادت الفتنة وتسلط اهل الدعارة فقلد ابو الفوارس بهستون بن ذرير الشرطة ونزل دار ابي الحسن محمد بن عمر التي على دجلة ، وقبض على جماعة من العيارين وقتلهم وكبس دورهم ومنازلهم »[٣١] . وجاء بشأن احداث عام (٣٩٢هـ) « عظمت الفتنة ببغداد بعد ان خرج ابو جعفر الحجاج عنها وزاد امر العلويين العيارين وقتلوا النفوس وواصاوا العملات »[٣٢] . وجاء بشأن السنة اللاحقة ايضا : « اشتدت الفتنة وانتشر العيارون والمفسدون »[٣٣] . كما جاء بشأن احداث عام (٤٢٢هـ) : « تجددت الفتنة ببغداد ... وكانت فتنة عظيمة ... ودخل العيارون البلد »[٣٤] .

وربما لا يقدم المخطط الاتي تطابقا بين الحركة البيانية لواقع الفتنة ومثيلتها فيما يتعلق بالعيارين والشطار ، غير ان ذلك لا يعني انعدام صلة السبب والنتيجة بين الامرين بدلالة النصوص المتقدمة ؛ لان ظروف الفتنة تعني في كل الاحوال اضطراب حبل الامن ، وهو ما يتمناه العيارون والشطار ليمارسوا فعالياتهم المختلفة .

---

(٣١) الصابي ، تاريخ هلال ، ٨/٥٧ .
(٣٢) المصدر نفسه ، ٨/١٠٥ .
(٣٣) ابن الاثير ، الكامل ، ٩/١٧٨ .
(٣٤) المصدر نفسه ، ٩/٤١٨ .



مخطط بياني يشير الى وقائع الفتنة وفعاليات العيارين في بغداد

تم رسم المخطط في ضوء المعلومات المستقاة من المصادر التاريخية

بدأت الفتنة تجد طريقها الى المجتمع البغدادي منذ عام (٣٣٨هـ)[٣٥] . لتشتد في احيان عديدة مخلفة وراءها اعدادا كبيرة من القتلى من كلا الطرفين المتحاربين ، فضلا عن حرائق مدمرة اتت على الاسواق والدور والممتلكات كما حصل في عام (٣٤٦هـ)[٣٦] . وقد شجع البويهيون هذه الاوضاع في بعض الاحيان ، كما وقع في عام (٣٥١هـ)[٣٧] . وفي فتنة عام (٣٥٢هـ) قتل من الناس

---

(٣٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٣٦٣/٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٢١/١١ .

(٣٦) ابن الاثير ، الكامل ، ٥٢٧/٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٣٤/١١

(٣٧) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧/٧ـ٨ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، حوادث الاعوام (٣٥١ـ٣٨٠هـ) ٨ .

خلق كثيرون ، ورافق ذلك انتهاب الاموال والممتلكات[٣٨] . وتكررت مثل هذه الاعمال في عام (٣٦١هـ) فكان القتل والنهب واسعين ، وكان دور العيارين بارزا في ذلك[٣٩] . ولم تهدأ الفتنة التي وقعت في عام (٣٨٢هـ) الا بعد تدخل الشرطه وقتل عدد من الاشخاص ، فسكنت الاوضاع[٤٠] . ولم تهدا الفتنة في عام (٣٩٨هـ) الا بعد أن زجت الشرطة بعدد من المفتنين اصحاب الفتنة في السجون[٤١] . وفي عام (٤٠٨هـ) تطورت الاحوال بأن اقام اصحاب المحال السكنية الابواب والاستحكامات على دروبهم[٤٢] . وفي عام (٤٤١هـ) تحول الامر الى اقامة الاسوار والتحصينات حول الاحياء السكنية[٤٣] . وفي عام (٤٢٣هـ) كانت الفتن عديدة تكرر وقوعها بين شهر واخر ، تمتع العيارون خلالها باجواء مثالية لممارسة نشاطهم[٤٤] . اما في عام (٤٥٢هـ) كانت الفتنة عادية ، بدا ان الجديد فيها هو اقتتال العيارين فيما بينهم ، كل فريق منهم متحزب لطائفة التي ينتمي اليها[٤٥] .

ج ـ تدهور الاوضاع الاقتصادية :

ما ان وضع البويهيون اقدامهم على ارض بغداد حتى بدأ الغلاء يظهر في اسواقها ، فبلغ عدد حالات الغلاء خلال عصر التغلب البويهي اكثر من خمس عشرة حالة ، وهو امر ان دل على شيء ، فانما يدل على اضطراب كبير في

---

(٣٨) ابن الاثير ، الكامل ، ٢٥٨/٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٥٣/١١ .
(٣٩) ابن الاثير ، الكامل ، ٦١٩/٨ .
(٤٠) نفسه ، ٩٤/٩ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، حوادث الاعوام (٣٨١ـ٤٠٠هـ) ١٣ .
(٤١) ابن الاثير ، الكامل ، ٢٠٨/٩ .
(٤٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٢٨٧/٧ .
(٤٣) نفسه ، ١٤٠/٨ـ١٤١ .
(٤٤) ابن الاثير ، الكامل ، ٤١٨/٩ .
(٤٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٦/١٢ .

الاحوال الاقتصادية والمعيشية للبلاد ، وانعدام حالة الاستقرار الاقتصادي فيها ، لينعكس ذلك بدوره على اضطراب الحياة الاجتماعية ، فالكثير من جوانب السلوك الفردي او الجمعي على حد سواء مرتهن بطبيعة الاوضاع الاقتصادية ، فاذا ما تردت هذه الاوضاع وتدهورت ، فان ذلك سيولد سلوكيات اجتماعية مضطربة ومنحرفة ومتطرفة ، وذلك له مردوده على طبيعة العلاقات بين الطبقات الاجتماعية ، اذ يصوب المعدمون ابصارهم ناحية اموال الاغنياء والاثرياء واجدين فيها فرصة مواتية لاشباع حاجاتهم التي حرموا منها تحت ضغط الفقر والبؤس .

ومن اقسى حالات الغلاء التي واجهت اهل بغداد ما وقع في عام (٣٣٤هـ) ، فاضطر الناس الى اكل الميتة ، والكلاب والسنانير ، وبعض النباتات الطبيعية ، مسببة لهم اضطرابات صحية خطيرة ، بل ثمة كلام يشير الى ان بعضهم اكل لحم البشر لسد جوعته[٤٦] . وفي عام (٣٦٤هـ) ارتفعت الاسعار ارتفاعا كبيرا وانعدمت الاقوات من السوق وبيع الكر (= ٢٧٠٠ كغم) من الدقيق بـ (١٧٥) دينارا[٤٧] . وبعد ذلك بعشر سنوات غلت الاسعار مرة اخرى فكانت مجاعة (عظيمة) وبلغ كر الحنطة ثلاثة الاف درهم والكر الشعير الفي درهم ، حتى مات الناس على الطرق[٤٨] . وذلك ارتفاع هائل في الاسعار مقارنة بالغلاء السابق ، وفي غلاء عام (٣٧٧هـ) اضطر الناس للرحيل عن بغداد[٤٩] . وفي غلاء عام (٣٨٢هـ) بيع رطل (= ٤٠٦/٢٥ غم) الخبز باربعين درهما[٥٠] . وفي عام (٣٩٧هـ) تسبب الغلاء في شغب الجند وفتنة العامة في

---

(٤٦) الهمذاني ، تكملة ، ٣٥٧/١ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ٤٦٥/٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢١٣/١١ .

(٤٧) الهمذاني ، تكملة ، ٤٣٩/١١ .

(٤٨) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٢٢١ .

(٤٩) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٣٦/٧ .

(٥٠) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٢٤٥ ؛ الذهبي ، حوادث الاعوام (٣٨١ـ٤٠٠هـ) ١٣ .

بغداد[٥١] . وفي عام (٤٣٩هـ) جاء الغلاء والوباء معا ليحصدا اعدادا كبيرة من الناس حتى خلت الاسواق منهم[٥٢] . ثم تكرر ذلك في العام اللاحق ايضا[٥٣].

ان اجواءا من هذا النوع تسببت ، بدون ادنى ريب ، في تهيئة الظروف الملائمة ليمارس العيارون نشاطهم في السلب والنهب والسطو على الاموال والاقوات وغير ذلك . فوجدوا في اوضاع الغلاء دافعا لا يرد ومسوغا اضافيا لزيادة حجم نشاطهم .

انشطة العيارين وفعالياتهم :

إن اي تقويم حقيقي لحركة العيارين والشطار ، لابد ان ينطلق من احد أمرين او كليهما معا : فاما معطياتها الفكرية او معطياتها التاريخية من افعال وممارسات ووقائع ، وربما ان المعطى الاول منعدم كليا ، لان المنتمين الى الحركة والعاملين فيها او معها ابعد ما يكونون عن امتلاك ناصية الفكر ودواعيه لضحالتهم الاجتماعية والثقافية ، فعجزوا عن التعبير الثقافي عن وجودهم او بيان مقاصدهم واهدافهم ، بل ان ذلك لم يعنهم في شيء . لذا لم يبق امامنا سوى استقراء الواقع واستقصائه لتبين طبيعة هذه الحركة ومن ثم اهدافها وغاياتها الحقيقية ، وذلك السبيل الوحيد لاي باحث في هذه الظاهرة .

من الملاحظ ان المصادر التاريخية ، وهي تعالج اوضاع هذه الفئة ، غلب عليها استخدام تسمية العيارين . وهذا يجب ان لا يقود الى الاعتقاد ان ثمة فرقا او تمييزا بين العيارين والشطار ، فالاسمان يدلان في الواقع على مسمى واحد ، بل ان لهذا المسمى اسما ثالثا هو : الفتوة او الفتيان ، اذ ورد في قول

---

(٥١) ابن الاثير ، الكامل ، ٢٠٤/٩ .

(٥٢) نفسه ، ٥٤١/٩ ؛ انظر ايضا : ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٣٢/٨ .

(٥٣) ابن الاثير ، الكامل ، ٥٥٢/٩ .

شاعر يصف افعال العيارين والشطار ابان الصراع بين الامين والمأمون ، وما أبلوه من بلاء حسن في التصدي لقوات طاهر بن الحسين ، فقال الشاعر :

ويقول الفتى اذا طعن الطعـ ـنة خذها من الفتى العيار[٥٤]

كما ان القشيري (ت ٤٦٥هـ) استخدم هذه التسميات الثلاث بعضها مرادف لبعض دالة على مدلول واحد[٥٥] . على انه لابد من ادراك ان مدلولات الفتوة في هذه المرحلة هي ليست ذات مدلولاتها كما ظهرت في مرحلة لاحقة ابان خلافة الناصر لدين الله ، ولاسيما من الناحية الحركية التنظيمية ، اذ تراجعت تسمية العيارين والشطار لتحل محلها كليا تسمية الفتوة دالة على معان وافكار جديدة ، وان كانت هذه قد انبثقت من رحم تلك .

وقد توسعت حركة العيارين والشطار في عصر التغلب البويهي (٣٣٤هـ ــ ٤٤٧هـ) هذا توسعا كبيرا سواء في حجمها وتنظيمها او في طبيعة اعمالها وانشطتها ، ومن ملامح هذا التوسع ان اشرافا من العباسيين والعلويين انضموا الى هذه الفئة ، وشاركوا في انشطتها[٥٦] . وجاء ذلك تحت ضغط الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي أصابت هؤلاء ، ويوصف ذلك من نتائج التغلب البويهي الذي رافقه سوء السياسة والادارة[٥٧] . وبلغ من اتساع قاعدة هذه الفئة ان قال المقدسي (ت ٣٧٥هـ) بشأنهم في اطار حديثه في اهل بغداد وظرفهم ، فلما بلغ الكلام بشأن العيارين قال : « اذا تحركوا ببغداد هلكوا »[٥٨] . يريد بذلك اهل بغداد وما يصيبهم من اذى كبير بسبب الفعاليات الواسعة للعيارين المتأتية من كثرة عددهم ، ثم قال واصفا جولاته

---

(٥٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ١٧٥/٨ .

(٥٥) الرسالة القشيرية ، ١٧٩ .

(٥٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٢٢٠/٧ ؛ الذهبي ، العبر ، ١٧٨/٢ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٢٦٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٣٠/١١ .

(٥٧) د. عبدالعزيز الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، ٩٣ .

(٥٨) احسن التقاسيم ، ١٣٠ .

ورحلاته ومشاهداته في اثنائها : « ورأيت دول العيارين »[٥٩] ، كناية عما بلغوه من سطوة هائلة ونفوذ كبير وتحكم في الاحوال العامة في بغداد وغياب السلطة الرسمية ، فظهروا وكأنهم هم الحكام ، هذا مع العلم ان المقدسي توفي قبل ان يرى ما هو اعظم مما رآه في عصره ، وهو ما سنبينه تباعا .

وتباينت الاراء بشأن تقويم الجانب الاخلاقي لهذه الفئة ، فهم في افعالهم كانوا قد اظهروا جانبا من الامانة والتعاون والكرم ورعاية النساء ومساعدة الفقراء والضعفاء واظهروا الشجاعة والصبر وتحمل الصعاب[٦٠] . وبلغت الشهامة ببعضهم انه رفض تسليم غلام مطلوب لدى السلطات ، وتحمل ان يضرب الف سوط (كذا) على ان يفعل ذلك[٦١] . وامتحن احد وجوه العيارين في اخلاقه بان بيعت له جارية على انها غلام ، وكانت ذات جمال وبهاء ، فلبثت عنده عدة شهور ، فلما سئلت عن حاله ، ردت انه لم يعرف انها جارية لانه لم يمسها اصلا لاعتقاده انها غلام وانه لا يجوز اتيانه[٦٢] . ومن ناحية اخرى فان الوقائع كشفت احيانا عن سلوكيات مخالفة فيها اعتداء حتى على النساء من فعل الفواحش والمحرمات ، وقد جاء في قصة احد هؤلاء يعرف بـ (ابن الحراصة) كان مظهرا « للقمار والعيارة والفجور وبيع الخمور وتأوي اليه اللصوص » ولا يستطيع احد ان ينكر عليه في ذلك لصلاته باحد قادة الجند الديلم وحمايته له مقابل ضمان الفي درهم في كل شهر ، فاذا عجز عن السداد اخذ كل من اجتاز بداره مستوليا على ما معه من مال[٦٣] .

---

(٥٩) نفسه ، ٤٥ .

(٦٠) التوحيدي ، المقابسات ، ٩٦ ؛ ابن الجوزي ، الاذكياء ، ١٩٦-١٩٨ ؛ تلبيس ابليس ، ١٩٢ .

(٦١) القشيري ، الرسالة القشيرية ، ١٧٩ .

(٦٢) نفسه .

(٦٣) التنوخي ، نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة ، ٣٤٩/١ .

وهم مهما حاولوا اظهارت من خلق ، فان ذلك لم يقنع المجتمع بسبب ما الحقوه بحياة الناس من اذى كبير ، اذ سخر ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) من فتوتهم التي غالبا ما كانت تنتهي بسلب الناس اموالهم وممتلكاتهم ، فضلا عن رعبهم وافزاعهم[٦٤] . كما قال التوحيدي (ت ٤١٤هـ) بشأنهم : « وهذا الرهط ليس لاحد فيهم اسوة ، ولا هم لاحد قدوة ، لغلبة الباطل عليهم ، وبعد الحق عنهم ، ولان الدين لا يلتاط بهم ، والفتوة التي يلتزمونها بالاسم لا يحلون بها في الحقيقة ، كيف تصبح فتوة اذا خالفها الدين ؟ »[٦٥] .

وما الواضح ان تقويم التوحيدي وابن الجوزي لاخلاقيات هذه الفئة لم ينطلق من حيثيات وجودها ، بل انطلق من التصور الاسلامي الذي يرفض معالجة الخطأ بخطأ اخر مقابل . وفي الوقت نفسه لم نجد في ادبيات العصر اية معالجة شرعية لطبيعة الاوضاع التي انتجت هذه الفئة ، وربما انطلق المعنيون من الاكتفاء بالتصور العام ان اقامة الشريعة الاسلامية كفيل وحده بمعالجة اي خلل في حياة الامة . على ان احدا لم يعمل جهده في البحث عن الاليات الشرعية التي تمكن من اقامة الشريعة بالشكل الذي يعالج الخلل الحاصل في بنية الحياة العامة للامة .

أن فعاليات وانشطة العيارين والشطار لم تكن نشاطا واحدا متصلا على طول هذا العصر ، بل جاء نشاطهم على شكل موجات ، تراوحت كل موجة بين خمس الى عشر سنوات ، تفصل بينها ايضا اوقات من تراجع هذا النشاط تراوحت هي الاخرى عموما بين خمس سنوات وعشر ، وعلى النحو المتابع الاتي :

---

(٦٤) تلبيس ابليس ، ١٩٢ .

(٦٥) رسالة الصداقة والصديق ، ٤٨ .

ا ـ عقد الستينيات من القرن الرابع للهجرة :

بدا اول نشاط الافت للنظر مارسه العيارون عام (٣٦١هـ) على خلفيـــة التداعيات المترتبة على تدهور اوضاع المسلمين في مواجهـة الدولة البيزنطيـة وهو أمر الح كثيرا على مشاعر المسلمين ، ذلك ان اية انتكاسة تصيب قـــوة الدولة الاسلامية في مناطق الثغور كانت تذكر المسلمين بأيام عزهم ومجدهـم في مواجهة الاخطار الخارجية ، ثم تجري المقارنة بما آل اليه الحال ، فيبعـث ذلك فيهم الغيرة والحمية ، واول مكان كانت تظهر فيه اصداء هذه التحولات هو بغداد بوصفها عاصمة المسلمين وحاضرتهم المنيعة ، فقد استفزت اخبـــار مناطق الثغور مشاعر البغداديين ووجدوا ان ما حصل في ذلك العام كان مهينا للمسلمين ولدولتهم ، فبدأت حالة من الاستنفار والتجمع في بغداد طالب فيهـا جمهور الناس بالجهاد واتخاذ الاجراءات المناسبة لصد الخطر البيزنطي ، وقـد اعلن كثير من الناس تطوعهم للقتال وطالبوا بتوفير المستلزمات المادية التـــي تمكنهم من القيام بهذه الفريضة . ولما تبين ان السلطات الرسمية لا تعير الامـر الجدية اللازمة ، عليه اخذ الامر بالتداعي بشكل خطير ، من ذلك ان ملامـح العصبية بدأت تحيق بالمكان ، ما لبثت ان تطورت الى فتنة طائفية ، انتهزهـا العيارون لممارسة نشاطهم فـ « اظهروا الفساد ، واخذا اموال الناس »[٦٦].

واظهرت هذه الواقعة ضعف السلطة وهشاشة بنيتها ، وانها غير قـادرة على الضرب بقوة ، لا في الداخل ولا في الخارج ؛ لهذا تجد العيارين قد واصلوا نشاطهم في عام (٣٦٢هـ) على خلفية ما حصل في العام السابق ، مما اضطر بختيار (عز الدولة) للقدوم الى بغداد من اجل تسكين الاوضاع فيها والسيطرة عليها غير ان التفاقم زاد في « استولى العيارون والشطار على بغداد وكبسوا الدور وتعرضوا للحرم » حتى اصبح هؤلاء سادة الموقف في الشوارع والطرقـــات والمحال ، فغاب الامن وغاب القانون عليه ، هنا افادت بعض الروايات ان هذا

(٦٦) ابن الاثير ، الكامل ، ٨/٦١٩ .

التدهور اضطر للسلطات الى القاء النار في الجانب الغربي من بغـداد ، حيث احترقت مساحات واسعة ما ذلك الكرخ ، بل ومُنع الناس من القيام بايـة اعمال اطفاء للحرائق، فتأججت النيران «فاخذت يمينا وشمالا فاحرقت الوفا من الناس والبهائم وكان يوما عظيما لم يجر في الاسلام مثله» ثم اعطت السلطات الامان للعيارين فسكنت الاوضاع[٦٧] . وفي رواية ثانية ان الوزير ابي الفضل الشيرازي ، ارسل الحاجب صافي لمساعدة صاحب الشرطة في التهدئة ، ولمـا كان هذا الحاجب مبغضا لاهل الكرخ ، لذا امر بالقاء النار في سوق النحاسين لتمتد بعد ذلك الى المناطق الاخرى[٦٨] . الا ان تأمل الاحداث والقرائن يبعث على الشك في قبول هذه الروايات ، اذ ليس من مصـلحة السلطات ، وهـي المسؤولة عن توفير الامن للناس والحماية لممتلكاتهم ، ان تقوم بهذا العمل ، اما العيارون فهم جهة ليست مسؤولة ، ويمكن لتصرفاتها ان تكون هي الاخرى غير مسؤولة ، مع توافر الاستعداد للقيام بسلوك غوغائي منفلت ، وهو امـر يصرف الشكوك باتجاههم ، ولاسيما ان وقائع مماثلة حصلت في السـنوات اللاحقة اكدت المصادر نسبتها اليهم ، فقاموا مثلا في عام (٣٦٣هـ) بالافسـاد الواسع في البلد ، ونهبوا الاموال[٦٩] . وقال سبط ابن الجوزي بهذا الشأن : « وكثرت الفتن وكبت المنازل واحترق الكرخ ثانيا »[٧٠] . وقوله (كبـت المنازل) لا معنى له الا اذا كان ذلك تحريفا او خطأ طباعيا والصواب هـو (كبست المنازل) وهو التعبير الذي درجت المصادر على استخدامه لوصـف عمل العيارين ، وعليه فان سياق الخبر يبين ان العيارين هـم المعنيون بالحريق الذي اشتعل في عام (٣٦٣هـ) . وقد شهد هـذا العـام قتل عـدد من هؤلاء وصلبهم[٧١] . اسفر عن هدوء وسكون نسبيين في بغداد .

(٦٧) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ١٧٨ .

(٦٨) الهمذاني ، تكملة ، ١١/٤٢٩ .

(٦٩) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١١/٢٧٥ .

(٧٠) مرآة الزمان ، ١٨٣ .

(٧١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١١/٢٧٥ .

في عام (٣٦٤هـ) كان ثمة صراع داخل اجهزة السلطة للدواعي مذهبية وطائفية وهو ما ادى الى ان « زادت ضراوة العيارين وعاد الفساد وخاف التجار على انفسهم واموالهم »[٧٢] . وهنا نود ان نشير الى ان التجار كانوا الهدف الرئيس لحملات العيارين في حين اذ ذلك لم يشمل اصحاب الحرف والمهن[٧٣] . وفي غضون ذلك اشعل العيارون حريقا ثالثا في بغداد في اواسط شهر المحرم ابتدأ بسوق الخشابين ثم توسع ليمتد الى سوق الجزارين واصحاب الحصر (الحصير) وهو امر نجم عنه خسائر فادحة[٧٤] . غير ان الامر لم يقف عند هذا الحد ، فأية ظاهرة اجتماعية تبدأ بسيطة عادة ، الا ان استمرارها وتكرارها يضفي عليها ابعادا جديدة . فقد شهدت هذه السنة زيادة امر العيارين « حتى ركبوا الدواب وتلقبوا بالقواد وغلبوا على الامور واخذوا الخفائر عن الاسواق والدروب »[٧٥] . وهو ما يعني حيازتهم على اموال عريضة تكفيهم لتجهيز انفسهم بهذه الطريقة ، وانهم باتوا منظمين ، فوجود قادة بينهم يعني انهم كانوا على مراتب ، وان تنظيمهم هذا كان هرميا يمكنهم من اصدار الاوامر وتنفيذها وبما يزيد في فاعلية نشاطهم ، وعكس ذلك من ناحية اخرى الضعف الكبير الذي انتاب السلطات الامنية حتى غابت عن الاسواق ، فتولى العيارون حمايتها مقابل مقادير من الاموال تجبى منها .

وقد ذكر التوحيدي القادة الذين افرزتهم هذه الاحداث ومنهم : ابن كبرويه وابو الدود وابو الذباب واسود الزبد وابو الارضة وابو النوابح .

---

(٧٢) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ٦/٣٥٥ .
(٧٣) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ٢/١٠٨ .
(٧٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧/٧٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١١/٢٧٩ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، حوادث الاعوام (٣٥١ــ٣٨٠هـ) ٢٧٥ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ١٨٧ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٤/١٠٧ .
(٧٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧/٧٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١١/٢٧٩ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٤/١٠٧ .

وكان هؤلاء يقودون الغارات واعمال السلب والنهب واشعال الحرائق ، حتى تعذر احيانا وصول الماء الى نواحي من بغداد[٧٦] . واوردت المصادر قصة احد هؤلاء القادة (كذا) وهو اسود الزبد ، الذي كان عبدا اوى الى قنطرة الزبد من قناطر بغداد ، عاش عريانا لا يكاد يستر عورته الا خرقة رثة من قماش ، كان يجمع النوى ويستطعم من قصد المكان للعب واللهو ، وبقي على ذلك سنوات لا يؤبه له ، لكن ما شهدته تلك السنة من احداث واسعة النطاق من سلب ونهب وهرج ومرج ، فبصر هذا العبد ووجد من هو اضعف منه قد اخذ سيفا وتقوى به على السرقة ، فطلب هو ايضا سيفا واشترك في السلب والنهب ، حتى ظهر منه ما لم يكن بحسبان احد ، واصبح صاحب مال كثير ، ثم وجد نفسه مقدما في اصحابه فـ « صَبُح وجهه وعَذُب لفظه وحَسُن جسمه » هنا جعله اصحابه قائدا عليهم واطاعوه وفرق فيهم الاموال ليصبح بعد ذلك رئيسا فيهم[٧٧] . وبلغ من سعة حاله ان اشترى جارية بالف دينار لكنها تمنعت منه واظهرت كراهته ، فاعتقها ومنحها الف دينارا ايضا مظهرا فتوته وسماحته[٧٨] .

ان الاضطرابات الواسعة التي وقعت عام (٣٦٤هـ) اضطرت الى استدعاء احد القادة (ابو تغلب) الى بغداد لضبط الامن فيها ، فقتل جماعة من العيارين والشطار[٧٩] . وربما تسبب ذلك في تفريق شأنهم ، حتى أن اسود الزبد نفسه رحل الى الشام ومات فيها[٨٠] . وهكذا انتهت هذه المرحلة من نشاط العيارين

(٧٦) الامتاع والمؤانسة ، ٣/١٦٠ .

(٧٧) نفسه .

(٧٨) الهمذاني ، تكملة ، ١١/٤٣٥ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧/٧٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١١/٢٧٩ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، حوادث الاعوام (٣٥١–٣٨٠هـ) ٢٥٧ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ١٨٧ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٤/١٠٨ .

(٧٩) الهمذاني ، تكملة ، ١١/٤٣٥ .

(٨٠) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧/٧٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١١/٢٧٩ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٤/١٠٨ .

في بغداد لتستقر الاوضاع فيها قرابة خمس عشرة سنة ، التي ربما لم تخل من انشطة صغيرة متفرقة لكنها لم تبلغ مستوى السنوات السابقة في الفاعلية والتأثير .

ب ـ عقد الثمانينيات من القرن الرابع للهجرة :

في عام (٣٨٠هـ) اشتدت الفتنة في بغداد بين اهل باب البصرة واهل الكرخ وامتدت هذه الفتنة الى العيارين انفسهم الذين كانت سطوتهم قد امتدت الى جانبي بغداد ، وصار لكل فريق منهم (امير) وفي كل محلة (متقدم) منهم فزاد اذاهم على الناس ، لقد افتتن العيارون بينهم حتى احرق بعضهم محال بعض[٨١] . ولم تجسر السلطات على الدخول بينهم[٨٢] . ثم جرى تعيين ابي محمد بن مكرم الحاجب على السلطة ، واتسمت سياسته بالشدة الكبيرة تجاه هذه الفتنة ، فهرب من هرب وقبض على كثيرين منهم ، فاستقامت الامور ، ثم استعفى بعدها من منصبه[٨٣] .

في اوائل عام (٣٨١هـ) غادر بهاء الدولة بغداد ، مخلفا وراءه نوعا من الفراغ الامني فـ (كثرت فتن العيارين) حتى تحاربوا بينهم كل يتعصب لمحلته ودربه ، فأعيا ذلك السلطات القائمة ، واستمرت عمليات السلب والنهب وتعاقب على منصب (صاحب المعونة) عديدون عجزوا عن القيام بعمل حقيقي للحد من اعمال العيارين[٨٤] . الا ان عودة بهاء الدولة الى بغداد غير مجرى الامور اذ جرى تتبع هؤلاء وقتلهم ، فسكنت الاحوال مرة اخرى وكان في جملة من قبض عليهم من العيارين قائد لهم يدعى (ابو جوامرد) كانت

---

(٨١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٥٣/٧ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، حوادث الاعوام (٣٥١ـ٣٨٠هـ) ٤٨٧ .

(٨٢) سبط ابن الجوزي ، مرآ الزمان ، ٢٣٧ .

(٨٣) ابو شجاع ، ذيل تجارب الامم ، ١٨١ .

(٨٤) نفسه ، ١٨٧ .

السلطات تستعين به لحراسة الاسواق في ايام (صمصام الدولة) فاطلقه بهاء الدولة ليستمر في عمله هذا[٨٥].

وفي عام (٣٨٤هـ) تفاقم نشاط العيارين وقادهم زعيم يدعى عزيز البابصري من اهل باب البصرة ، التف حوله عدد كبير من هؤلاء الاتباع ومن اهل الفساد ومما ميز فعالياتهم في هذه السنة اشعالهم النيران في المحال والدروب ، بل انهم نجحوا في تتبع رجال الشرطة لقتلهم ، كما انهم قاموا مرة اخرى بفرض الضرائب على الاسواق وجباية وارداتها ، ومدوا نشاطهم هذا ليشمل السفن في دجلة فارضين على اصحابها الضرائب ، ثم اشتدت الحملة عليهم ، فهربوا وتفرقوا[٨٦] ويعتقد ابن كثير ان القصص التي قيلت في احمد الدقف وما شاع عنه من حيل كان المعني بها البابصري او احد اتباعه[٨٧] . ودون سبب حقيقي ظاهر خفت نشاط العيارين مرة اخرى خمس سنوات ، ليظهر من جديد في عام (٣٨٩هـ) .

ج ـ عقد التسعينيات من القرن الرابع للهجرة :

بدأت الموجة الثالثة من انشطة العيارين في عام (٣٨٩هـ) اذ تمت الاستعانة بهم في تصفيات داخل جهاز الحكم[٨٨] . مما يشير الى تفاقم وجودهم من جديد ، وفي عام (٣٩٠هـ) بات خطرهم كبيرا ، اذ لم يكتفوا بكبس بيوت الناس ليلا ، بل فعلوا ذلك (نهارا جهارا) فأخذوا الاموال وقتلوا الناس وصارت شوكتهم قوية ، لينضم اليهم علويون وعباسيون . ثم عين (بهاء الدولة) عميد الجيوش لتدبير امر العراق والحد من نشاط العيارين ، فطاردهم

---

(٨٥) السابق ، ١٩٩ .

(٨٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧/١٧٤ ؛ ابن العماد ، شذرات الذهب ، ٣/١٠٦ .

(٨٧) البداية والنهاية ، ١١/٣١٢-٣١٣ .

(٨٨) الصابي ، تاريخ هلال ، ٨/٥-٦ .

وقبض على جماعات منهم ، واعمل فيها القتل والتغريق ، لهذا سكن الامر بعض الشيء[٨٩] . بعدها تجددت الاضطرابات مرة اخرى في العام اللاحق[٩٠].

وفي عام (٣٩٢هـ) كان الامر فادحا ، ففي شهر رمضان زاد نشاط العيارين من العلويين ، فواصلو (العملات) واخذوا اموال الناس[٩١] . وكان الامر يزداد سوءا يوما بعد يوم ، حتى انهم نجحوا في كبس دار احد المسؤولين ، وهو الناظر في ديوان المواريث وبعض الشؤون المالية ، لكن هذا لم يكن موجودا في بيته : كما انهم قتلوا بعض المسؤولين والوجوه[٩٢] . وامام هذه المخاطر الكبيرة اضطر اعيان بغداد للهرب من مدينتهم الى البطيحة ـ اهوار ـ والكوفة وغيرهما للخلاص بانفسهم واموالهم ، فاعيد عميد الجيوش مرة اخرى الى بغداد ، وازاء ذلك هرب الكثير من العيارين والشطار ، فجد في طلبهم ولاسيما العباسيين والعلويين منهم ، وكان يقرن العباسي بالعلوي ثم يغرقهما في النهر بمشهد من الناس ، ونجحت هذه السياسة المفرطة في القسوة في تحقيق نوع من الهدوء في بغداد[٩٣] . وما ذكره ابن الاثير بشأن احداث تتعلق بعام (٣٩٣هـ)[٩٤] . نعتقد انه يعود الى العام السابق لتشابه الاحداث بين ما ذكرته المصادر بشأن عام (٣٩٢هـ) وما ذكره هو بشأن عام (٣٩٣هـ) وهو العام الذي لم تشر المصادر الى اية احداث قد وقعت فيه ، وفي الوقت نفسه لم يشر ابن الاثير من جانبه الى ما وقع في عام (٣٩٢هـ) .

(٨٩) الذهبي ، العبر ، ٢/١٧٨ .

(٩٠) الصابي ، تاريخ هلال ، ٨/٧٥-٧٦ .

(٩١) نفسه ، ٨/١٠٥ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧/٢١٩ .

(٩٢) الصابي ، تاريخ هلال ، ٨/١١٥ .

(٩٣) نفسه ، ٨/١٠٧ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧/٢٢٠ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٢٦٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١١/٣٣٠ .

(٩٤) الكامل ، ٩/١٧٨ .

بعد ذلك لم تذكر المصادر شيئا من فعاليات العيارين حتى عـام (٣٨٠هـ) الذي تجدد فيه نشاطهم ، فطاردتهم الشرطة وشردتهم لتهـدأ الاحوال مـرة اخرى[٩٥] مدة عشر سنوات ، تجددت بعدها فعاليات العيارين في عام (٤٠٨هـ) وفيها اسرفوا في تتبع اموال الناس والسطو عليها[٩٦].

د ـ احداث الاعوام (٤١٥ـ٤٢٨هـ) :

وهي اطول مرحلة اتصل فيها نشاط العيارين ، ومثلت في الوقت نفسه ذروة نشاطهم ، بدأت فيها الاضـطرابات في شـهر رجب من عـام (٤١٥هـ) وتواصلت حتى نهاية عام (٤١٦هـ) . بدأت الاحداث على شكل فتنة بـين العيارين والعامة من جهة والجند الاتراك من جهة اخرى ، قام فيها الجند باحراق محلة طاق الحراني انتقاما من اهلها ، وفي غضون هذه الاحداث احرق العيارون دار الشريف المرتضى ونهب ما تبقى منها ، ومما ميز عملياتهم ايضا نهبهم الدور في وضح النهار ، اما عملياتهم الليلية فجرت تحت اضواء المشـاعل ، دون اي تكتم ، متحدّين الشرطة ، فكانوا يدخلون على الرجل من اصحاب الامـوال مطالبين اياه باستخراج ما عنده من اموال وذخائر مستخدمين الضرب في ذلك . فيستغيث الرجل ولكن لا مغيث ، كما انهم مارسوا القتل دون رادع ولا وازع ثم اشتد عداؤهم للجند الاتراك ، ولم يكن لاصحاب الشرطة من بد الا تـرك البلد ، فاضطر الناس الى وضع الابواب على الدروب وكانت تغلق ليلا ، لتحول دون اقتحام العيارين لها ، الا ان ذلك لم يغن شيئا[٩٧] . ويبدو ان وفـاة (شرف الدولة) في هذه السنة كانت فرصة طيبة لتأجيج الفوضى والاضطراب

---

(٩٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٢٣٧/٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٣٨/١١ .
(٩٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٢٨٧/٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٦/١٢ .
(٩٧) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٢٢/٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٩/١٢ ؛ انظر ايضا : ابن الاثير ، الكامل ، ٣٤٩/٩ ؛ سبط ابن الجوزي ، مـرآة الزمان ، ٢٢٨ ؛ الذهبي ، العبر ، ٢٣٠/٢ ؛ ابن العماد ، شذرات ، ٢٠٤/٣

بوجه السلطات[٩٨] • وهو ما رافقه ايضا الصراع داخل اجهزة السلطة نفسها حول المناصب والمصالح •

وفي مطلع عام (٤١٧هـ) وصلت بغداد فرقة من الجند (الاصفهلارية) لحفظ الامن فيها وقمع نشاط العيارين ، فكتبوا الكتب اليهم بالانصراف عن البلد ، غير ان الاستهانة بلغت بالعيارين مبلغا كبيرا ، اذ خرجوا بانفسهم الى معسكر هؤلاء الجند يصيحون عليهم بالسب والشتم ، ثم وقع القتال بينهم حتى لبس الجند عدة الحرب وقرعوا الطبول ، وتطور الامر الى ان هاجم الجند محلة الكرخ ، اكبر اسواق بغداد التجارية ، و (وقعت النار) فاحترقت اسواق ومحال كثيرة ، ورافقتها اعمال نهب وسلب واسعة النطاق استمرت يومين ، ولابد من ملاحظة ان اعمال النهب هذه مارسها الجند والعامة والعيارون على حد سواء • وهو ما دفع الشريف المرتضى بالتقدم لمقابلة الخليفة ليطلعه على تفاصيل ما حدث ، مستجيرا به وطالبا فرض الامن في البلاد ، فخلع عليه الخليفة ، ثم شدد الاصفهلارية قبضتهم لضبط الاوضاع ، بعدها فرضت على الناس مصادرات واسعة[٩٩] اعقبها فرصة للهدوء النسبي حتى عام (٤٢٠هـ) لتنبعث انشطة العيارين مرة اخرى[١٠٠] •

في العام اللاحق تفاقم الامر كثيرا ، ففي مطلع شهر صفر منه كبس خمسون عيارا دار احد الاشخاص في محلة نهر الدجاج ، فقتلوه وقتلوا من كان معه ، ثم احرقوا الدار ، دون ان يجرؤ احد من الجيران على فعل شيء خوفا من اعمال الانتقام ، وكان هذا في الجانب الغربي ، اما في الجانب الشرقي من المدينة فقد استشرى فيه نشاط احد قادة العيارين يدعى (البرجمي) الذي تمكن من بلوغ بعض مخازن الامتعة والمؤن ، فنهب شيئا كثيرا منها ، وقد

---

(٩٨) ابن العماد ، شذرات ، ٣/٢٠٤ ؛ ابو الفدا ، المختصر ، ٤/٥٤ .
(٩٩) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨/٢٤–٢٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢/٢٠
(١٠٠) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨/٤٠ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ٩/٣٩٣ .

لقي الناس منه اذى كبيرا[١٠١] . ثم توسع نشاط البرجمي في شهر شوال فقصد مع اتباعه درب علية ودرب الربيع وفتحوا ما وجدوه من مخازن وخانات سالبين ما قدروا على حمله ، كما كبسوا عددا من الدور واستولوا على ما فيها[١٠٢].

وفي عام (٤٢٢هـ) تفاقم الامر كثيرا مرة اخرى ، فقد كانت الفرصة للعيارين طيبة باشتعال نار الفتنة في شهر ربيع الاول ، فدخلوا البلد منتشرين في اسواقها ودروبها ، ومارسوا ما يحلو لهم من انشطة وفعاليات ، فكثرت (العملات) ليلا ونهارا ، ولما تجددت الفتنة في شهر شوال من العام نفسه تجدد نشاط العيارين ايضا[١٠٣] . فثار اهل الكرخ بهم بعد ان سرقوا من اصحاب الاكسية امتعة كثيرة ، ثم هربوا ، ورابط التجار في دكاكينهم ليلا ونهارا ، كما قاموا بمكاتبة (حاجب الحجاب) بان يتخذ ما يلزم لحماية الامن فاعيد ابو محمد النسوي الى منصب صاحب الشرطة ، اذ شددت الشرطة من اجراءاتها فقتلوا احد العيارين ونهبوا الدار التي استتر بها ، وبعد هدوء نسبي جدد العيارون نشاطهم ، حتى اضطر صاحب الشرطة الى الهرب ، فعادت الفتنة الى بغداد[١٠٤] . ثم تجرأ العيارون على دار السلطنة فنقبوها واخذوا منها قماشا[١٠٥].

وفي العام اللاحق ، وفي مطلع صفر منه ، ثار تجار الكرخ بالعيارين مرة اخرى ، فهربوا وطوردوا وكبست دورهم واخذت اسلحتهم ، وكتب التجار الى السلطات طالبين العون ، غير ان العيارين لم يلبثوا سوى أيام قليلة ثم عادوا لممارسة نشاطهم ، فكبسوا دار احد الوعاظ ، ليأخذوا ماله وما اودعه الناس

---

(١٠١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٤٧/٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٨/١٢ .
(١٠٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٥٠/٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣١/١٢ .
(١٠٣) ابن الاثير ، الكامل ، ٤١٨/٩ .
(١٠٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٥٤/٨ .
(١٠٥) الذهبي ، العبر ، ٢٤٥/٢ .

عنده من مال ، وعادوا الى كبس دور الناس حتى اصبح ذلك سلوكم الرئيس واختلط بهم في هذه الممارسة عدد من الاتراك وحواشيهم[106] . وقاد زعيمهم البرجمي عملية سطو كبيرة على احد الخانات ببغداد ، فنهب وقتل . كما فرض الضرائب على السفن الصاعدة والمنحدرة في دجلة ، وما استجد في عمله ، انه لم يكتف بنهب الدور ، بل كان يختم ذلك باحراق الدور التي نهبها . كل ذلك كان يجري والسلطات عاجزة ترقب الاوضاع وحسب[107] . ثم اعيد ابن النسوي الى الشرطة في بغداد ، فاجتهد في دروع العيارين وقمع نشاطهم[108] .

وفي عام (٤٢٤هـ) بلغ نشاط العيارين درجة خطيرة جدا من السلب والنهب وتحدي السلطات ، ولما تجرأ احد قادة الجند على اعتقال اربعة من العيارين قام (عقيدهم) باخذ اربعة من جند ذلك القائد ، ثم تقدم الى داره لمفاوضته في الامر ، الا ان هذا لم يجرؤ على الخروج من داره ، بل كلم العيار من داخلها اذ اتفق الطرفان على اطلاق ما احتجز من اتباع[109] . وفي اواخر شهر صفر كبس البرجمي درب ابي الربيع ووصل الى مخازن فيها اموال كثيرة جدا . وشاع بين الناس ان جماعة من الجند الاصفهلارية يتعاونون معه ، وهو أمر افزع الناس وايقنوا بتلف اموالهم فنقلوها الى دار الخليفة للامان الذي (تنعم) به ، ولاسيما بعد ان زاد عدد الجند الذين يحرسونها ، كما قام التجار بالمرابطة في اسواقهم ليلا ونهارا . وفي هذه الاجواء قتل صاحب الشرطة غيلة . فكان لابد لهذا الحدث ان يترك اثاره الواضحة في مزيد من التدهور في الاوضاع . فقد زادت العملات ، وكبست دار احد التجار التي اخذ منها عشرة الاف دينار . وبلغ الرعب بالناس انهم لم يكونوا يجرؤون على ذكر اسم البرجمي ، بل يذكر بوصفه القائد ابي علي ، احتراما وتعظيما لشأنه . وامام

---

(١٠٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨/٦٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢/٣٤ .
(١٠٧) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨/٦٦ .
(١٠٨) نفسه ، ٨/٦٦–٦٧ .
(١٠٩) ابن الاثير ، الكامل ، ٩/٤٣٢ .

هذه الاوضاع قرر قادة الاصفهلاوية الخروج بقوتهم العسكرية الى حيث يعسكر البرجمي واصحابه ، وكان المكان عبارة عن اجمة كبيرة من ماء وقصب امتدت خمسة فراسخ (= ٣٠ كغم) وفي وسطها تل اتخذه قائدهم معقلا ومنزلا له ، فحوصر المكان الا ان البرجمي خرج اليهم (كذا) وخاطبهم بقوله : مـن العجب خروجكم الي ، وانا عندكم في كل ليلة ، فان شئتم ان ترجعوا وانـا اتيكم ، وان شئتم الدخول الي فافعلوا ، غير ان جماعة من الاصفهلارية راسلوه سرا وشددوا من امره ، فعاد الجند دون فعل شيء[110].

وفي جمادى الاولى من العام نفسه (٤٢٤هـ) زادت عمـلات العيارين وكبساتهم للدور مرة اخرى ، وعمت الفوضى مناطق واسعة من بغداد ، فاحترقت الاسواق ونهب درب عون واخذت ابوابه ، ونهب درب القراطيس ايضـا والفروع التي تؤدي اليه[111] . وكان الامر يزداد تفاقما في كل يوم ، ولم تنفع اية اجراءات لردع العيارين ، بل إن صاحب الشرطة اضطر نفسه الى الاختفاء. وبلغ الامر حدا خطيرا في اواخر شهر شوال ، مما حدا العامـة على الثورة في جامع الرصافة ومنعوا الخطبة ورجموا الخطيب في يوم الجمعة ، وقالوا : امـا ان تخطب للبرجمي ، والا فلا خطبة لخليفة او لملك ، عندها اضطرت السلطات الى تشديد الاجراءات وعين ابو الغنائم بن علي على المعونة ، فقتل جماعة مـن العيارين ، فهدأت الاحوال نسبيا[112] . لقد بلغ من سخرية الاوضاع ان احد (وجوه القادة) الاتراك اراد ان يختن ابنه فلم يقدر على ذلك حتى اهـدى للبرجمي هدايا قيمة ، طالبا منه الذمة والحماية على داره في اثناء الحفل ، كـل هذا التدهور في الامن وبغداد فيها عشرون الفا من العسكر والجند[113].

(١١٠) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٢/٨ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ٢٦٣

(١١١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٢/٨ .

(١١٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٥/٨ .

(١١٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٢٦٣ .

ولم يكن عام (٤٢٥هـ) اقل مأساوية من الذي قبله ، فقد وقعت الفتنة ببغداد التي كان من طرائفها انتقال عدواها الى العيارين انفسهم ، فتحزب كل فريق منهم الى طائفته ومذهبه[١١٤] . اذ كمل عيارو الكرخ مجانيق مذهبة استصحبوها معهم في زيارة المشهد الحائري في منتصف شعبان ، فقام اثنان من وجوه العيارين ، كانا قد تابا وعملا في دار الخلافة ، بصنع مجانيق مماثلة صحبوها معهم برفقة عدد من اتباعهم السابقين من العيارين الى قبر مصعب بن الزبير في الاول من رمضان[١١٥] . وكل ذلك كان من الامور التي ابتدعت في حينه ، وكل كان يريد كيد الطرف الاخر ، فعاد العيارون الى الانتشار ومواصلة كبساتهم بالليل والنهار ، باسطين سطوتهم على كل شيء ، من ذلك ان البرجمي اتفق مع عامل المآصر الاعلى بقطيعة الرقيق ، بان يعطيه هذا في كل شهر عشرة دنانير من وارد المآصر وان يسمح بمرور سميريتين ــ وهي من سفن النقل ــ بغير اعتراض ، مقابل تعهد البرجمي بتوفير الحماية لهذه المآصر . ثم عاث هذا فسادا في الجانب الشرقي ، ودخل خانا يدعى بخان القوارير ، ونهب منه شيئا كثيرا ، ثم حاول بسط نفوذه على الجانب الغربي ايضا ، الا انه لم يفلح في ذلك كما يبدو . بسبب قيام الناس بحراسة محالهم ودروبهم[١١٦] . في حين نجح في كبس دار مجاورة لدار الوزير[١١٧].

وبلغت الاستهانة حدا ان طلب البرجمي ان يتولى هو منصب صاحب المعونة وحفظ الامن ، فاجيب الى ذلك فـ « وجدت (أي حصلت) فضائح لم يدون مثلها » ثم ادخل العيارون ايديهم في « اعمال السلطان وجبوا البلد » كما « عملوا لهم اعلاما مذهبة وتسموا بالقواد وغلبوا بغداد من الجانبين ، وبذل (معتمد الدولة) للبرجمي مالا كثيرا »[١١٨] . وعند هذا الحد كان العيارون

(١١٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٦/١٢ .
(١١٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٨/٨ .
(١١٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨/٧٦ــ٧٧ .
(١١٧) ابن الاثير ، الكامل ، ٤٣٨/٩ .
(١١٨) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٣٦٤ .

قد ملكوا الامور فعلا • واصبحوا هم السادة والحكام ولم يكن امامهم سوى اعلان سقوط السلطة البويهية واعلان حكومة اخرى غيرها و (تحرير) الخلافة من تغلب هؤلاء • الا ان شيئا من ذلك لم يحصل ، لان هؤلاء لم يكونوا يمثلون اية مقاومة للتغلب البويهي ، وليس لهم ادنى تصور سياسي عن الدولة والسلطة والحكم ، وجل ما يعنيهم ان تكون السلطة في اضعف احوالها ، فذلك ما يمثل المناخ الامثل لممارسة نشاطاتهم في السطو والسلب والنهب ، وهذا يفسر تصديهم في بعض الاحيان لرجال الشرطة والسلطة ، لان هؤلاء خصومهم الحقيقيون في انشطتهم ، وقوة هؤلاء تعني الحد من نشاطاتهم في السرقة اللصوصية في حين ان ضعف اجهزة الشرطة واستهدافها يتيح لهم حرية في فعالياتهم وانشطتهم ، ان العيارين لم يتفكروا قط في تغيير شيء من معالم السلطة السياسية ، لانهم لا يدركون من ذلك شيئا لبساطة عقولهم ومحدودية ثقافتهم وجهلهم في آليات بناء الافكار وتوجيهها الوجهة الصحيحة غير السلب والنهب •

اما نهاية البرجمي هذا ، فكانت قاسية ، اذ قبض عليه ثم جرى تغريقه في روايتين مختلفتين ، نسبت الاولى لقرواش القيام بهذا العمل ، اذ جاءه البرجمي ملتمسا منه اطلاق احد الاشخاص الذين قبض عليهم ، لمودة كانت بينهما ، غير أن قرواشا لم يعر ذلك ادنى رعاية ، بل انه قبض على البرجمي الذي اغراه بالمال الكثير ، فلم يغن عنه ذلك شيئا ، فغرقه[119] • وفي رواية اخرى ان (معتمد الدولة) نجح في القبض عليه في منتصف رمضان من عام (٤٢٥هـ) فغرقه في النهر رافضا الرشوة التي عرضها عليه ان هو اطلعه[120] • بعد ذلك جرت محاولات لاستصلاح شأن العيارين بالتوبة والعمل في دار الخلافة او ان يتركوا البلد ، ومنحوا لذلك مهلة امدها ثلاثة ايام ، فخرج معظمهم من

---

(١١٩) ابن الاثير ، الكامل ، ٤٣٨/٩ •

(١٢٠) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٩/٨ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٣٦٤ •

بغداد ، لكنهم لم يلبثوا الا يسيرا ثم عادوا من جديد ، فكثر الفساد ايضا ، حتى إن صاحب الشرطة اضطر للاستغناء من منصبه خوفا على نفسه من بطشهم ولعجزه عن فعل شيء ازاهم[١٢١].

وفي عام (٤٢٦هـ) تجددت الفوضى في بغداد ، وواصل العيارون عملاتهم ليلا ونهارا « ولا مانع لهم لان الجند يحمونهم على السلطان ونوابه والسلطان عاجز عن قهرهم »[١٢٢] . واستشرى امرهم فـ (فتكوا وقتلوا) فقتل صاحب الشرطة منهم رجلا ، فقتلوا اثنين ، ثم احتشدوا لمقاتلة صاحب الشرطة نفسه واستعد هو لقتالهم ، عندها لجأ العيارون الى الاحتماء بدور الجند الاتراك يقيمون فيها نهارا ويخرجون منها ليلا لممارسة نشاطاتهم . ثم كتبوا رقاعا والقوها في الطرقات يطلبون فيها اقصاء ابي الغنائم عن منصبه كصاحب شرطة مقابل حفظهم البلد ، فعم الفساد ومنع السقاؤون من حمل الماء الى بعض المحال واصيبت السلطات بخذلان كبير فسيطر العيارون على بغداد[١٢٣] . و « ملكوا الجانبين ولم يبق للخليفة ولا لجلال الدولة حكم »[١٢٤] . وهنا ظهر منهم كل سوء في الخلق فـ « كاشفو بالافطار في رمضان وشرب الخمر وارتكاب الفروج » كما اشعلوا الحرائق في الاسواق والمحلات مع اعمال سلب ونهب متواصلة[١٢٥] . وكأن السلطات اسلمت الامر والقيادة لهؤلاء فعليا يعيشون في بغداد فسادا دون وازع او رادع . ليكون ذلك الفراغ السياسي والامني الثاني الذي ظهر في بغداد ولم يتمكن احد من انتزاع المبادرة واعلان سلطة سياسية حقيقية تمسك الامور بقوة وتنقذ البلاد من الفساد المستشري ، ويعود ذلك ببساطة الى انه لم تكن هناك اية قوة حقيقية تتولى هذه المسؤولية اخاو

---

(١٢١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٩/٨ .
(١٢٢) ابن الاثير ، الكامل ، ٤٤٠/٩ .
(١٢٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨٢/٨ .
(١٢٤) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٣٦٩ .
(١٢٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨٣/٨ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٣٦٤

بغداد من اية جهة سياسية قادرة على استغلال مثل هذه الفرصة . ولم يكن سبات الخليفة قد انقضى اجله بعد ، فكان اضعف من ان ينفخ الروح مرة اخرى في مؤسسة الخلافة وكان العجز واضحا واشهر من ان يشار اليه .

وفي الحرم من عام (٤٢٧هـ) كبس العيارون دار احد القادة الاتراك (بلور بك التركي) في محلة باب خراسان واخذوا ما فيها ، بعدها بثلاثة اشهر هاجموا دار صاحب الشرطة (ابن النسوي) واحرقوها ، وكانوا قرابة المئة رجل ، ثم فتحوا احد الخانات ونهبوها على مسمع ومرآى من الناس ، ولا احد يجرؤ على تحريك ساكن[١٢٦] . وفي جمادى الآخرة من العام اللاحق هاجم العيارون احد السجون بالجانب الشرقي ، واخذوا منه رجالا معينين ثم قتلوا سبعة عشر من رجال الشرطة[١٢٧] . كما تمادوا في اعمالهم التي استهدفت بسطاء الناس ايضا مثل السقائين ، اذ سلبوهم بغالهم ، واخذوا من القصارين ثيابهم[١٢٨] .

هـ ــ المرحلة الاخيرة من نشاط العيارين :

يبدو ان الاجواء ببغداد تمتعت ببعض الاستقرار اكثر من عشر سنوات اذ خفت نشاط هؤلاء بشكل مفاجىء وهم في ذروة فعالياتهم وسطوتهم ونفوذهم ، وليس في المصادر ما يفسر سبب هذا الهدوء ليظهر من جديد في عام (٤٤١هـ) بشكل لافت للنظر من جديد . فاشتدت شوكتهم في الجانب الغربي من بغداد ، حتى اضطر كثير من الناس الى ترك مساكنهم والانتقال الى القسم الشمالي من الجانب الغربي (منطقة الحريم) فاشتروا الخرابات وعمروها[١٢٩] . ونجح العيارون في عام (٤٤٣هـ) في كبس صاحب الشرطة ابي محمد بن النسوي

---

(١٢٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨/٨٨ ؛ الذهبي ، العبر ، ٢/٢٥٥ .
(١٢٧) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨/٩١ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢/٤٠ .
(١٢٨) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨/٩١ .
(١٢٩) نفسه ، ٨/١٤٢ .

وفي العام اللاحق أشـتدت الفتنـة
الاشـرار واخذوا الاموال

حدا كبيراً ...
(٢٤٩٧هـ) بمجيء الـلاجئة ...
جع من نشـاطـات كبيرة ...
فاتهم الفردية معتمادين ...
له من رجال آخرين ، وذلك
يوحي بالعجز عن الامساك به ، وهو ...
نشاط ، وهذا من سمات ...
العيارين في هذه المرحلة لا ...
...

جع حركة العيارين والشطار ابعد من القراءة
بانها ثورة شعبية رمت الى التصـدي
... ، غير ان تحليل معطيات تاريخ هـذه
... تشير الى اتجاهات بعيدة عما ذهب

... القرن الثاني للهجرة واستمرت ...
... على الاوضاع الاقتصادية السيئة وتفشي
الفقراء والاغنياء ، حتى لم يبق ثمة ...
المعيشية ، فعانى هؤلاء حالة ...

شديد وعجز كبير ، وكان لابد ان تتولد عنه معطيات خطيرة من القوة والعنف والسعي للحصول على الاموال بغض النظر عن الطريقة والوسيلة • لهذا تجدهم قد وضعوا نصب اعينهم ثروات الاغنياء ولاسيما التجار منهم • ان هذه الحيثيات التي وقفت وراء نشوء هذه الحركة استمرت طوال وجودها ، فلم تشهد الاوضاع الاقتصادية اي تحسن يمس اوضاع هؤلاء ، فكان لابد للحركة من ان تستمر وتشتد كلما ازدادت الاوضاع سوءا •

عليه ، ومن الناحية البدئية ، فانه لم تكن هناك اية حيثيات سياسية وقفت وراء النشأة الاولى لهذه الحركة ، اذ لم يكن في الاوضاع السياسية ما يدفع هؤلاء للتمرد عليها ، بيد ان ظهور الصراع بين الامين والمأمون ثم بين المستعين والقادة الاتراك ، خلق مناخا سياسيا عاما في بغداد كان جديدا في معالمه • فقد كان الخليفة الشرعي في خطر ، وبرز الخليفة في كلتا الحالتين مدافعا عن حقه فقادة الجيش والعامة ، التي استجابت لدواعي الخليفة في الدفاع عن حقه هذا ، وهكذا انخرط العيارون في الصراع مناصرين لخليفتهم ولمدينتهم التي كان الخطر محدقا بها •

اما بشأن الخلافة التي نحن بصددها والمتعلقة بموقف العيارين ازاء السلطة البويهية وطبيعة العلاقة المترتبة بينهما ، فيحسن بنا ان نأخذ المعالم الاتية بنظر الاعتبار :

- ان مفهوم (المقاومة) الشعبية المسلحة ، هو من المفاهيم الحديثة تبلورت في ضوء حركة الاستعمار التي اجتاحت العالم بعد حركة الاستكشافات الجغرافية ، ومن ثم فان هذا المفهوم كان غائبا عن الساحة السياسية والفكرية ، وبما ان المفاهيم هي التي ترسم حدود حركة الانسان واتجاهاتها ، لذا غياب مفهوم ما عن الساحة الفكرية يعني استحالة تفسير اي سلوك او ظاهرة سياسية من ضوئه ، ولاسيما مع وجود مفاهيم اخرى كان لها دورها السياسي والفكري في حينه •

- وفي هذا الاطار فان مما يجب ان يوضع في الحسبان عند مناقشة اية ظاهرة اجتماعية او سياسية هو تعرّف المناخ الفكري السائد الذي نشأت الظاهرة في اطاره العام . فقد كانت الشريعة الاسلامية والافكار الاسلامية هما المناخ الذي تحركت في ظله معطيات تاريخنا الاسلامي . وهذا المناخ الفكري لم ينظر الى البويهيين بوصفهم اجانب او غزاة ، بل هم مسلمون متغلبون ، تغلبوا على السلطة ، والمتغلب في ضوء المعالم الشرعية له كلمة نافذة ، ولاسيما ان البويهيين ابقوا على الخليفة ، وان كان ذلك اسميا ، ولهذا لم نجد ايا من الفقهاء او العلماء افتى بوجوب الخروج على هؤلاء بالسيف او التصدي لهم بالقوة ، ليس لان هؤلاء المتغلبين كانوا على صواب تام وحازوا الشرعية التامة ، ولكن لم يكن الخروج عليهم بالسيف لازما في حينه ، وفي مثل حالتهم يكون التصدي لهم بوسائل اخرى غير السيف ، من ذلك المقاطعة وعدم معاملتهم ، ان الخلفاء العباسيين انفسهم لم يقودوا مقاومة حقيقية لهؤلاء في بغداد على غرار ما فعله الامين والمستعين ، لهذا لم يكن هناك ما يعبىء العامة ويحشدها نحو التصدي للبويهيين . والعامة ليست هي التي تبني الافكار او تقود الجماعات بل العامة تكون عادة منقادة ، فلما لم يكن هناك من يقودها ، لذا لم يكن منتظرا منها ان تفعل ما هو خارج قدرتها . وقد تبين من خلال العرض السابق في سياق البحث ان سلطة البويهيين بلغت درجة كبيرة من الهشاشة والضعف الا ان ذلك قابله فراغ سياسي من الجانب الاخر ، فلم تكن ثمة قوة تتولى قيادة الامور والاستيلاء عليها والخليفة نفسه قد بلغ من الضعف ما جعله عاجزا عن القيام بفعل حقيقي وجاد ضد البويهيين .

- ان هدف تغيير السلطة لم يكن ظاهرا ولا فاعلا على اي مستوى فكري او سياسي . وغياب الهدف يعني غياب القوة المحركة والدافعة نحو الهدف نفسه ، فمن العقم ان توصف افعال العيارين بانها مقاومة مع غياب هدف

تغيير السلطة من الاذهان • ومجرد الموافقة في الشكل لا يعني وجـــود مثل هذا الهدف • فتصدي العيارين للشرطة وبعض رجال السلطة لا يعني ان ذلك يمثل مقاومة سياسية • بل جاء تصديهم لهم لكونهم المعـــوق لانشطتهم في السلب والنهب • لهذا كان تصديهم لهم في الحقيقة علـى قدر عرقلة هؤلاء لفعاليتهم وانشطتهم هذه • لذا لا تعد توصيفات مـن قبيل المقاومة والثورة الشعبية سوى عملية اسقاط لمفاهيـم حديثة علـى وقائع تاريخية لا تمت لهذه المفاهيم بصلة •

- لقد كشفت حركة العيارين والشطار عن عجز الدولة والمجتمع عن معالجة الاوضاع الاقتصادية المتدهورة ، وهو أمر كان لابد ان يترتب عليه انبثاق ظواهر خطيرة شكلت ردود فعل سلبية على هذا العجز والاحباط الـذي اصاب القطاعات الفقيرة من المجتمع ، اذ أسفرت هذه الاوضاع عن حركة العيارين والشطار بكل تداعياتها السلبية والايجابية •

المصادر والمراجع :

- ابن الاثير ، الكامل في التاريخ (بيروت : د/ت) .
- ان تفري بردي ، النجوم الزاهرة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتـــب (القاهرة : د/ت) .
- ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم (بغداد : ١٩٩٠)
  تلبيس ابليس (القاهرة : د/ت) .
  الاذكياء ، تحقيق : محمد عبدالله الصديق (القاهرة : د/ت)
- ابن العماد ، شذرات الذهب في خبر من ذهب (بيروت : د/ت) .
- ابن الكازروني ، مختصر التاريخ ، تحقيق : مصطفى جواد (بغداد : ١٩٧٠)
- ابن كثير : البداية والنهاية (بيروت : ١٩٧٧) .
- ابن مسكويه ، تجارب الامم ، تحقيق : امدروز (مصر : ١٩١٦)
- او الفدا ، المختصر في اخبار البشر (بيروت : د/ت)
- د. بدري محمد فهد ، العامـة في بغـداد في القـرن الخامـس الهجـري (بغداد : ١٩٧٦)

- التنوخي ، الفرج بعد الشدة (القاهرة : ١٩٠٤)
  نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة ، تحقيق : عبود الشالجي
- التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة ، تحقيق : احمد امين واحمد الزين (بيروت : د/ت)
  رسالة الصداقة والصديق : تحقيق : ابراهيم الكيلاني (دمشق : ١٩٦٤)
  المقابسات ، تحقيق : حسن السندربي (القاهرة : ١٩٢٩)
- الذهبي ، تاريخ الاسلام ، تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري (بيروت:١٩٨٩)
  العبر في خبر من غبر ، تحقيق : جنان خليل (بغداد : ١٩٩٠)
- الصابي ، تاريخ هلال بن المحسن ، تحقيق : امدروز ومرجليوث (القاهرة : ١٩١٩)
- طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية للتسلط البويهي في العراق ، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة بغداد : ١٩٦٨)
- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد ابي الفضل ابراهيم (بيروت : ٢/ت)
- د. عبدالعزيز الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري (بيروت : ١٩٩٩)
- د. عبدالعزيز الدوري ، دراسات في العصور العباسية المتأخرة (بغداد : د/ت)
- د. فاروق عمر فوزي ، النهوض العربي في العراق (بغداد : ١٩٨٩)
- فالتر هنتس ، المكاييل والاوزان ، ترجمة : د كامل العسلي (عمان : د/ت)
- القشيري ، الرسالة القشيرية (بيروت : د/ت)
- محمد رجب النجار ، الشطار والعيارون (الكويت : ١٩٨٩)
- المسعودي ، مروج الذهب (بيروت : ١٩٨٣)
- المقدسي : احسن التقاسيم ، تحقيق : ذي خوية (ليدن : ١٩٠٦)
- د. موفق سالم نوري ، العامة والسلطة في بغداد (اربد : ٢٠٠٣)
- الهمذاني ، تكملة تاريخ الطبري ، ضمن الجزء الحادي عشر من تاريخ الرسل والملوك للطبري .

الدلالات النفسية للصور الفنية في قصيدة (أنشودة المطر) للسيّـاب

د. جبير صالح القرغولي
كلية اللغة العربية وعلوم القران
الجامعة الإسلامية

الملخص

اتخذ الشاعر بدر شاكر السياب في قصيـدته (أنشودة المطـر) الصور الفنية أدوات للتعبير . وجاءت مجموعة الصور هذه في لوحـة كبيرة تضم نمطين منها . النمط الأول صور مقدمة القصيـدة ، وهـي قائمة على فن التشبيه ، وصور فكرة القصيدة ، او القضية ، وهي صور فنية اعتمدت اللقطات واللمحات ذات الجذر الواقعـي الممتد الى حيـاة الشاعر ، او خياله الساري في أنحاء ديوانه .

اتجه البحث الى تحليل عناصر الصور في المقدمة ، بإبراز أهـم أركان التشبيه ، ذات الصلة بالإبداع الفني ، وهما المشبه به ووجه الشبه وظهر أن لهذين الركنين أهمية في حياة الشاعر تؤكدها شواهد كثيرة في الديوان . كما ظهر ان مسار العلاقات القائمة في المقدمة يفرض إعـادة قراءة لها على وفق مخطط جديد . أما الصور المعبرة عن القضية ، فان لها امتداداً في الديوان ، حاول الباحث ان يؤشر مساره ، وجاء التأشـير ليثبت واقعية تلك الصور ، وتحقق عنصر الصدق الفني فيـها ، الـذي يؤكده انتظام الأفكار التي تعبر عنها وتناسقها .

ان مقدمة القصيدة وفكرتها مرتبطتان ، وهما تشـكلان وحـدة موضوعية ، من حيث الجوانب النفسية وتأثيرها في تلوين رؤى الشاعر بما يلائمها من قتامة أو إشراق .

المقدمة

يمثل هذا البحث دراسة متواضعة لقصيدة (أنشودة المطر) للشاعر بدر شاكر السياب ، كان أساسها ولعا فطرياً ، مبهماً نبت في النفس منذ عهد مبكر ، أبان مرحلة الدراسة المتوسطة ، ونما ولم يحل دون ايناعه عائق ، لان كل قراءة جديدة للقصيدة تزيد جذوره رسوخاً في النفس .

وبتقدم العمر ، وتنوع القراءة استوقفتني التشبيهات المتكررة في مقدمة القصيدة ، مثيرة فيَّ رغبة في تحليل عناصرها ، وبيان الدوافع النفسية ، والحالة الشعورية للشاعر ، وهو ينتقي المشبه به ووجه الشبه بوصفهما ابرز ما يفصح عن المقدرة الفنية لأي مبدع ، وهو يصوغ التشبيه .

ان بناء هذه القصيدة ، مقدمتها وما أفضت اليه من قضية قائم على تتابع الصور الفنية في لوحة كبيرة ، محكمة النسج . وان كل صورة فيها تفصح عن خزين من الجوانب النفسية له أثره في تلوينه بألوان من المشاعر والأحاسيس ، التي وجد الباحث أنها ليست محصورة في إطار اللوحة المذكورة ، إنما هي ممتدة على مساحة ديوان الشاعر كله .

ومن خلال إنعام النظر في مقدمة القصيدة ، وربط عناصر الصور أو التشبيهات فيها ، وجد الباحث ان بها حاجة الى إعادة قراءة على وفق مخطط جديد ، يلبي تصوره عن سلسلة العلاقات القائمة في مجموعة الصور تلك ، وهذا ما حدث . وهو محاولة لا تخلو من مجازفة عند دراسة اثر فني لامع ، مثل الأنشودة . دفعني منهج البحث القائم

على موازنة صور القصيدة بما ورد في مواضع متفرقة من الديــوان ، وتلمس امتدادات لأجواء القصيدة فيه الى الأعراض عن الكم الكبير مــن الدراسات الأدبية القيمة عن الشاعر ، والاقتصار على دراستين فقــط ، فيهما ملامح ناصعة ، يمكن ان تستند إليها ، أو تتناسق وإياهــا وجهــة النظر المتواضعة التي جاء بها الباحث وهذا هو الســبب الرئيــس فــي بساطة عدد المصادر في البحث ، الذي يرى الباحث انه لا يزيد علــى كونه قراءة من زاوية جديدة يرجو ان تكون مقنعة ، وان يعقبها غفــران ما ورد فيها من شطط وهفوات .

والله ولي التوفيق

الدلالات النفسية للصور الفنية في قصيدة (أنشودة المطر) للسيـــاب

هذه القصيدة واحدة من اشهر قصائد الشاعر بدر شاكر السياب . ولا نغالي اذا قلنا انها من غرر الشعر العربـــي لحديـث . ويبــدو ان الإحساس بقيمتها الفنية كان مبكراً جداً ، وملازماً للحظات الأولى التـــي استوت القصيدة فيها نصاً شعرياً ، جاهزاً لان يتداوله المتلقون ، وصـــار هذا الإحساس الدافع الى تسمية الديوان الذي يضمها باسمها .

سيسعى هذا البحث الى رصد الصور الفنية فـــي (الأنشـــودة) وتحليلها ، ببيان عناصرها ، والإشارة الى ما تنطوي عليـــه من دلالات نفسية ، استناداً الى أهمية الجانب النفسي في خلـــق الصـــورة الفنيـــة ، واختيار عناصرها ، سواء تدخل الوعي في ذلك ، او لم يتدخل .

تبدأ القصيدة بقول الشاعر :

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر

او شرفتان راح ينأى عنهما القمر

عيناك حين تبسمان تورق الكروم

وترقص الأضواء .... كالأقمار في نهر

يرجه المجذاف وهناً ساعة السحر

كأنما تنبض في غوريهما النجوم

وتغرقان في ضباب من أسى شفيف

كالبحر سرح اليدين فوقه المساء

دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف

والموت ، والميلاد ، والظلام ، والضياء

فتستفيق [illegible] رعشة البكاء

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

مطـ .....

مطر

مطـر ... ...

تثاءب المساء والغيوم ما تزال

[illegible] من دموعها الثقال

[illegible] بات يهذي قبل أن ينام

[illegible] أمه ــ التي أفاق منذ عام

[illegible] ، ثم حين لجّ في السؤال

[illegible] بعد غد تعود .....)

[illegible]

[illegible] الرفاق أنها هناك

[illegible] نومة اللحود

[illegible]

[illegible]

وينثر الغناء حيث يأفل القمر

مطر ......

مطر ......

أتعلمين أي حزن يبعث المطر ؟

وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر ؟

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع ؟

بلا انتهاء ــ كالدم المراق ، كالجياع

كالحب ، كالأطفال ، كالموتى ، هو المطر

ومقلتاك بي تطيفان مع المطر

وعبر أمواج الخليج تمسح البروق

سواحل العراق بالنجوم والمحار

كأنها تهمُّ بالشروق

فيسحب الليل عليها من دمٍ دثار

أصيح بالخليج : (يا خليج

يا واهب اللؤلؤ ، والمحار ، والردى !)

فيرجع الصدى

كأنه النشيج :

(يا خليج

يا واهب المحار والردى)

أكاد اسمع العراق يذخر الرعود

ويخزن البروق في السهول والجبال

حتى إذا ما فض عنها ختمها الرجال

لم تترك الرياح من ثمود

في الواد من اثر

أكاد اسمع النخيل يشرب المطر

واسمع القرى تئن والمهاجرين

يصارعون بالمجاذيف وبالقلوع

عواصف الخليج ، والرعود منشدين

(مطر .....

مطر ......

مطر ......

وفي العراق جوع

وينثر الغلال فيه موسم الحصاد

لتشبع الغربان والجراد

وتطحن الشوّان والحجر

رحىً تدور في الحقول .... حولها بشر

مطر ......

مطر ......

مطر ......

وكم ذرفنا ليلة الرحيل من دموعَ ؟

ثم اعتللنا ــ خوف أن نلام ــ بالمطر

مطر ......

مطر .....

ومنذ أن كنا صغاراً ، كانت السماء

تغيم في الشتاء

ويهطل المطر

وكل عام ـ حين يعشب الثرى ـ نجوع
ما مر عام والعراق ليس فيه جوع
مطر ......
مطر ......
مطر ......
في كل قطرة من المطر
حمراء او صفراء من أجنّة الزهر
وكل دمعة من الجياع والعراة
وكل قطرة تراق من دم العبيد
فهي ابتسام في انتظار مبسم جديد
او حلمة توردت على فم الوليد
في عالم الغد الفتي ، واهب الحياة
مطر ......
مطر ......
مطر ......
سيعشب العراق بالمطر)
أصيح بالخليج : (يا خليج
يا واهب اللؤلؤ والمحار والردى !)
فيرجع الصدى
كأنه النشيج :
(يا خليج
يا واهب والمحار والردى)
وينثر الخليج من هباته الكثار

على الرمال : رغوه الأجاج والمحار

وما تبقّى من عظام بائس غريق

من المهاجرين ظل يشرب الردى

من لجة الخليج والقرار

وفي العراق ألف أفعى تشرب الرحيق

من زهرة يربّها الفرات بالندى

واسمع الصدى

يرن في الخليج

مطر ......

مطر ......

مطر ......

في كل قطرة من المطر

حمراء او صفراء من أجنة الزهر

وكل دمعة من الجياع والعراة

وكل قطرة تراق من دم العبيد

فهي ابتسام في انتظار مبسم جديد

او حلمة توردت على فم الوليد

في عالم الغد الفتي ، واهب الحياة

ويهطل المطر ....

ارتكزت القصيدة على لوحة فنية كبيرة مكونة من صور عـدة ، أولها الصورة الآتية :

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر

او شرفتان راح ينأى عنهما القمر

وهذه الصورة قائمة على فن التشبيه . وان لدلالـة عناصر التشكيل البلاغي أهميتها في تحليل مثل هذا النمط من الصور .

يبرز في الصورة عنصران ، لدلالتهما تأثير كبير في بنائـها وإيحائـها وهما : النخيل ، وساعة السحر

أما النخيل ، فانه يعني الكثير في عالم السياب ، انه جزء من العالم الذي يلجأ إليه عندما يفتقد الطمأنينة :

حدثي .. حدثيه عن ذلك الكوخ

وراء النخيل بين الروابي

حلم أيامه الطوال الكئيبات

فلا تحرميـه حلم الشباب

أوهميه بأنه سوف يلقاك

على النهر تحت ستر الضباب

وأضيئي الشموع في ذلك الـ ـم ـ

كوخ ، وان كان كله من سراب [١]

وما أحلى الاسترخاء تحت افياء النخيل ، وان كان ذلك الاسترخاء ذكرى أو حلماً ! :

---

(١) ديوان بدر شاكر السياب : ٦٠

دار العودة ، بيروت ١٩٧١ م

لكنه الحلم الطويل

بين التمطي و التثاؤب تحت افياء النخيل[٢]

وللنخيل حضور دائم في وجدانه لا تمحوه شواغل الحياة وأعباؤها . وان إثارة عاطفية يسيرة كافية لتأجيج ذكراه :

وصدى غناء

ناءٍ يذكر بالليالي المقمرات وبالنخيل

وأنا الغريب ..... أظل اسمعه واحلم بالرحيل

في ذلك السوق القديم [٣]

ان للغربة مرارة لا يعرف مذاقها إلا الغرباء . وها هو ذا السياب في لحظات غربة مرة ، لا يجد من يتحدث إليه ، الا الشموع التي كانت تنير ليل غربته ، مذكرةً إياه بليال آنسه فيها همس سعفات تردد صدى غناء جنوبي :

تلقين ضوءك في ارتخاء مثل أوراق الخريف

في ليلة قمراء سكرى بالأغاني ، في الجنوب

نقر الدرابك من بعيد

يتهامس السعف الثقيل به ، ويصمت من جديد

والحب ظلله الخلود ، فلا لقاء ولا وداع [٤]

ويشكل النخيل حدود عالمه الخارجي ايضاً :

خلا الغاب ما فيه إلا النخيل

وإلا العصافير ، فهو ارتقاب

---

[٢] الديوان : ٢٥ .

[٣] الديوان : ٢٢ .

[٤] الديوان : ٢٤ .

وبين الحبيبين في جانبيه

من السعف في كل ممشى حجاب

فما كان الا وميض أضاء

ذرا [٥] النخل ، وانحلّ غيم وذاب [٦]

وترتقي دلالة النخلة لتصبح رمزا للريف كله :

هو الريف هل تبصرين النخيل ؟

وهذي أغانيـــه هل تسمعيـــن ؟ [٧]

وتوجه الشاعر باهتمامه صوب كل ما في النخلة ، حاملاً ولعـــه ليقول :

هو السعف

من قريتي ، رعشت لدى النهر

خوصاته ، وتلين لا تدري

أيان تنقذف [٨]

والنخيل ألذ ثمرات خياله :

ويزرع ألف غاب للنخيل غناؤك المكسال

ترقرقت الجداول بينهن وازهر الليمون [٩]

---

[٥] في الاصل (ذرى)

[٦] الديوان : ١٤ .

[٧] الديوان : ١٣ .

[٨] الديوان : ٦٤٨ .

[٩] الديوان : ٦٨١ .

ولعل مشهد النخيل في مطلع لقصيدة كافٍ للتعبير عـــن دلالـــة النخلة ، هذه الدلالة التي تصبح في أقوى حالاتها ساعة السّحَر . فـــهل للسّحَر من خصوصية ؟

يبدو ان للسّحَر وقعاً شجياً على نفس بدر ، أفصـــح عنـــه فـــي قصيدة (غربة الروح) :

يا غربة الروح .... لا شمس فأأتلقُ

فيها ، ولا أفق

يطير فيه خيالي ساعة السَّحَر [١٠]

والسّحَر طيف من الأطياف السعيدة التي تنسيه مرارة الألم :

يا رب لوجدت على عبدك بالرقاد

لعله ينسى

من عمره الأمسا

لعله يحلم انه يسير دونما عصا ولا عماد

ويذرع الدروب في السَّحَر

حتى تلوح غابة النخيل

تنوء بالثمر

بالخوخ والرمان والأعناب فيها يعصر الأصيل

رحيقه المشمس او تألق القمر [١١]

ولعل قوله الآتي هو اصدق تعبير عن منزلة السَّحَر من نفسه :

ان عدت من غربة المنفى هو السَّحَر [١٢]

---

[١٠] الديوان : ٢٦٠ .

[١١] الديوان : ٦٨٥ .

[١٢] الديوان : ٦٦٢

وبهذا تبدو جلية دلالة الطرف الأكثر أهمية وحيوية في التشبيه الأول ، وفي أي تشبيه آخر ، واعني المشبه به .

أمامنا صورتان قامتا على فن التشبيه ، فصل الشاعر بينهما بحرف العطف (او) الذي يفيد التخيير ، بمعنى ان كلا منهما كيان مستقل ، يفيد معنى له شحنته العقلية الخاصة . وعند تقسيم التشبيه بحسب طرفيه ، فان طرفي التشبيه في الصورتين حسيان كلاهما . فالمشبه هو عينا امرأة ، وهما شيء حسي ، والمشبه به في الصورتين حسي ايضاً . وهو غابتا النخيل والشرفتان ، ولكنه مؤطر بظلال عقلية هي : ساعة السحر ، ونأى القمر عن الشرفتين . ان هذه الظلال العقلية المؤطرة للمشبه به ، والمكملة له ، هي العامل الحاسم في تحديد وجه الشبه ، الذي لن يتضح إلا من خلالها ، والذي هو مدار البحث في هاتين الصورتين ، وهو المدخل المفضي الى الصور الأخرى .

انطلق الشاعر في رسم كلتا الصورتين من تشبيه مفرد هو : تشبيه العينين بغابتي نخيل مرة ، وشرفتين أخرى . ونرى ان الصورة الأولى قد استوفت شحنتها العاطفية المبتغاة بشكل تام ، في ظل معرفتنا دلالة النخيل في نفس الشاعر ، الذي ارتقى بتشبيهه المفرد هذا درجة كاد يصبح فيها تشبيهاً مركباً ، حين أضفى على الصورة تلك اللمسة الحالمة (ساعة السحر) ، بما فيها من خزين عاطفي ... وبهذا يزدحم المشبه به بالدلالات النفسية المشحونة عاطفة .

يقودنا هذا الى السؤال الآتي : هل ينطوي وجه الشبه على دلالة غير الدلالة الروحية ؟ وهل يمكن ان نقف فيه على أية إضاءة حسية تزيد صورة العينين جلاء ؟

يمكن القول ان فيه لمسة تضفي على العينين بريقاً او وهجاً توحي به (ساعة السَّحر) ، فالسَّحَر لغة هو وقت قبيل الصبح [١٣] وبروزه في الصورة يوحي بازدياد الإشراق كلما اقبل الفجر . ويمكن ان نطمئن الى هذا الاستنتاج ، لولا التناقض الذي يفضي إليه التشبيه الثاني :

أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر

فهذه الصورة توحي بازدياد العتمة حين يأخذ القمر بالنأي عن الشرفتين . إن هذا التناقض يعود بنا الى التأمل والتساؤل من جديد .... أفي وجه الشبه إشارة الى تباشير الضياء القادم عند شروق الشمس ، أم فيه لفتة الى سيادة العتمة عند نأي القمر ؟

واني لأميل الى الاحتمال الثاني : سيادة العتمة ، وإسدال الليل أستاره على الكون ، ليترك أبواب الخيال مشرعة لشتى الرؤى .... الظلام يطبق على غابات النخيل ، فتزداد هيبة ، وسحراً وغموضاً ، ورهبة ... من هنا ينطلق وجه الشبه ، تلفه عتمة يوحي بها ، ويؤكدها تناسق الأجواء في صور القصيدة كلها .... فالأضواء المتراقصة تشبه اقماراً تتأرجح على صفحة الماء ساعة السحر . وهذا وقت ما تزال العتمة فيه سائدة . تلي هذه الصورة صورة البحر الذي مدّ المساء فوقه يديه ، وصورة أخرى يتثاءب فيها المساء ، والغيوم ما تزال تسحّ دموعها ، ثم صورة الصياد الحزين ، وهو ينثر الغناء حيث يأفل القمر .

---

(١٣) مختار الصحاح (سحر)

يدفعني الإيمان بالدرجة العالية التي وصلت إليها روعة هذه اللوحة الى التساؤل أكان لصورة العينين في ديوان السياب من أثر ، وهل بلغت هذا المستوى الراقي من الفن ؟

نثر الشاعر في أنحاء مختلفة من ديوانه انواعاً من رؤاه للعيون في صور تتفاوت دلالاتها ، لكن يغلب عليها ذلك الأثر المشحون عاطفة . فمنذ البدايات المبكرة اختار للعيون صورة ذات دلالة نفسية قوية :

لعينيك ، للكوكبين اللذين يصبان في ناظري الضياء
لنبعين كالدهر، لا ينضبان ولا يسقيان الحيارى الظماء [14]

ولا يخفى جمال الصورة الثانية ، صورة النبعين اللذين لا ينضبان . وان في عيني الحبيبة سحراً لا يقاوم :

سوف امضي حولي عينيك لا ترني أليّا
ان سحراً فيهما يأبى على رجلي مسيرا
ان سراً فيهما يستوقف القلب الكسيرا [15]

ويستثمر الشاعر أحيانا ذكرى العيون في لمحة خاطفة ، لرسم صورة نابعة من فكرة أخرى بعيدة ، مثل قوله :

اتبعيني .... هاهي الشطآن يعلوها ذهول
ناصل الألوان ، كالحلم القديم
عادت الذكرى به ... ساج كأشباح نجوم
نسي الصبح سناها والأفول

---

[14] الديوان : ١٢ . وقد نظمت هذه القصيدة سنة ١٩٤٧ .

[15] الديوان : ٤٨ .

في سهاد ناعس .... بين جفون

في وجوم الشاطئ الخالي ، كعينيك انتظار [١٦]

وقلما يصرّح السياب بلون العيون ، وكأنه يريد ان يطلق العنان لخيال المتلقي ليختار اللون الذي يريد . وقد وردت في الديوان إشارتان الى لونهما ، إحداهما هي :

عينان زرقاوان .... ينعس فيهما لون الغدير

أرنو .... فينساب الخيال ، وينصت القلب الكسير [١٧]

والأُخرى :

عينان سوداوان أصفى من اماسي اللقاء

وأحَبُّ من نجم الصباح الى المراعي والرعاء

تتلألأن عن الرجاء كليلة تخفي [١٨] دجاها

فجراً يلوّن بالندى ، درب الربيع وبالضياء [١٩]

وتتجلى في هذه الصورة ظاهرة النماء ، والانتقال من السكون الى الحركة المتدرجة رقياً .

جاء كثير من صور العيون في الديوان ساكناً مقيداً بحدود موقعه في القصيدة ، على الرغم من جمال قسم منه ، ذلك الذي لا يفارق الذاكرة بسهولة . فهما كوكبان يصبان الضياء في ناظري الشاعر ، وهما نبعان لا ينضبان ، ولا يسقيان الحيارى الظماء . وان فيهما سحراً يقيد

---

[١٦] الديوان : ٣٩ .

[١٧] الديوان : ٦٣ .

[١٨] كذا وردت ، ويبدو لي ان الاصوب ان يقال (يخفي) ليكون الفاعل (دجاها) والمفعول به (فجراً) . وبهذا تؤدي الجملة دوراً افضل في الصورة .

[١٩] الديوان : ٤٤ .

ويستوقف القلب الكسير ، ولا شيء غير ذلك . اما في المثال السابق فقد ظهر عنصر الحركة في الصورة جلياً ، وذلك حين أخذت العيون تتلألأ بنظرة تفيض على الحياة ضياء وندى . ثم يتطور تأثير العيون بازدياد مدى الحركة في صورة أخرى ، اذ نرى الأزهار تنبت حيثما تطلعت تلك العيون :

ولو ذرّتك في زفراتي الحرّى
رياح الوجد والحرمان ......والهفي على عينيك !
ليتهما تمرانِ
بدمع او بإشفاق على صحراء حرماني
لينبت في مداها الزهر ، ليتهما تمران
بما نسج التأمل من غيوم فيهما حيرى
بما نسج التفرد من نجوم فيهما سكرى
على عمري الذي عرّاه من زهراته الداء [٢٠]

وتستوقفنا هذه اللمحات الزاخرة بالحركة . تتلألأ العيون ، فتلون درب الربيع بالندى والضياء ، وترنوان فينبت في مداهما الزهر ، يبث التأمل فيهما غيوماً حيرى ، وينسج التفرد في نظراتهما نجوماً تتمايل رقة .

هذه اللمحات ، إذا اقترنت بصورة تجمع بين العيون والغابة ، فلا ريب ان الأذهان ستغدو مهيأة لاستقبال (أنشودة المطر) وقد فعل الشاعر هذا منذ وقت مبكر فقال :

عيناك .... أم غاب ينام على وسائد من ظلال ؟
ساجٍ تلثم بالسكون ، فلا حفيف ولا انثيال [٢١]

---

[٢٠] الديوان : ٢٣٤ .

ثم جاءت (أنشودة المطر) لترتقي باللمحات السابقة الى عـــالم اكــثر حركة ، وسعة ، وشمولاً :

عيناك حين تبسمان تورق الكروم

وترقص الأضواء .... كالأقمار في نهر

يرجه المجذاف وهناً ساعة السحر

كأنما تنبض في غوريهما النجوم

وتغرقان في ضباب من أسىً شفيف

كالبحر سرح اليدين فوقه المساء

وما اجمل ان أواصل القراءة ! ولكني سأتوقف ، لان في هـــذه اللوحة أشياء تستوقفني ، وتدعوني بإلحاح لاعادة القراءة علـــى وفــق مخطط جديد . وسأجازف فاقول حقيقة مشاعري ، نحو هذه اللوحة وهي أني أراها عقداً من الدرر يمكن ان يعاد نظمه . ولولا رفـــض البحـث العلمي العواطف لبقيت متمسكاً بفكرة (عقد الدرر الذي يمكـــن إعــادة نظمه) لذا سأقول : (لعبة الذكاء) بدلاً من (عقد الدرر) و (إعـــادة القراءة) بدلاً من (إعادة النظم) .

يبدو لي أن من الممكن إعادة قراءة مقدمة القصيدة على الوجه الآتي :

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر

أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر

كالبحر سرّح اليدين فوقه المساء

دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف

والموت والميلاد والظلام والضياء

---

[٢١] الديوان : ٦٤ . وقد نظم الشاعر هذه القصيدة في ٦ / ١ / ١٩٨٤ .

عيناك حين تبسمان تورق الكروم

كأنما تنبض في غوريهما النجوم

وترقص الأضواء كالأقمار في نهر

يرجه المجذاف وهناً ساعة السحر

وتغرقان في ضباب من أسى شفيف

فتستفيق ملء روحي رعشة البكاء

ونشوة وحشية تعانق السماء

كنشوة الطفل إذا خاف من القمر

وابتداء أقول ان هذا الشكل المفترض للمقدمة قد جار على موسيقاها المألوفة ، لكنني اعتقد انه الوسيلة الملائمة لفرز الصور التي تشكل اللوحة الأولى ، وتقديمها في شكل أرى انه اكثر قرباً وصدقاً في التعبير عما دار في مخيلة الشاعر . وحين يتم ذلك ، أي حين أتم التعبير عن تصوري لرؤيا الشاعر ، أرجو ان يطوي النسيان هذا الشكل المفترض ، وسأعود اردد مقاطع مقدمة الأنشودة ، مع الأجيال المعجبة بها ، بحماس وحب على وفق الشكل الذي اعتدناه .

ستنقسم لوحة العيون في الأنشودة على ثلاثة مقاطع : يتكون المقطع الأول من صورتين تعتمدان تشبيه العيون بغابتي نخيل مرة ، وشرفتين أخرى . وينطوي المقطع الثاني على حركة داخلية ، هي ابتسام العيون ، وما يثيره في خيال الشاعر . ويصور المقطع الثالث تلكما العينين حين يلفهما الأسى لتصبحا ــ من خلال أساهما ــ مدخلاً الى اللوحات الأخرى في القصيدة .

في حديثنا عن الصورة الفنية في المقطع الأول ، وقفنا عند تشبيه العيون بالشرفتين اللتين راح ينأى عنهما القمر ، هذا التشبيه الذي نرى ان لا أهمية فيه للمشبه به ، وهو الشرفتان ، الا من خلال نأي القمر عنهما ، هذه الحركة التي توحي ، كما أشرنا ، بالهيبة والسحر والغموض والرهبة ، والتي تثير في ذهن الشاعر صورة أخرى يقدمها في تشبيه جديد ، ليست العينان طرفاً فيه ، بل صورتهما في خيال الشاعر ، أي المشبه به . فهاتان الشرفتان اللتان هما المثال الاسنى للعينين ، حين تلفهما العتمة ــ بنأي القمر عنهما ــ تشبهان بحراً يبسط المساء سلطانه عليه ، ويلفه الظلام . ولكن أي مساء ، وأي ظلام !

لقد شحن الشاعر الصورة بثنائيات تعادلية ، تقطع الطريق على الوحشة ان تنفرد بالسيادة ، ولأجل أن يهيئ الأجواء لذلك ، خلق عالماً أسطوريا أحاط به البحر ساعة بسط المساء فوقه أستاره ، فتقابل دفء الشتاء الساري في الأوصال ، وارتعاشة الخريف الناهشة فيها . وجاءت بهجة الميلاد إزاء مرارة الموت ، كما جاء الضياء ليبدد وحشة الظلام .

ولعل معالم البهجة هذه قد أثارت دنيا الشاعر منطلقة من عيني الحبيبة او من وجدانه المبتهج ، وهو يتطلع اليهما

أما المقطع الثاني فهو صورة تبتسم فيها العينان ، فتتألق المرئيات ، وتزهو الموجودات بالإشراق والأمل ، من خلال قوله : (تورق الكروم) .... وأما هو ، فان اثر الإشراق على دنياه تجسده الصورة الآتية :

وترقص الأضواء كالأقمار في نهر

يرجّه المجذاف وهنا ساعة السَّحر

إن ما نراه جميلاً قد لا يكون كذلك في عيون الآخرين ، لذا سأحاول أن ابعد دلائل إعجابي غير المحدود بهذه القصيدة ، فلا استعمل تعبيرات (صورة فريدة) أو (رائعة) وان كنت واثقاً باني لن اصبر طويلاً على هذا ، واعود فاقول ان هذه الصورة نمط مألوف في عالم السياب فهي تحمل بصماته ، ولاسيما (ساعة السحر) .

في الشعر العربي صور كثيرة أبدع فيها الشعراء ، فجاؤوا بمعان فيها جمال أو طرافة ، أو جدة ، فبقيت مقترنة بأسمائهم على مر الدهور ، وغير بعيدة عنا صورة الروضة في معلقة عنترة ولمحة الذباب الغَرِدِ فيها .

ترقص الأضواء عقب ابتسام العيون ، فكيف يكون ذلك ؟
يمكن ان يكون ذلك مثل توهج الألعاب النارية في السماء . ولكن ليس هذا عالم بدر . ان في عالمه أربعة مصادر أثيرة للضوء ، هي : الشمس والقمر ، ونيران الموقد مساء ، والفانوس . وهي تتفاوت بروزاً في شعره . وان القمر أكثرها حضوراً في مخيلته ، فليكن إذن أداة التعبير عن رقص الأضواء .
وحين يستقر اختيار الشاعر ، تبرز صورة المساء . وينتقي الشاعر منه وقته المفضل (ساعة السحر) فيرسم الصورة الآتية :

القمر طافٍ على صفحة الماء في سكون ، يقطعه ارتطام المجذاف بالماء ، فتصدر نغمة فيها عذوبة حالمة في هذه الساعة من الليل ، وعندها تتتابع على صفحة الماء حلقات كثيرة ، تحمل كل منها صورة القمر ، لتبدو سلسلة متتابعة من الأقمار ، تطفو على مياه النهر . وهنا ينتهي مشهد ابتسام العيون . وخلاصته قول الشاعر :

كأنما تنبض في غوريهما النجوم

ولنتصور سماء فسيحة في مساء صافٍ ، تتوهج فيها من بعيـــد نجــوم متناثرة هنا وهناك .

هذه هي خلاصة الرؤيا . رؤيا يمثلها عالم فسيح ، واسع سعة البحـــر ، تلفه عتمة المساء ، وأجواء مفعمة بالأحاسيس . وقد تكررت هذه الرؤيـا تكراراً غير مملول يحمل في كل مرة تفرداً رائقاً .

وان لهذه اللمحات امتداداً في أنحاء متفرقة من الديوان ، ففـــي لحظــات حالمة وحين ترق النفس وترتقي نحو العالم الذي تأنس به ، يتحول القمر الفرد أقماراً كثيرة ، يغمر ضياؤها الوجود . يقول بدر في قصيدته (إرَم ذات العماد) ، واصفاً وقوف إنسان طامح الى السعادة ، عند حدود عالم أسطوري أخاذ :

لم أدر إلا إنني أمالني السحر

إلى جدار قلعة بيضاء من حجر

كأنما الأقمار منذ ألف ألف عام

كانت له الطلاء

كأنما النجوم في المساء

سِلْنَ عليه ثم فاض حوله الظلام (٢٢)

وفي ساعات الغربة ، التي تفجر في النفس اكثر الأحاسيس رقة ، يكـون القمر والنجوم جزءاً من العالم الذي يداعب خيال الشاعر ، عالم يلون فيه القمر المياه ، وتتردد فيه (دندنة) (٢٣) النجوم . يقول بدر :

---

(٢٢) الديوان : ٦٠٤ .

(٢٣) الدندنة : ان تسمع من الرجل نغمة ولا تفـهم مــا يقــول . مختــار الصحــاح (د ن ن) .

وذكرت كلتنا[٢٤] يهفّ بها ويسبح في مداها

قمر تحير كالفراشة ، والنجوم على النجوم

دَنْدَنّ كالأجراس فيها ، كالزنابق إذ تعوم

على المياه .... وفضَّض القمر المياها [٢٥]

وإذا كان صوت ارتطام المجذاف بالماء شيئاً لم يصرح به الشاعر في الأنشودة ، إنما تصورناه نحن (نغمة فيها عذوبة حالمة) فانه قد بين في قصيدة أخرى ان للمجذاف همساً ورنيناً ، وهو يداعب مياه النهر :

وكأنّ جسمك زورق الحب المحمل بالطيوب

والدفء والمجذاف همس في المياه يرنّ اها

فاها ، والنعاس يسيل منك على الجنوب

قليلة هي لحظات البهجة في حياة الشاعر ، وان الإحساس بها شيء غير مألوف لديه ، لذا نراه يفارقها مسرعاً ليعود إلى ما ألفه من مشاعر مُرّة . فجاء المقطع الثالث مفعماً بالأسى :

وتغرقان في ضباب من أسى شفيف

واعترف هنا ان هذا الشطر من المقدمة يتمرد بعنف على الشكل المفترض لها بعد محاولتنا إعادة قراءتها ، لان به حاجة ماسة للعودة الى سياقه المألوف . فحين يتصور الذهن الضباب وهو يلف عينين فيهما مثل ذلك السحر ، لا يملك الا ان ينساق باستسلام مطمئن الى صورة البحر حين يغشاه الضباب ، لذا لا مناص لنا من ان نردد مع الشاعر :

---

[٢٤] الكُلّة : الستر الرقيق يخاط كالبيت ، يتوقى فيه من البق . مختار الصحاح (ك ل ل) .

[٢٥] الديوان ٦١٣ .

وتغرقان في ضباب من أسى شفيف

كالبحر سرح اليديـن فوقه المســاء

وان عذري فيما أقدمت عليه من إعادة قراءة ــ أرجو بحرارة ألاّ تكـون تشويها ــ للمقدمة ، لاني وجدت الصورة تفتقر للمحـــة البحــر عقــب الشطر القائل :

او شرفتان راح ينأى عنهما القمر

لقد ولج الشاعر في المقطع الثالث عالم الأسى ، فبث ملامحه بين الألفاظ مثــل : رعشـــة البكــاء ، والخــوف مــن القمــر ، وجــاءت لفظــة (تستفيق) لتنفث إثارة ودلالة في أجواء الصورة :

فتستفيق ملء روحي رعشة البكاء

تبتسم عينا الحبيبة ، فيزهر الأمل في دنيا الشاعر ، ويرتدي الكون حلــة بهية ، فينسى أساه ، وينقطع بكاؤه المعتاد . وحين تغرق تلكما العينـــان بالأسى ، يعود الى البكاء مرة ثانية ، وكأنّ رعشة البكاء قد راحت فـــي إغفاءة ، ثم أفاقت عندما تصاعد ضباب الأسى .

عالم الأسى إذن هو المرحلة الثالثة والأخيرة في مقدمة القصيدة . ثلاثــة أشواط قطعناها بصحبة الشاعر ، لنقف على باب الأنشودة ، وقطـــرات ندية تتساقط على وجوهنا ، لا ندري أدموع هي أم مطر ....

ولا ينتهي الأسى بنهاية مقدمة القصيدة ، فان امواجاً من الحزن الهادئ (تغمر كل صورة من صورها ، وتتصاعد مع كل قطرة ، او دفقة مــن المطر ، وتغبش المشاهد بضباب من الأسى ، يولده البعد والضياع بعيداً عن الوطن والحبيبة . وكما يجدد ذلك الحزن الإيقاع الهادئ لموســـيقى

اسطر أو أبيات المقاطع الأولى ، يحدد ـ بالمثل ـ طبيعة الصورة نفسها ، ويبث فيها لوناً لافتاً من الأسى) [٢٦].

في هذه القصيدة حلم وقضية ، أما الحلم فهو مقدمتها ذات الخصائص الرومانسية ، واما القضية فهي ما قام عليه ، وأوحى به نسيجها الذي أفضت إليه المقدمة ، دالاً على (جوهر المأساة التي تشكل تجربة القصيدة ، والتي دفعته الى الفرار من العراق) [٢٧] .

الحلم في هذه القصيدة هو الحبيبة . والقضية هي الوطن . (وسواء أكانت الحبيبة مجرد رمز للوطن ، أم [٢٨] عنصراً مستقلاً عنه فان تواصل الشاعر معها لن يتحقق ، او يكتمل إلا بزوال الظلم الجاثم على العراق ، والذي ألقى به على الضفة الأخرى من الخليج) [٢٩].

استعان الشاعر بالصور على عرض تجربة القصيدة ، او القضية كما فعل في عرض مقدمتها ، وقد أدت هذه الصور دورها اداءً متميزاً ، فأفكارها نابعة من عالم القصيدة ، لا من خارجها . زيادة على ان مضامين الصور الخاصة بذات الشاعر ، كانت تلائم ما وظفه منها

---

[٢٦] حركات التجديد في الأدب العربي : ١٦٦

دار الثقافة للطباعة والنشر . القاهرة ١٩٧٥ م .

ان هذا المصدر هو محاضرات الأدب العربي لطلاب السنة الأولى في كلية الآداب جامعة القاهرة ، والنص الذي أثبتناه منتقى من الفصل الثاني ، الموسوم بـ (التجديد في الشعر العربي الحديث) مع دراسة أنشودة المطر للدكتور جابر عصفور .

[٢٧] المصدر نفسه : ١٦٥ .

[٢٨] في الأصل (او) .

[٢٩] المصدر السابق : ١٦٦ .

لعرض القضية ، أو تجربة الوطن . (وبهذا التفاعل الخصب بين الذات والموضوع تكامل للقصيدة بناؤها الداخلي ، وتدرج في النمو ، حركة اثر حركة ، من عيني الحبيبة الى الوطن ككل ، ثم الى مأساة ذلك الوطن والحدس بنهايتها) [٣٠]ويبدو ان اكثر الصور التصاقاً بذات الشاعر ، هي صورة الطفل لذي فقد أمه ، وهي صورة فيها حزن جلي وفيها أمل يطرز آفاق حزنها ، أمل تؤكده الصور الأخرى التي تعرض قضية الوطن ، فهذه الام الغائبة :

لا بد ان تعود

وان تهامس الرفاق أنها هناك

في جانب التل تنام نومة اللحود

وفي صورة أخرى يبقى الأمل يراود صياداً حزيناً ، في ان صيدا وفيرا سيعرف طريقه يوماً الى شباكه الفارغة ؛ فينثر الغناء حيث يأفل القمر .

ويبقى الأمل في ان غداً مشرقاً سيغمر نوره العراق ، وتتحقق فيه الولادة المأمولة :

أكاد اسمع العراق يذخر الرعود

ويخزن البروق في السهول والجبال

حتى اذا ما فض عنها ختمها الرجال

لم تترك الرياح من ثمود

في الوادِ من اثر

---

[٣٠] المصدر السابق : ١٦٩

ولكن هذا الأمل الذي أضاء صورة الام الغائبة في الأنشودة ، يخبو بعد سنين اذ يتضافر نمو الوعي ، ومرارة الغربة ، وآلام المرض على إخماد جذوته ، فيكبر الطفل ليصبح رجلاً ، يغلف الحزن دنياه في وطنه، ويمعن في سحقه ، وهو خارج حدود هذا الوطن ، ويصبح موت أمه وتلاشي الأمل في عودتها حقيقة مرة لا تشوبها شائبة . يقول السياب في قصيدته (الباب تقرعه الرياح) :

هي روح أمي هزها الحب العميق
حب الأمومة فهي تبكي :
(اه يا ولدي البعيد عن الديار !
ويلاه ! كيف تعود وحدك ، لا دليل ولا رفيق ؟)
أماه .... ليتك لم تغيبي خلف سور من حجار
لا باب فيه لكي أدق ولا نوافذ في الجدار !
كيف انطلقت على طريق لا يعود السائرون
من ظلمة صفراء فيه كأنها غسق البحار [٣١]

ويلج الرجل المريض ، وهو في غربته دهاليز الماضي ، وصولاً الى أيام صباه ، يوم كان فريسة الأحزان ، يوم بحث عن أمه فلم يجدها :

كيف انطلقت بلا وداع ؟ فالصغار يولولون
يتراكضون على الطريق ، ويفزعون فيرجعون
ويسائلون الليل عنك ، وهم لعودك في انتظار
الباب تقرعه الرياح ، لعل روحاً منك زار

---

[٣١] الديوان : ٦١٦ .

هذا الغريب !! هو ابنك السهران يحرقه الحنين [٣٢]

وتعتصره الآلام ، فيصرخ منادياً أمه من بعيد :

أماه ليتك ترجعين

شبحاً وكيف أخاف منه ، وما امّحت رغم السنين

قسمات وجهك من خيالي ؟

أين أنت ؟ أتسمعين ؟

صرخات قلبي ، وهو يذبحه الحنين الى العراق [٣٣]

قلنا ان في هذه القصيدة وجهين هما : حلم وقضية . وقد جعل الشاعر المطر مدخلاً لعرض أحدهما ، وهو القضية او الوطن . ومثلما تدرج بناء القصيدة الداخلي في النمو ، من عيني الحبيبة إلى الوطن ، بوصفه غاية كبرى ، تدرج عرض دلالة المطر في مضامين يغلب عليها الأسى ، فالمطر يثير الحزن في النفوس ، ويحيل أصوات الميازيب ، وهي تلفظه إلى نشيج . (وظلت حركة النمو في القصيدة صاعدة مع دفقات المطر التي كان تكرارها (مطر .... مطر .... مطر ....) بمثابة انتقالة دلالية وصوتية ، من حركة الى حركة أخرى صاعدة)[٣٤].

ورد ذكر المطر في اقدم نصوص الشعر العربي . (ويندر ان نجد شاعرا كبيراً في الجاهلية لم يتعرض لظاهرة المطر ، ولم يشعر أمامها بالرهبة والاحتواء ، وفي بعض الأحيان بالقداسة)[٣٥].

---

[٣٢] الديوان : ٦١٦

[٣٣] الديوان : ٦١٧ .

[٣٤] حركات التجديد في الأدب العربي : ١٦٩ .

[٣٥] دراسات في الشعر الحديث ، د. عبدة بدوي : ١٤٠ .

ط ١ ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م .

وتهدا حالة الرهبة التي تصاحب سقوط المطر ، كلما اقتربنا من ظـــهور الإسلام فيكتسب المطر والأفعال المقترنة به مثل (مطر) او (أمطــر) والألفاظ الأخرى الدالة عليه ، مثل (الغيث) وما يرتبط به من أفعــال مثل (غاث) و (يغاث) ، دلالاتها الخاصة المقترنة بالشر والعــذاب ، او بالخير والرحمة . وكان للمطر حضوره الدال في الأدب العربي ، في عصوره وبيئاته المختلفة . (فإذا جاء العصر الحديــث رأينــا أصــداء للأنغام القديمة في الشعر الخاص بالمطــر ، ابتداءً من البــارودي ..... ويمكن ان نرى هذا ، او قريــباً مــن هذا عنــد الاتجاه المسمــى بـــ ((الكلاسيكية الجديدة)) على حد ما نعرف من شوقي وحـــافظ) [٣٦]. ولم تبد (جماعة الديــوان) اهتماماً مميزاً بالمطر ، غير ان (جماعــة ابولو) أكسبته اتجاهاً جمالياً ، وكذلك فعل شعراء المهجر[٣٧] ويكتســب المطر عند الشعراء المجددين دلالات شتى ، تمتاز بالفرديــة والحــزن مثلما نرى عند نازك الملائكة ، وصلاح عبد الصبور وعدد من الشعراء الفلسطينيين .[٣٨]

(ولكن الدلالة الذكية الموّارة بالحيــاة ، لا نجدهــا الا عنــد شــاعرين يذكراننا بحيوية المصطلح في العصر الجاهلي ، وكونه ممتلئاً بــالخوف والثورة ــ ولا أقول بالقداسة ــ . اما الشــاعر الأول فهو (بدر شــاكر السياب) من العراق ، وذلك حين قدم لنا عملا كبيراً اســمه (أنشــودة المطر) وكيف انه استطاع ان يبنيها بناءً محكماً ، ومتصاعداً من مفهوم

---

(٣٦) المصدر نفسه : ١٥٩ .

(٣٧) نفسه .

(٣٨) المصدر نفسه : ينظر ١٥٩ ــ ١٦٠

المطر ودلالته المتفجرة بالحيوية) [٣٩]. واما الشاعر الثاني فهو الشاعر السوداني محمد المهدي مجذوب .[٤٠]

شدت دلالة المطر في الأنشودة أنظار الدارسين وحظيت باهتمامهم . يقول الدكتور جابر عصفور : (ان الحبيبة الوطن ، او الوطن والحبيبة يمثلان المحور المناقض للظلم ، فوجود أحدهما نفي لوجود الآخر ، والصراع القائم بينهما أشبه بالصراع القائم بين الميلاد والموت ، او الظلام والضياء ، او الخصب والجدب ، والمطر باعتباره رمزاً ، يشير الى الجانبين المتناقضين في العلاقة ، ويبلور الصراع بينهما ، فهو يحمل في طياته دلالة مزدوجة على الموت والميلاد ، والظلام والضياء ومقدم المطر ــ بهذا المعنى ــ موت لعالم آفل ، قوامه الجدب ، وميلاد لعالم جديد ، تتخلق بذوره مع دفقاته المنهمرة ، هذه هي الدلالة الأسطورية للمطر ، والسياب يستغلها استغلالاً رمزياً) .[٤١]

ومن المناسب هنا ان نشير الى ان أنشودة المطر ، ليست هي وحدها التي تفصح عن الدلالة الرمزية للمطر ، بين قصائد السياب ، ففي قصيدة (مدينة السندباد) نلمس فكرة شبيهة بالفكرة التي أفصحت عنها الأنشودة . فها هو ذا المطر يحمل دلالتيه أنفسهما : الموت والميلاد ففي ارتباط المطر بموت العالم القديم يقول السياب :

عريان في الثلج بلا رداء

صرخت في الشتاء

أقضَّ يا مطر

---

[٣٩] المصدر نفسه : ١٦٠ .

[٤٠] نفسه .

[٤١] حركات التجديد في الأدب العربي : ١٦٧ ــ ١٦٨ .

مضاجع العظام والثلوج والهباء

مضاجع الحجر

وانبت البذور ، ولتفتح الزهر

واحرق البيادر العقيم بالبروق

وفجّر العروق

واثقل الشجر [٤٢]

وفي دلالة المطر على ميلاد عالم مزدهر ، يقول في القصيدة نفسها :

وجئت يا مطر

تفجرت تنثك السماء والغيوم

وشقق الصخر

وفاض من هباتك الفرات واعتكر

وصاحت العظام

تبارك الإله ، واهب الدم المطر [٤٣]

وتكتسي هذه الدلالة الرمزية بطابع أسطوري في مواضع كثيرة من ديوان السياب . يصور الشاعر في نسيج أسطوري ابتهال أطفال بابل للآلهة عشتار ، سائلين إياها أن تبل صدى الأرض العطشى :

وسار صغار بابل يحملون سلال صبار

وفاكهة من الفخار ، قرباناً لعشتار

ويشعل خاطف البرق

بظل من ظلال الماء والخضراء والنار

---

[٤٢] الديوان : ٤٦٣ .

[٤٣] الديوان : ٤٦٤ .

وجوههم المدورة الصغيرة وهي تستقي

فيوشك ان يفتّح ــ وهي تومض ــ حقل نوار [٤٤]

ويبتهل أطفال بابل بتضرع ، يشي بقدسية المطر :

فيأمَنْ صدرها الأفق الكبير وثديها الغيمة

سمعت نشيجنا ، ورأيت كيف نموت فاسقينا [٤٥]

وينهمر المطر مدراراً :

وفتّحت السماء لغيثها المدرار باباً بعد باب

عاد منه النهر يضحك وهو ممتلئ [٤٦]

فيملأ الشاعر أجواء الصورة بعبير قدسي تقترن فيه دلالة المطر الرمزية على الميلاد ببشائر الولادة المنشودة ، في مفردات منتقاة من التراث الديني :

وتحت النخل حيث تظل تمطر كل ما سعفه

تراقصت الفقائع وهي تفجر ــ انه الرطب

تساقط في يد العذراء وهي تهز في لهفة

بجذع النخلة الفرعاء (تاج وليدك الأنوار لا الذهب) [٤٧]

ويحاول الشاعر ان يبين ان لأساه ما يسوغه ، وان مرارته ليست حالة فردية ، فالعالم المحيط به ممعن في وأد كل نفثة ، او إشارة توحي بالأمل ، لذا هو حين يحدد هبات الخليج بثلاثة الأشياء الآتية : اللؤلؤ والمحار ، والردى ، تقوم القوى الغيبية القادرة على التغيير بتعديل مقاله

---

[٤٤] الديوان : ٤٨٩ ــ ٤٩٠ .

[٤٥] الديوان : ٤٩٠ .

[٤٦] الديوان : ٥٩٨ .

[٤٧] نفسه .

فتستبعد اللؤلؤ ، وما يرمز إليه من نعيم ، وتوافقه على ان الدنيا ، ممثلة بالخليج ، إنْ وهبت خيراً ، فان هذا الخير ليس في متناول الأيدي فلا بد من جهدٍ مضنٍ ، قد لا تعقبه فائدة ، فالأمل في نواله مثل الغوص في البحر سعياً وراء المحار ، وليست كل محارة مهداً للؤلؤة . ولكن هذه القوى توافقه على ان الردى هو من هبات الخليج . من هنا جاء قول الشاعر :

أصيح بالخليج : (يا خليج

يا واهب اللؤلؤ ، والمحار والردى !)

فيرجع الصدى

كأنه النشيج

يا خليج

يا واهب المحار والردى

ونقف في الأنشودة أمام لوحة نشيد المهاجرين ، الزاخرة بالمعاناة والناطقة بالأمل النابع في نفوس صهرتها الآلام ، فبقيت منها خلاصة تصلح لأن تكون أساساً لبناء عالم جديد . فهؤلاء المهاجرون تركوا أوطانهم بسبب ضنك العيش ، الناجم عن الاستلاب والجور ، وسوء توزيع الثروات ، وبدؤوا رحلة قُدِّر لهم في مستهلها ان يخوضوا صراعا ضارياً ، ولعل هذا الصراع المبكر ينبئ بما سيكون عليه الحال في المراحل اللاحقة . وعلى الرغم من تداعي الذكريات المرة ، فان شعلة الأمل لا تخبو في نفوسهم .

فـ (كل دمعة من الجياع والعراة

وكل قطرة تراق من دم العبيد

فهي ابتسام في انتظار مبسم جديد

وفي هذه اللوحة صورة ناطقة بمعنى أنساني رقيق ، ولمسة واقعية ، رسمها الشاعر بإيجاز بليغ في قوله :

وكم ذرفنا ليلة الرحيل من دموع

ثم اعتللنا خوف ان نلام بالمطر

ويتكرر نداء الشاعر للخليج ، مؤكداً هباته الثلاث : اللؤلؤ ، والمحار ، والردى ، فيعقبه الصدى نفسه ، مبقياً على هبتين هما : المحار والردى .

وتتأكد ضالة هبات الخليج ، وقسوته حين تحمل الأمواج الى الشاطئ محاراً تختلط به عظام أحد المهاجرين الذين سقطوا في صراعهم ضد البحر ، في رحلتهم المضنية لبناء عالم جديد :

وينثر الخليج من هباته الكثار

على الرمال : رغوه الأجاج والمحار

وما تبقى من عظام بائسٍ غريق

من المهاجرين ظل يشرب الردى

ثم تلوح تباشير الأمل ، فبعد أن كانت الأقدار القاسية تئد التفاؤل والبسمة فيرجع الصدى مبتوراً ، خالياً من الرجاء ، ها هو ذا هذه المرة يأتي طافحاً بالأمل ، مبشراً بالخير والرفاء :

(في عالم الغد الفتي ، واهب الحياة)

ويختتم الشاعر رائعته هذه بهطل المطر .

المـــراجـــــع

١. حركات التجـديد في الأدب العربـــي . وهو محاضـــرات منهجية لمجموعة من الأساتذة منهم الأستاذ الدكتور جابر عصفور .

دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٥ م .

٢. دراسات في الشعر الحديث ، د. عبدة بدوي .

ط ١ ، منشورات ذات السلاسل

الكويت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م .

٣. ديوان بدر شاكر السياب

دار العودة ، بيروت ١٩٧١ م

٤. مختار الصحاح للرازي

دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

كتاب مراصد الإطلاع
وصفي الدين ابن عبدالحق البغدادي
دراسة في التراث الجغرافي العربي

ا.د. نوري عبدالحميد خليل

كلية التربية / ابن رشد ـ بغداد

الملخص :

حتى مدة قريبة كان الكتاب والباحثون في التاريخ ينسبون كتاب (مراصد الإطلاع على اسماء الامكنة والبقاع) الى كل من ياقوت الحموي صاحب كتاب معجم البلدان وصفي الدين بن عبدالحق البغدادي وجلال الدين عبدالرحمن السيوطي . ولما كان السيوطي متأخرا ، ولم يرد في لائحة مؤلفاته انه اختصر معجم البلدان ووجدت نسخة مخطوطة الكتاب تعود لمدة سابقة لولادته ، فقد اقتصر الامر على العالمين الاولين . ولذلك نسب الكتاب من بعض من قاموا بتحقيقه الى ياقوت الحموي ونسبه البعض الآخر الى صفي الدين .

وقد ظهر من هذه الدراسة أن الكتاب الذي هو اختصار لمعجم البلدان ، قد تم التفكير باختصاره من صاحب المعجم نفسه ، وقد شرع في ذلك فعلا ولكن وفاته حالت دون إتمامه . فأتمه صفي الدين واضاف اليه شيئا من معلوماته وصحح له بعض الهفوات ولم يضع اسمه على الكتاب تعففا ، ولاسيما انه عالم عراقي عارف باحوال البلاد .

يعد كتاب (مراصد الإطلاع على اسماء الامكنة والبقاع) واحدا من كتب التراث الجغرافي العربي المهمة والكثيرة الفائدة في تحديد مواقع الكثير من الممالك والمدن والقرى والانهار والمعسور من الارض • محددا اوصافها واسماءها وما تجود به تربتها ، واحوالها ، كما كانت عليه في زمن تأليف الكتاب• ومع ان الكتاب لا يعدو كونه اختصارا لكتاب (معجم البلدان) الذي ألفه ياقوت الحموي الرومي البغدادي المتوفى في حلب سنة ٦٢٦هـ/١٢٢١م ، إنه توفر على تصويبات واضافات من مؤلف كتاب (المراصد) • والكتاب على الرغم من اهميته يثير اشكالية للباحثين المحدثين ، فضلا عما اثاره للذين تولوا نسخه بعد تأليفه بزمن ليس ببعيد •

فلقد اختلف هؤلاء الباحثون والنساخ في اسم مؤلف الكتاب . بعضهم ذكر ان مؤلفه مجهول ، وفريق آخر نسبه الى ياقوت الحموي صاحب المعجم ، او الى صفي الدين بن عبدالحق البغدادي المتوفى سنة ٧٣٩/١٣٣٩ ، في حين نسبه آخرون الى جلال الدين عبدالرحمن السيوطي المتوفى سنة ٩١١/١٥٠٥ • ومنشأ هذا التباين في الاراء هو ان مؤلف الكتاب لم يضع اسمه عليه • وعلى الرغم من وجود عدة نسخ مخطوطة للكتاب في المكتبات العالمية في الوقت الحاضر ، لا يمكن القطع بنسبة الكتاب بشكل نهائي لاي من الثلاثة المذكورين فضلا عن ان الكتاب قد طبع عدة مرات •

طبع (المراصد) اول مرة يينبول Juynboll في ليدن سنة ١٨٥٠ دون ان يذكر اسم مؤلفه • ثم طبع طبعة حجرية في طهران سنة ١٨٩٧ ونشره حسين محمد الكاشاني الذي ذكر اسم ياقوت الحموي مؤلفا للكتاب • وطبع طبعة ثالثة في القاهرة سنة ١٩٣٨ باسم ياقوت الحموي ، وطبع طبعة رابعة في القاهرة سنة ١٩٥٤ باسم صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق •

وتفحص المستشرق رينو H.J.T Renaud طبعة يينبول بعناية وخرج بنتيجة تفيد انه وجد في الاقل ثلاث مخطوطات من الكتاب ، واحدة منها فقط لياقوت والثانية لابن عبدالحق والثالثة للسيوطي • ويبدو انه توصل الى هذا

الرأي استنادا لما ذكره المؤرخ مصطفى بن عبدالله المعروف بـ (حاجي خليفة) وبـ (كاتب جلبي) المتوفى سنة ١٠٦٧/١٦٥٧ ، الذي قال « ان معجم البلدان اختصره كل من ابن عبدالحق السيوطي ، وان الاخير لم يتم مختصره كما ورد في لائحة مؤلفاته » فضلا عن كون مقدمة الكتاب الذي نسب اليه تشبه الى حد كبير مقدمة المخطوطات الاخرى من كتاب المراصد والمنسوبة لكل من ياقوت الحموي وصفي الدين[٢] ، وان السيوطي متأخر جدا ، اذ انه توفي بعد وفاة صفي الدين باكثر من قرن ونصف .

ومنذ ذلك الوقت صارت نسبة الكتاب لكل من ياقوت او (الصفي) مثار جدل بين الباحثين . ولاسيما ان المؤرخين العرب الذين كتبوا عن الاثنين اشاروا الى ان ياقوت اختصر معجمه ، وان لائحة مؤلفات صفي الدين تذكر أيضا انه اختصر معجم البلدان . والامر الذي يزيد في هذه الحيرة ، هو ان نسخ المخطوطات التي تضمها المكتبات العالمية لكتاب المراصد لم يكتب عليها اسم مؤلف بعينه . وان الاسطر الاولى من مقدمتها تشير الى انها لياقوت والاسطر الاخيرة تدل ، دون ادنى شك ، انها لمؤلف آخر .

ففي خزائن الكتب التركية ، على سبيل المثال يوجد الان مالا يقل عن تسع نسخ من مخطوطة الكتاب ، واحدة دون اسم مؤلف والاخرى كتب عليها اسم جلال الدين عبدالرحمن السيوطي ، واربع منها لصفي الدين بن عبدالحق واحدة منها تحمل عنوان (مراصد الإطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ؛ مختصر معجم البلدان) ، وثلاث منها كتب عليها اسم ياقوت الحموي ، واحدة تحمل عنوان (مراصد الاطلاع ، مختصر معجم البلدان)[٣] . ويذكر المؤرخ العراقي عباس العزاوي الذي اطلع على هذه الخطوطات « ان النسخة المهمة منها موجودة في خزانة ولي الدين افندي في استانبول ، كتبت سنة ٦٩٩/١٢٩٩ » . ولم يشك العزاوي قط في كونها لغير الصفي اذ قال « كتبت قبل وفاة مؤلفها صفي الدين بنحو اربعين سنة »[٤] .

ودرس الباحث المصري علي محمد البجاوي الموضوع بعناية فائقة ، ورجع في ذلك الى المصادر التي ترجمت لصفي الدين . والى كتب القدماء والمحدثين الذين تناولوا الموضوع من امثال حاجي خليفة وجرجي زيدان[٥] وغيرهما ممن نسبوا الكتاب لصفي الدين . ودرس ايضا مقدمة كتاب المراصد ، واطلع على النسخ المطبوعة منه ولاسيما طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ . ثم عمد الى طبع الكتاب طبعة اخرى اعتمادا على مخطوطة القاهرة التي تعود كتابتها الى سنة ١١٠٨/١٦٩٧ والمنسوبة الى ياقوت الحموي . لكنه نشرها باربعة اجزاء باسم صفي الدين ، بوصف ان كاتب المخطوطة « اختلط عليه الامر ، فنقل اول المقدمة من كتاب آخر ، لان جزءها الاول يختلف عن المطبوعة ، وجزءها الاخير يتفق مع ما جاء في هذه المطبوعة كل الاتفاق » . ثم قال « نسبنا الكتاب لابن عبدالحق ، ولقد اطمأننا الى ذلك بعد بحث وطول اناة »[٦] .

والواقع ان البجاوي لم يقدم دليلا مقنعا حول نسبة الكتاب لصفي الدين فاذا كان هو مؤلف الكتاب حقا ، فلماذا لم يذكر اسمه عليه ؟ علما انه وضع اسمه على عشرات الكتب التي الفها او اختصرها من كتب الفها غيره ؟ ، بعضها اقل شأنا من هذا الكتاب . ولماذا كان المراصد (إن كان للصفي) هو الوحيد الذي وصل الينا من كتبه بشكل كامل في حين فقدت المؤلفات الاخرى باستثناء مؤلف واحد او اثنين ؟

للاجابة عن هذه التساؤلات ينبغي ان نذكر ان مقدمة معظم الخطوطات التي عثر عليها من الكتاب تشير ضمنا الى ان مؤلفها هو ياقوت الحموي . اذ وردت فيها عبارات مثل « ألفت الكتاب الكبير المسمى معجم البلدان » و « اتممت الكتاب ... » و « ضمنت الكتاب ... » . فضلا عن ان هذه المقدمة تشبه تماما مقدمتي كل من كتاب (المعجم) وكتاب (المشترك) الذي هو ايضا من كتب الحموي ، اسلوبا ومعنى ومنهجا ولغة . وهو امر يدل على انها جميعا لمؤلف واحد . وهل من المعقول ان يؤلف عالم كتابا علميا كبيرا ولا يضع اسمه عليه ؟ او ان ينسبه الى عالم آخر غيره ؟

إن المدقق في مقدمة كل من طبعة طهران وطبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ من كتاب (الراصد) يقرأ في الاسطر الاولى « اما بعد فقد الفت الكتاب الكبير المسمى بمعجم البلدان ••• واتممت هذا الكتاب فجاء مطولا ، وفي حمله مثقلا فاستخرت الله سبحانه وتعالى ، واقتبست من مشكاته ما اتفق من اسماء البقاع لفظا وخطا ، واوفق شكلا ونقطا • وزودت ما احتاج الى الزيادة ، وتركت ما تكرر من اللفظ والمعنى ولم يحتج الى الاعادة •• ووضعت في كتابي هذا ما يكفي به من طالعه واقتفى اثره » • وواضح من هذه المقدمة ان المختصر (أي مؤلف المراصد) هو ياقوت الحموي دون غيره ، مع الاخذ في الحسبان ان هذه المقدمة قد تنطبق على كتاب المشترك ، وهو ما يراه البجاوي من ان هذه الاسطر قد اقتبسها الناسخ من مقدمة كتاب آخر سهوا دون ا نيذكر (البجاوي) اسم الكتاب الاخر •

إن منشأ الشك في نسبة الكتاب الى الحموي ، هو ان الحموي نفسه كان قد قرر عدم اختصار معجمه بعد إتمامه بشكل بات • فقال « التمس مني الطلاب اختصار هذا الكتاب مرارا فأبيت ••• فما انقدت اليهم ولا ارعويت » وحظر على النساخ والدارسين اختصاره فقال « ولي على ناقل هذا الكتاب والمستفيد منه ، ان لا يضيع نصبي ونصب نفسه له وتعبي بتبديد ما جمعت وتشتيت ما لفقت وتفريق ملتم محاسنه باختصاره » • ثم يوكل امر من يخالف وصيته هذه الى الله سبحانه وتعالى « إن اجبتني فقد بررتني جعلك الله من الابرار ، وإن خالفتني فقد عققتني والله حسيبك في عقبى الدار » • وهو يعتقد جازما ان الاختصار يقلل من اهمية الكتاب ، اذ يجعله كالجسم المشلول الذي بترت اعضاؤه « إن المختصر للكتاب كمن اقدم على خلق سوي فقطع اطرافه وتركه اشل اليدين ، ابتر الرجلين ، اعمى العينين ، اصم الاذنين »[٧]•

ومن جهة اخرى فاننا لا نجد في لائحة (ابن خلكان) التي ذكر فيهما اسماء كتب ومصنفات ياقوت الحموي ، التي وقفها المؤلف نفسه على احد مساجد بغداد ، التي حملها (عز الدين بن الاثير) الى هناك ، ما يشير الى وجود

مختصر لكتاب معجم البلدان غير كتاب (المشترك وضعا والمفترق صقعا)[٨].
ولعل هذه الشواهد هي التي جعلت الباحثين يستبعدون اختصار ياقوت لكتاب المعجم . ولكن وجود الكتاب الاخير (المشترك) الذي ألفه ياقوت بعد (المعجم) وهو اختصار للمعجم ايضا ، قد يتخذ دليلا على ان ياقوت لم يلتزم الحظر الذي فرضه على نفسه وعلى الاخرين في اختصار الكتاب ، او اقتضابه اذ انه استخرج المشترك من المعجم سنة ٦٢٣/١٢٢٦ ، فجاء مختصرا جدا[٩].

جاء في مقدمة المشترك « هذه طرفة طريفة وملحة مليحة تشوق اليها النفوس والطباع ، ويشترك في استحسانها أهل الاجماع والنزاع . اقتحلتها من كتابي الكبير المسمى بمعجم البلدان ، فيما اتفق من اسماء البقاع لفظا ووافق شكلا ونقضا ، وافترق مكانا ومحلا ... جئت به مختصرا على الاسماء ، ومالا بد منه لحصر الفائدة بالايماء ، ليخفف على الحامل نقله ، ويتيسر على الناقل نقله وسميته المشترك وضعا والمفترق صقعا »[١٠].

من هذه المقدمة يبدو لنا ان الحموي قد غير رأيه ، وانه اقتنع اخيرا بفائدة اختصار المعجم . ولكنا اذا تابعنا قراءة الاسطر الاخيرة من مقدمة كتاب (المراصد) تتولد لدينا قناعة ان الكتاب ليس لياقوت الحموي اذ ان الكاتب للمقدمة انتقد منهجية ياقوت في تأليف المعجم ، وتضمينه الكثير من المعلومات الزائدة التي ليس لها صلة مباشرة بموضوع الكتاب ، مثل اشتقاق الاسماء وطوالع البلدان ، واسماء المنسوبين الى الاماكن . فقال « ذكر ذلك كله ووضعه في كتابه مما اطال به الكتاب حتى جاء في مجلدات كثيرة اتعبت الناظر وعسّر ذلك تحصيله على الطالب . وقد وضعت في كتابي هذا ما يكتفي به من طالعه واقتفى أثره ، بحيث إنه يستخرج ما في الممالك والمدن والقرى وغير ذلك، عار من الاختصار والاطناب ، واودعته المقصود على نهج الصواب . معتمدا في ذلك على الكتاب المذكور (المعجم) فقيدت ما قيده واهملت ما اهمله لعدم تمكني في الوقت من تحصيله . وربما زدته بيانا في بعض المواضع واصلحت ما تنبهت عليه فيه من خلل وجدته في ذكره لبعض الاماكن ، اما لانه نقله من غيره على

ذلك الوجه وهو خطأ او ظنه كذلك • وقد عرفته انا وحققته وسألت عنه اهل المعرفة من سكانه ومجاوريه والمسافرين الى جهته • وقد يكون ممـا رأيته في سفري واجتزت به وخاصة في اعمال بغداد فانه كثير الخطأ فيها » •

ومن هذه الاسطر يبدو ان المؤلف هو غير ياقوت الحموي ومن المرجـح ان يكون عراقيا عارفا باحوال بغداد وتوابعها كثير الاسفار • وقد رأى صاحب هذه المقدمة ان يجد تبرير لمخالفته وصية الحموي فقال « لم اقبل منه شـرط ولا التزمت الحظر الذي حظره في اختصاره وتغيره ، فان ذلك شرط لا يلـزم ومظنة الفائدة تعد • فجاء بحيث يتمكن الناظر من إطلاعه ، ولا يشق كتابتـه رغبة في نشر العام ومثابرة على تسهيل الفائدة ، وسميته بمراصد الاطـلاع على اسماء الامكنة والبقاع » •

هذه الملاحظات فطن اليها الباحث المصري محمد علي البجاوي ايضـا والذي يبدو انه لم يطلع على طبعة طهران من الكتاب ، فقال عما ورد في مخطوطة القاهرة التي اعتمد عليها في تحقيق الكتاب « هذا كلام لا يتفق اوله مع آخره فأوله يدل على إن مؤلف الكتاب (المعجم) ومختصره واحـد هو ياقـوت الحموي ، وآخره يتفق مع مقدمة مطبوعة ليـدن كل الاتفاق ويـدل على ان مختصر الكتاب غير مؤلفه »(١١)•

ويلقي كاتب جلبي بعض الضوء على هذا الاشكال في حديثه عن معجـم البلدان ، وينقل ما ذكره الصيمري(١٢) الذي قال « قال في مراصد الاطـلاع وهو مختصر المعجم الفت الكتاب الكبير المسمى بمعجم البلدان في معرفـة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر من كل مكان • وانتخبته من كتب التواريخ والخطط والعجائب وغير ذلك فجاء مطولا ، واقتبست منه مـا اتفق من اسماء البقاع لفظا وخطا ، وزدت ما احتاج الى المزيدة • ثم وجـدت في مجموعه شيئا منقولا منه على انه تأليف ابن عبدالحق الحنبلي • « وهـو نص يفيد ان صاحب الاضافات والتصويبات هو ابن عبدالحق دون غيره » •

وكل هذه الادلة تشير الى كتاب (المراصد) ليس من عمل شخص واحد وان ما ورد في الاسطر الاولى من مقدمة الكتاب يمكننا القول ان الذي شرع باختصار المعجم هو مؤلفه ياقوت الحموي نفسه ، وانه اقتنع في اخريات ايامه بضرورة الاختصار وبدأ في ذلك فعلا بعد ان أتم كتابه (المشترك) ، أي قبل وفاته بثلاث سنوات ، لكنه لم يتمكن من إكماله فأكمله صفي الدين ، بعد ذلك بقرن ، وصفي الدين ينطبق عليه ما ورد في المقدمة من اوصاف ، فهو بغدادي كثير الاسفار الى الشام والحجاز ومصر ، مطلع على احوال هذه البلاد ، فضمن الكتاب ما شاهده او سمعه ولم يشأ ان يضع اسمه على الكتاب حفاظا على الامانة العلمية .

واذا كانت الكثير من البحوث والدراسات قد تعرضت لشخصية ياقوت فان الواجب يقضل هنا تقديم نبذة عن حياة صفي الدين الذي لم تكتب سيرته بشكل شمولي بعد .

ولد عبدالمؤمن بن عبدالحق بن عبدالله بن علي بن مسعود البغدادي الحطي الملقب (صفي الدين) والمعروف بن (ابن عبدالحق) وبـ (ابن الشمائل) ببغداد سنة ٦٥٨/١٢٦٠ اي بعد سنتين من دخول المغول بغداد . اخذ علومه المبكرة عن أسرته التي عرفت بالعلم ، فأبوه كمال الدين عبدالحق كان خطيبا بجامع فخر الدولة عبدالمطلب ، وكذلك كان جده ابن الشمائل قبله . جذبته دراسة الحديث والفقه فسمع من علماء بغداد ولازم بعضهم ، ثم اقبل على الاشتغال في الامور الدنيوية لتوفير لقمة العيش ، معتمدا في ذلك على خطه الجميل وسرعته الفائقة في الكتابة والنسخ والمهارة في علم الرياضيات ، وهو امر اهله للعمل في ديوان حكومة بغداد المغولية مدة قصيرة . ولكن نزاهته وعفته وما عرفت به الادارة آنذاك من فساد وانحلال جعله يترك العمل الرسمي ويتخلى عن الاعمال الدنيوية وينصرف الى العلم فلازمه مطالعة وتصنيفا وتدريسا واشغالا واشتغالا حتى وفاته .

بعد ان درس في مدارس بغداد الشهيرة آنذاك وتتلمذ على علمائها ، زار الشام والحجاز ومصر وكانت هذه الاقطار خارجة عن سلطة المغول فهاجر اليها الكثير من علماء العراق • فدرس هناك ودرّس وناظر واجتمع بالعلماء والاساتذة وتعرفهم ، وقد وسعت هذه الزيارات معارفه وعمقت تفكيره واطلعته على التيارات الفكرية السائدة هناك • وذكرت المصادر اسماء عدد من شيوخه في بغداد والشام والحجاز ، اذ خرج لنفسه معجما لشيوخه سماه (منتهى اهل الرسوخ في ذكر من اروي عنه من الشيوخ) • وبعد عودته من رحلته درّس في المدرسة البشيرية ثم بالمدرسة المجاهدية وكانتا من كبريات مدارس بغداد حينذاك • وقيل انه رشح للتدريس بالمدرسة المستنصرية لكنه لم يوافق على ذلك لعدم رغبته في الوظيفة او التدريس في مدرسة صارت شبه رسمية في ذلك المعهد • ولم يكن التدريس مكان عمله الوحيد بل انه افتى وناظر وحدث كثيرا ، وترك عددا كبيرا من الطلاب في العراق والشام والحجاز ومصر اخذوا عنه العلوم النقلية والعقلية وسجلت المصادر اسماء عدد من طلابه •

صنف في علوم كثيرة في الفقه والاصلين والحساب والجبر والمقابلة والفرائض والوصايا والمواريث والحديث والطب والفلك والمساحة والهندسة • واختصر كتبا في التاريخ والجغرافية فضلا عن تميزه في النحو والادب ونظم الشعر وكان على معرفة تامة بدلائل القبلة وهو موضوع جديد في زمانه وكذلك صنعة البناء والهندسة • ومن كتبه التي ذكرتها المصادر (تحرير المقرر في تقرير المحرر) في ست مجلدات ، و (العدة في شرح العمدة) مجلدان و (إدراك الغاية في اختصار الهداية) وسماه التمهيد ، ثم شرحه في اربع مجلدات وسماه (تجريد العناية في شرح اختصار الهداية) و (شرح المسائل الحسابية في الرعاية الكبرى) وسماه (الإيضاح والبيان لما في الرعاية الكبرى للشيخ نجم الدين بن حمدان من المسائل الخبرية) وكتاب (تحقيق الامل في علم الاصول والجدل) ثم اختصره في كتاب آخر • و (تسهيل الوصول في علم

الاصول) و (تلخيص المنقح من الخطل في علم الجدل) و (قواعد الاصول ومعاقد الفصول) و(اللامع المغيث في علم المواريث) و(اسرار المواريث) و(الزهر الناضر في روضة الناظر) و(المطالب العوال لتقرير منهج الاستقامة والاعتدال) و (مختصر تاريخ الطبري) في اربع مجلدات واختصر (الرد على ابن المطهر) الذي الفه تقي الدين ابن تيمية في مجلدين . وتصنيف بعض المصادر الى ذلك انه اختصر كتابا في الجغرافية ، وأخرج معجما لشيوخه وكتب قبل موته في علوم وفنون كثيرة .

وصفه بعض من ترجموا له بانه (عالم بغداد) و (شيخ العراق على الاطلاق) وقال عنه تلميذه ابن رجب البغدادي « كان إماما فاضلا ذا مروءة واخلاق حسنة ، وحسن هيئة ، وشكل عظيم الحرمة ، شريف النفس منفردا في بيته لا يغشى الاكابر ولا يخالطهم ولا يزاحمهم في المناصب ، بل كان الاكابر يترددون اليه كان ذا ذهن حاد وذكاء وفطنه وعنده خميرة جيدة من اول عمره في العلم » . ومع كل هذه الاوصاف إن تلميذه ابن رجب يشك في قدراته في موضع آخر ويقول « له اوهام كثيرة في تصانيفه حتى في الفرائض من حيث توجيه المسائل وتعليلها رحمه الله وسامحه » .

وقال عنه تلميذه الاخر سعيد بن عبدالله الدهلي « كان فقيها بارعا عالما زاهدا متواضعا خيرا حسن الاخلاق ، ومحاسن كثيرة طارحا للتكلف على طريقة السلف ، محبا للخمول طاهر اللسان »(١٤) .

ويبدو ان موقفه من سلطات بغداد المغولية كان سلبيا بدليل تركه العمل في ديوان بغداد ، ورفضه التدريس في المدرسة المستنصرية . وقرر الانزواء في بيته منقطعا عن ابناء الدنيا وهذا السلوك جعل السلطات الحاكمة تهابه وتحترمه . ولما اثيرت مسألة الزيارة وشد الرحال الى قبور الانبياء والصالحين سنة ٧٢٦/١٣٢٥ ، حدثت فتنة في الشام ومصر بسبب جواب الشيخ تقي الدين بن تيمية على هذه المسألة . وازداد التشنيع على ابن تيمية ومنع من الافتاء وحبس في قلعة دمشق . وقد وجدت هذه المسألة صداها في بغداد التي

انتصر عدد من علمائها في اجوبتهم لجواب ابن تيمية ، وفي مقدمتهم ابن عبدالحق الذي سجل جوابه بموافقة ابن تيمية مع اجوبة علماء بغداد . فحبست السلطات الحاكمة في بغداد سائر العلماء الذين كتبوا في المسألة موافقة لابن تيمية وأوذوا كثيرا ، إلا ابن عبدالحق الذي لم يتعرض لسوء هيبة له واحتراما[١٥] . وكان ابن عبدالحق على اتصال دائم بابن تيمية والاستفسار منه عن بعض المسائل التي ترد في كتبه .

مات ابن عبدالحق سنة ١٣٣٨/٧٣٩ عن احدى وثمانين سنة ، وقد حزن عليه اهل بغداد حزنا كبيرا ، ودفن بمقبرة الامام احمد في باب حرب . وقد ضاعت معظم كتبه ومصنفاته خلال الفوضى والاحداث التي عرفها العراق في الحقب التالية ، ولم يصل الينا منها سوى ابيات من شعره وردت على ألسنة طلابه ، وكتاب في الاصول طبع مختصره[١٦] ، وكتاب في الجغرافية نسب اليه كان موضوع هذا البحث .

إن ضياع هذا العدد من المؤلفات ادى الى خسارة كبيرة في المرجعيات والعلوم التي كانت متداولة في ذلك العصر الذي وصف بانه (عصر مظلم)

الهوامش والمصادر

١ ـ اقتباسا عن كراتشوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي عند العرب ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم (جامعة الدول العربية ١٩٦١) ٣٤٣/١ .
٢ ـ مصطفى ابن عبدالله الشهير بحاجي خليفة وبكاتب جلبي : كشف الظنون على اسامي الكتب والفنون (طهران ١٩٦٧) ١٦٥٢/٢ و١٧٣٣ .
Istanbul Kutubhanelerinde Osmanlilar Devrine Aid Turkce-Arabca-Farsca Yazma Ve Basma Cografya Eserler Biliyasi (Istanbul 1953).
٤ ـ عباس العزاوي : التعريف بالمؤرخين (بغداد) ١٩٥٧ ص ١٧٥ .
٥ ـ تاريخ آداب اللغة العربية . (القاهرة بلا) ٨٩/٣ .
٦ ـ صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق : مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ، تحقيق محمد علي البجاوي (القاهرة ١٩٥٤) المقدمة .
٧ ـ مقدمة كتاب معجم البلدان طبعة وستنفيلد .

٨ ـ ابن خلكان : وفيات الاعيان ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد (القاهرة ١٩٤٩) ٥/١٨٠ـ١٨٩ .

٩ ـ ر.م.ن.لي.الهي : ياقوت الحموي البغدادي ، ترجمة يوسف داود عبد القادر ، مجلة المورد ، (بغداد) العدد الاول ١٩٧٨ ، ص ٢٢ .

١٠ـ ياقوت الحموي : المشترك وضعا والمفترق صقعا (طبعة وستنفيلد ١٩٤٥).

١١ـ مقدمة مراصد الاطلاع (طبعة القاهرة لسنة ١٩٥٤) .

١٢ـ كتب عن السمعاني صاحب الانساب وعن ابي عبيد البكري وعن ابن عساكر الدمشقي .

١٣ـ كشف الظنون ، ص ١٧٣٤ .

١٤ـترجم له كل من ابن رجب البغدادي : الذيل على طبقات الحنابلة (القاهرة ١٩٥٣) ٢/٤٢٨ـ٤٣٠ . وكتاب ذيل تذكرة الحفاظ الذهبي ، الذيل الاول لمحمد بن علي الحسيني الدمشقي (بيروت بلا) ص ٢١ . وابن رافع السلامي : تاريخ علماء بغداد المسمى المنتخب المختار (بغداد ١٩٣٨) ص ١٢٣ـ١٢٥ . ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة (القاهرة ١٩٦٦) ٣٢/٣ ، وابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب (بيروت بلا) ١٢١/٦ وجميل الشطي : مختصر طبقات الحنابلة (دمشق ١٣٣٩) ص ٦٠ والشوكاني : البدر الطالع (لقاهرة ١٣٤٨) ص ٤٠٤ واسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين (طهران ١٩٦٧) ص ٦٣١ ، وايضاح المكنون (طهران ١٩٦٧) ص ٤٦٣ .

١٥ـ ابو المعالي الحسيني الشافعي : غاية الاماني في الرد على النبهاني (بلا) ١٩٤/٢ـ١٩٩ وفيه نص جواب صفي الدين .

١٦ـ قواعد الاصول ومعاقد الفصول ، مطبوع في كتاب مجموع فنون اصولية لاشهر مشاهير علماء المذاهب الاربعة ، وقد اختصر وطبع باسم (الاصول ومعاقد الفصول) ، ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية (بغداد ١٩٦٥) ص ١٨٨ .